الأدب الأفريقي الجنوبي

قصص - مقالات - شعر

إبداعات أفريقية
7

إبداعات أفريقية 7

الأدب الأفريقي الجنوبي

قصص - مقالات - شعر

ترجمة :
أ. د. هاني يحيى نصري

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٧م

الأدب الأفريقي الجنوبي: قصص - مقالات - شعر / ترجمة هاني يحيى نصري .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٦ .- ٤٦٤ ص؛ ٢٠ سم

(إبداعات أفريقية؛ ٧)

١ - ٨٢٠,٨ جن ن ص ر أ ٢ - العنوان ٣- نصري
٤ - السلسلة

مكتبة الأسد

قال آرثر شوبنهاور

(إن الخلف سيظل

بالدناءة والحمق مثل

السلف والمعاصرين

في كل زمان ومكان)

الإهداء

أهدي هذه الترجمة إلى عشيقة قلبي زوجتي (سلمى فريد فياض)، والتي لولا تساؤلاتها لما كان لي ثلاثة وثلاثون عملاً آكاديمياً مطبوعاً في أسواق الفكر الجامعي قبل هذا العمل.

٢٠ /٩ /٢٠١٥م

أ. د هاني يحيى نصري

مُقَدِّمَة

بقلم الدكتور
هاني يحيى نصري

لمحاولة فهم الأدب الأفريقي الجنوبي:

لا يمكن فهم الأدب الأفريقي الجنوبي إلا من خلال التحولات التي طرأت على فكر الأفارقة الأصليين بين لغتي: الأفرقة الحديثة،«النيغرية Niggerit» الاستعمارية القديمة، تماماً مثل ما رصده«فوكو Michel Foucault»، بالتحول الذي حصل في«حقلي الأركيولوجيا Archaeology» و«الأبستميولوجيا Epstemology»، منذ القرون الوسطى في أوروبا حتى القرن السابع عشر، إذ (يختلف هذان الحقلان عن الأسس التي نفكر بها اليوم... رغم أن قواعد اللغة التي نفكر بها من خلالها اليوم لا تختلف عن قواعدهما، وليست بعيدة عنهما)[1]، وهو ما يمكّننا من تسمية عصرنا بعصر

(1) Michel Foucault, the order fo things, vintatge books, N. y 1970, P: xxii.

«الكوغنيتاريا Congnitirism»، أي التوجه من مجرد فهم الأمور لمحاولة الإحاطة الإدراكية بها في كل المعارف والعلوم، الأمر الذي يغير من الأسس الأساسية للمعرفة، وهذا الانتقال بالمعرفة من الفكر والتفكير بحقل معين إلى كل أبعاد وعيه الفلسفية المختلفة، عبر ما تمثله وتحتضنه وتتضمنه كل حضارة على حدة، بما يتماهى بين كلمتي وعي وإدراك في اللغة العربية بكل ما هو مضمر في ضمير الأمة، ليجده الإنسان في وعاء ذاته كمدرك عقلي، أحب تسميته بالوعي(١).

الوعي الذي يمده المدرك بالمعاني فيستوعبها ويخزنها بالمضمرات فيه، التي للضمير اليد الطولى فيها بحواسه الداخلية، وتتحكم المعارف القديمة والتقليدية والمعاصرة في هذا المخزون ليظهر بالسلوك، وبكل وسائل التعبير عند الفرد، والتي يراها الأنتربولوجيون تعبيراً عن تأثره بحضارته.

وقد ضرب«فوكو» مثالاً على ذلك في مضمرات البنية الفكرية الأوروبية التي لا يمكن التسامح فيها، على أساس أن اللغة هي أهم بنية يمكن أن يحكم الغربي بها على شخص أو مجموعة بشرية بالشواذ، وهناك بهذا المعنى حكمان يتمسك بهما الغرب قبل وبعد تجاوزه للعرقية، التي آذت الغرب قبل سواه وخاصة بالحرب العالمية الثانية، وهما:

---

(١) انظر كتابنا، الفكر والوعي، مجد، بيروت ١٩٩٨م، ص٥٩.

أولاً: الخروج عن المنطق باختلاط العقل أو غيابه.

ثانياً: مجانية كل الصيغ العقلانية بتحييدها عمداً!

فالحضارة الأوروبية حضارة عقلانية بامتياز، بعد عصر النهضة، لذلك (لم يتحدَّ «فوكو» الجنون باللاشعور كما فعل «فرويد»، بل بتماهيه مع الحلم، لكن في حال اليقظة)[1]؟ وبرأيه يشكل هذا الغارق بمجانبة الصيغ العقلانية بالأحكام التوراتية التي بنيت على التمسك اليقظ بأشياء لا وجود لها - كما أكد سبينوزا - (عندما سمع الإسرائيليون مجرد ضوضاء عالية لا تتميز فيها الحكايات، وخلال هذه الضوضاء أدركوا الوصايا العشر)[2] من البراكين في سيناء، وقال: (لم يسمع أي نبي كان - كما سأبين فيما بعد - أي صوت حقيقي)[3]؟!

ومن عندنا ذهبت الصوفية في القرون الوسطى لتبرر فترات الخروج عن العقل عند «Niggerit» بأفريقيا، وطبعاً للشعوب الأفريقيا بكل أديانها المحلية عبر تراثها الشفهي بكل لغاتهم المحلية، المنفصلة عن بعضها (بإطار عام غريزي مبني على

---

(1) Michel Foucault, Madness and civilization, vintage books, N. y. PVIII 1988

(٢) سبينوزا، رسائل في اللاهوت والسياسة، دار الطليعة، بيروت ١٩٩٧، ص ١٢٧ - ١٢٨.

(٣) المرجع السابق، ص ١٢٧.

الأحلام لا على التأمل، والفرق في كيفية البعد عن استخدام العقل)[1]، وخاصة في فهم اللامنظور على عكس الاستعمار الذي لم يميز الحضارة الأوروبية التي احتكت بالحضارات الأفريقيا بعد احتكاك الإسلام بها، بالحضارة، الآرية، متناسياً دورنا في بيئة أفريقيا الحضارية.

لذلك اختلف إدراك المطلقات ووعيها بين القاسم الصوفي المشترك عند الأفارقة كلهم على اختلاف أديانهم وأيديولوجياتهم، عن الكيفية المنطقية الفلسفية في مقاربة إدراك المطلقات ووعيها عند الغربيين الذين بعد أن دخلوا أفريقيا باستعلاء، لا يشبه ولا بحال من الأحوال امتداد الحضارة العربية إليها عبر التصوف الإسلامي اللطيف والذي انتشر بحسن المعاملة (لثلث سكان أفريقيا الذين مازالوا يدينون إلى اليوم بديانات تقليدية، بينما الغالبية الباقية من المسلمين، وقلة من المسيحيين)[2]. وهؤلاء هم، الذين أرادوا الخلاص من نعت: «indigenous savages» الاستعماري، ليجدوا أنفسهم مضطرين للقتال من أجل خلاصهم من نعت آخر هو: «Niggerit»، والتي لم يهتم الرجل الأبيض بها طالما كانت

---

(١) انظر كتابنا، الإسلام ليس ايديولوجيا، دار الفكر، دمشق ٢٠٠٩م ص٣١٦.

(2) Lourenti Magesa, African Religion, orfis Books, N. y1997

محصورة بالآداب اللغوية المحلية، لكنها حين وصلت إلى لغاته الإسبانية والبرتغالية والفرنسية والإنكليزية، وبعد زوال العرقية من كل الدول الغربية - على الأقل من حيث القوانين الصارمة التي تحرمها الحرب الثانية، خضعت آخر ما خضعت جنوب أفريقيا العنصرية لإلغاء العرقية وهرائها«الداروني»، متوافقاً مع الدراسات الجينية الحديثة العلمية التي أحاول أيضاً إيضاحها بشكل موجز بين الأعراق، فنالت جنوب أفريقيا استقلالاً عرقياً في تساوي سكانها أمام القانون، الأمر الذي ظنته الجالية الاستيطانية الكبيرة للبيض هناك، كافياً لإنهاء «الترومات[1] وجراحها السوداء» Traumatic wounds لتجد أن الأمل العقلاني بتطفيحها إلى حين الإدراك، وذلك حتى لا تظل مثل كل مسكوت قهري عنه، عاملاً أساسياً من عوامل تدمير الدول، فوصلتنا هذه القطرة التي هي من بنية بحر الأدب الأفريقي ككل، والتي تتأهل عظاتها أن توضع أمام كل الشعوب التي فرضت وربما ساعدت المناخ المحدودة موارده على نفسها بتبني نظم الحياة القبلية العشائرية، وما فيها من ملكيات مشتركة في كل مقتنيات القبيلة الجسدية والعقائدية - والعينية وحتى الفكرية -، المسخرة لكل هذا الذي يحيد الفكر

---

(١) الرضوض النفسية بعد الفاجعة.

ويجعل من الإمعية فضيلة، وهنا صلب الإشكال بين الفكر الأوروبي الرافض تحييد الفكر عن السلوك بصورة متطرفة، جعلت من ظنه باليقين المطلق بالفكر قدوساً لا يمكن تجاوزه، في الوقت الذي يشهد التحول الاجتماعي فيها تغيرات في مستندات الفكر الأساسية عندهم، وفي قواعده الأساسية التي تقرر بالعلم صواب أو خطأ المعتقدات الأيدلوجية عندهم، فكان الخلط مثلاً بين المعرفة والعلم بمعناها الحديث في العصور الوسطى الأوروبية في الاعتقاد بأن المثيولوجيا علم في العصر المدرسي «scholastic» نتيجة الرغبة الأيديولوجية الراسخة في الغرب بضرورة عدم تحييد المعرفة عن كل سلوك ظاهر: بمحاكم التفتيش سيئة الذكر، ولما انتصر عصر النهضة على المدرسيات الأيديولوجية، ومع بروز التجريبية العلمية هناك، قُدِسَ العلم[1] بمعنى المشاهدة الواضحة التغير بشكل ظل مع النظريات «الداروينية» يظن بما يشبه اليقين بأن هناك أعراقاً أفضل من سواها في السلالات البشرية، إلى درجة اعتبار أنفسهم فصيلة من القردة الحمراء - المتطورة -، فصار من لا يقول بالتطور محيداً نفسه عن المعرفة العلمية يستأهل نبذ آرائه، وحتى نبذه شخصياً، ولما ترافق هذا الأمر مع ما أطلق

(١) بدل المعرفة الدينية وحلَّ «التفتيشي» بالعنف ذاته محلَّها.

الغرب عليه عصر الاكتشافات الجغرافية، وما تسميه الشعوب التي قهرها هذا العصر بالتقنية الغربية العسكرية: «بالاستعمار الاستيطاني» لبلاد الآخرين، التي تعجبهم - مثل قارات بحالها -، كان أصغرها «برأس الرجاء الصالح» المسماة جنوب أفريقيا، فاعتبر السكان الأصليين بقبائلهم المختلفة وحتى المتناحرة أحياناً متوحشين، كذريعة لإسقاط الصفة الإنسانية عنهم، أو القبول بها فقط باتباع مبشّريهم.

وراح الغربيون أيضاً يتنافسون على ما سموه بالمجال الحيوي لدولهم في تقاسم نفوذ كل منهم على مساحات شاسعة في أفريقيا، وضمها تحت أسماء دولهم بملكية خاصة واسعة مثل: الصومال الإيطالي والكونغو البلجيكي.. إلخ. أما جنوب أفريقيا فظهرت فيها قبائل أفريقيا من الشمال والوسط الأفريقي منذ ما قبل القرن السادس عشر وأهمها أربعة؛ أشهرها «الزولو Zulu» التي قاتلت المستوطنين الأوروبيين ومعظمهم من «الهولنديين Dutch»، الذين نقلوا الكثير من العبيد من غرب أفريقيا عام ١٦٥٤م، وجاء بعد هجرة الفرنسيين أفارقة من وسط أفريقي(1). لكن أكبر هجرة استيطانية حصلت من إنكلترا فقد وصل نصف مليون ليلحقوا بربع مليون في رأس الرجاء

(1) Encyclopedia international, Lexion Publications, U.S.A, 1976, vol P 17.

عام ١٨١٩م بعد أن ظهرت حمى البحث عن الذهب والألماس، بين المستوطنين القادمين الجدد وبين القدامى، إلى الأعوام التي أعقبها «حرب البوير Boer war» مع بريطانيا بين الأعوام ١٨٩٩م و١٩٠٢م، التي ربحها «الإنكليز»، وما تبعها من معسكرات اعتقال أودت بعائلات كثيرة للمستوطنين غير الإنكليز من البيض[1]، بوحشية بين بعضهم سببها الجشع ليس إلا.

أما التوزع المدني في جنوب أفريقيا للملوَّنين فهو على الشكل التالي:

- ٨٠% من الملونين مسيحيون.
- فيهم ٧٣% من الهنود هندوس
- منهم ٢٠% من الهنود المسلمين[2].

من عدد السكان الإجمالي الذي يناهز العشرين مليوناً اليوم تقريباً[3].

والذي يهمنا ترجمته في هذا الكتاب جانب من أدب السكان الأصليين الأفارقة السود باللغة الإنكليزية، ونشير إلى أن لهم كتابات بالهولندية وغيرها، وباللغات الزنجية المحلية تستأهل

(1) Ibid
(2) Ibid, p 42
(3) Ibid, p 40

الوقوف عندها، لمعرفة حضارة تلك البلاد قبل الاستيطان الأوروبي - الشرقي الآسيوي فيها، وخاصة القبائل التي قاومت الاستيطان مثل قبائل«الزولو».

فمن بحر الأدب الأفريقي الجنوبي الذي تستأهل عظاته أن توضع أمام وضع حالنا اليوم، عسى أن يكون الدين دليلاً على أن حرية الكلمة بديل عن تدمير الأمم، وهذا ما يجب تعلمه من كلا الإنسانين، الأبيض في عقلانيته، والأسمر في عظمة تداخل الحضارات عنده، وفي كيفية ردوده الشعرية والنثرية التي يُظهر فرادة فيها، لنقوم بالترجمة من خلال العقلانية«المنطقية» الواحدة بين البشر في إمكان فهم الأدب باللغات المختلفة، لتعاد صياغتها بالعربية شرط المحافظة على المعنى بكل دقته، مع معرفتنا المسبقة باستحالة جعل اللحن الشعري الإنكليزي عندنا عروضاً، وعدم تضمن فعل الوجود«verb to be» إلا مضمراً في اللغة العربية[1]، لذلك لا يستقيم المعنى - أي منطق الفهم - للعبارة إلا بإعادة الصياغة التي تحتاج إلى خبرة طويلة بالنقل بين اللغات، والإحاطة الإدراكية التي لا يمكن إغماط الفكر المنطقي الأوروبي بأهميتها المنطقية، مع كل مآخذ البشرية

---

(١) انظر مفهوم الوجود «Existence» بكتابنا: الوجود والموت والخلود، دار القلم، بيروت ١٩٩٨.

على ما عرف بالغرب في القرون الوسطى «بالعرفان Gnosis» والذي كاد التشبث به من خلال الاعتقاد بوجود حد نهائي للمعرفة اليقينية، والذي أوصل أوروبا إلى محاكم التفتيش، ثم حين ثبتت استحالته ظلوا على ظن إمكان وجود حدٍ نهائي للعلم بدل المعرفة، ليقوموا من منطق اليقين هذا بأشد أنواع التعصب للدارونية، وخاصة بكل جهودهم غير المشكورة لإقناع الملونين بأنهم أقل إنسانية من البيض في سلم التطور، يقول «كارل بوبر»: (إن الافتراض العلمي في البيولوجيا «Hypothesis» من الملاحظات... مثل افتراض وجود جدٍ واحد لصيغة عرقية، هو ليس... قانوناً)[1] ويضيف: (في الواقع، إن كل القوانين الطبيعية افتراضية شرط أن لا يضللنا ذلك عن أن الافتراض ليس قانوناً)[2]، وللتأكد من صحة هذه الافتراضات في مجال البيولوجيا.

وعلى هذا الأساس طرح المشتغلون بالبيولوجيا ونظريات المعرفة - الأبستيمولوجيا سؤال «بوبر» على «بوبر» نفسه: «لماذا لا تكون آراؤه بحد ذاتها افتراضية تخرج دوماً من محبي الزنوج المشفقين عليهم»؟!

---

(1) Karl Popper, the Peverty of Historicism, Routlede, London 2002, p 97.

(2) Ibid, p98

عندها توجهت الدراسات البيولوجية للإجابة عمّا يمكن إخضاعه للإمبيريقية في«فلسفات التصميم» من منطلق أنه يجب أن يبدأ بحث«الماكرو» من«الميكرو» في الفيزياء والفيزياء العضوية، فظهرت بحوث«D.N.A» لتثبت أن كل البشر يشتركون بشيفرة وراثية واحدة، ومع هذه البحوث منذ ستينيات القرن الماضي إلى المرجع الذي ثبته في هامش هذه الصفحة(1)، راح الفكر العرقي يتداعى لينتقل«ماندلا Mandela» من بطل محلي إلى بطل عالمي، ورفاقه من«توتو إلى ماكواي» إلى رجال دولة تقرر للعالم كله أن«العدالة» هي الديمقراطية الصحيحة(2)، لا تأويلاتها الاستعمارية البلوتوكراسية - نسبة إلى:«Plutarch، ٤٦ق.م - ١٢٠ق.م» - الإغريقي - الروماني الجنسية الذي بنيت على نظرياته الديمقراطيات الرومانية سابقاً، والكثير من البرغماتية الديمقراطية حالياً، مقابل تأويلات محلية ضحلة تنتهي بالطغيان، سنجد بعضاً من عظاتها في أدب هذا الكتاب من شعر وقصص.

---

(1) Pieter E. vermaas, Philosophy and Design, springer U.S.A 2008, p23.

(٢) وقد بدأ بحث هذا عندنا مع رفاعة الطهطاوي بكتابه، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام ١٩٩٣، ص١٨١.

هـذا ويمكننـا إيـضاح تتـابع مـا حـصل في جنـوب أفريقيـا حضارياً على النحو التالي:

- القبائل التي وجدها الاستعمار الأوروبي في جنوب أفريقيا كانت هناك منذ ما قبل القرن السادس عشر مـن شـمال الوسـط الأفريقي.

- وشأنها شأن قبائل شمال أفريقيا قبل الفتح الإسلامي عـدا مصر كانت بدائية بسبب شيوع تحييد العقل عن السلوك.

- وبعد الفتح الإسـلامي لـشمال أفريقيـا بـدأ الاحتكـاك بـين تلك القبائل مع «الزوايه» الصوفية التي نقلت لبعضها الإسـلام الصوفي الذي تقبلته كمحيد للعقل مثلها، أمـا الفقـه الإسـلامي العقـلي فلـم يـدخل أفريقيـا إلا مـؤخراً بعـد زوال الفاطميـة مـن مصر بأحقاب.

- هكذا تماهى تحييد العقل مع تخلف أفريقيا بمعظمها تباعـاً كما أوضحناه من دراسات «فوكو» السابقة.

- أمـا في الثقافـة الأوروبيـة «القرنوسـطية» فكانـت أسـباب الاخـتلاط بـين العقـل والنقـل والتـي لـسنا بـصددها بـل فقـط بنتائجها، سبباً لظهور طغيانات محاكم التفتيش في كل جرائمهـا ضد أوروبا ومع الحـروب الـصليبية، وخاصـة في شـمال أفريقيـا بعـد طـرد العـرب مـن الأنـدلس، واحـتلال ثغـور الـشمال

الأفريقي، قبل توغلهم مع أمثال«ماجلان» نحو رأس الرجاء الصالح.

- ثم ارتد هذا الطغيان«التفتيشي» على أوروبا، نفسها تماماً كما ارتد الطغيان«الداروني» عليهم بعد أن فصلوا النقل عن العقل وتمسكوا بنظريات العقل.

- الماكرو - وكأنها يقين مطلق، بالفاشية والنازية المعاصرتين.

- الداورنية شاعت عند المستعمرين الليبراليين واليساريين على قدر سواء، الذين سيرى القارئ في هذه الترجمة رأي وشكوى الفيلسوف المجهول خارج أفريقيا الجنوبية«لويس نكوسي Lwois Nkosi» بمقاله الثاقب في هذه الترجمة تحت عنوان: «القوة السوداء أو روح الكاتب الأسود»، والذي به كشف عن عرقيتها واستغلال الروح السوداء الرافضة لمهانات العرقية، من أجل ضمهم للثورة اليسارية في القرن الماضي عند الكتلة الغربية كجزء من النضال الثوري ضد الإمبريالية، مجيرين قضيتهم العرقية ضد الاستعمار الإمبريالي لا النظام العرقي بحد ذاته، رافضاً هذا التجيير بمنطق فلسفي راق، لأن الثورات الحقيقية لا تجير قضاياها المصيرية لأحد. - فعدم خروج الإنسان الغربي الأبيض عن عرقيته، تتشابه مع تشبثه

بمحاكم التفتيش في ماضيه، التي لم يحاول الخلاص منها ومن منطقها، إلا بالمنطق العلمي - بقدر خلطه القديم بين كلمة علم ومعرفة - ضد النقل، ففَصَل الدين عن الدولة ليتبنى ما هبَّ ودبَّ من كل نظرية تدَّعي العلمية، خاصة في العلوم الإنسانية.

- ولأن الشيء الثابت بالحضارة الغربية ككل عدم القبول بتحييد العقل مهما كان خاطئاً، كان لابد من حك هذه النظريات على المنهج«الأبستيمولوجي» العلمي بحد ذاته، ورغم كل الوقت الذي يستغرقه الفكر العلمي التجريبي ويحتاجه للقيام بتجارب لابد من الصبر معها وخاصة تجارب الميكروبيولوجي بشكل محدد.

لذلك لم ينته العمل على فك الشيفرة الوراثية للبشر قبل بداية هذا القرن، لكن في القرن العشرين كانت الساحة للعرقية بكل عنتها حتى عند من ضجروا من النازية والفاشية كتعبيرين سياسيين عنها، فقد (أجاز الكونغرس عام ١٩٢٤م لائحة لتحديد الهجرة تفرض حصصاً صارمة على الأوروبيين الجنوبيين وعلى الشرقيين على أساس أنهم أغبى من الأنواع «النوردية الشمالية» التي غلبت على السكان الأمريكيين قبل عام ١٨٩٠م)[١]، وهذا يذكرنا نحن العرب بتعميات

(١) مات ريدلي، الجينوم السيرة الذاتية للنوع البشري، عالم المعرفة، الكويت عام ٢٠٠١م، ص٩٦.

«لا مارتين» الساكن في لبنان ضد سلالات البحر الأبيض المتوسط بأنهم خليط من الأسود والأبيض الأوروبي، لذلك هم أقل حضارة من أوروبا - قاعداً في حضننا وناتفاً ذقننا» - كما يقال بالعامية، ولمثل هذه الآراء العرقية أراد«الكونغرس» الأمريكي تحديد هجرات الشرقيين وجنوبيي أوروبا لأمريكا مطلع القرن العشرين قبل تحديدها اليوم بصفة ميوعة كلمة: إرهاب؟! باحثين عن سبب يمنع احتكاك حضارتنا بهم ليدعوه: منطقياً ولو عن طريق التجريبية الاستعراضية«بهوليود»؟! تماماً كما كانوا يتمسكون بعبارات الانتخاب الطبيعي« Natural selection»«الداروني» (لأن الانتخاب الطبيعي لا يترتب عليه بالضرورة تقدم تطوري، ولا هو الطريق إلى الكمال)[1]، فقد جاء عصر البيولوجية الجزئية - ميكرو - ليكشف لنا عن حقيقة مهمة وهي: (التقارب الشديد بين السلالات البشرية)[2].

- هكذا اضطرت حضارة عدم تحييد العقل، نتيجة البحوث الإمبيريقية -التجريبية - إلى التخلي عن هراء العرقية بالدراسات المكثفة لفك الشيفرة الوراثية للإنسان بالمشروع«الجينوي» البشري[3]، الذي أنجز في نهاية تسعينيات القرن الماضي، فصارت

---

(١) أرنست ماير، هذا هو علم البيولوجيا، عالم المعرفة، الكويت ٢٠٠٢م، ص٢٢٣.
(٢) المرجع السابق، ص٢٧١.
(٣) دانييل كيثملس، الشيفرة الوراثية للإنسان، عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٧م.

الكتابات مثل التي نحن بصددها تلقى أذناً صاغية عند حضارة عشاق المنطق، لمعرفة الحقيقة التي يتلاعب بها السياسيون هناك، لأرى أنا شخصياً من واجبي بعد تردد في ترجمة هذا العمل لتقديمه للقارئ العربي بعد أن اطلعت عليه باللغة الإنكليزية فأعجبني بعد ظني أنه ككل الأعمال الأدبية التي توضع بين يدي دور النشر، والكتاب قائم على الشكوى والنجوى، لا على تأكيد أي واقعة«Fact» يمكن العمل بها، لا: هذا عمل يؤكد وقائع، ويجب أن يقرأه كل مهتم بالعدل وشروطه - الحيادية - مع الإنصاف، بعد أن تبين أن الخيط الأبيض مثل الخيط الأسود من جذر واحد، وفقط الاختلافات المناخية هي التي غيرت ألوان كل منهما، كذلك كل شروط البيئة الاجتماعية القبلية، عن شروط البيئة الاجتماعية المؤسساتية التي شكلت دولاً منذ فجر الحضارة اليونانية، إزاء البنى الاجتماعية في أفريقيا التي لازالت حتى اليوم تنهكها الصراعات العشائرية القبلية المتعصبة، ومع التكنولوجيا العسكرية التي توفرها كل الدول الكبرى كجزء من مغانمها الاقتصادية، لم يعد هناك أي وعد مستقبلي بتوقف الحروب الأهلية بعد زوال الاستعمار المباشر في أفريقيا، كما في كل الدول ذات البنى العشائرية التي تستدعيه اليوم ضد جاراتها، ولا من يستجيب، لأن الأجدى للاستعمار غير المباشر والأربح له صنع الفتن والحروب المحلية لبيع السلاح بدل أن يستعمله هو، فتقع الجرائم على عملائه لا على جيوشه.

فأن نترجم ما كتب من الأدب الأفريقي الجنوبي قبل سقوط العرقية هناك، لا يعني أن المشكلات التي كان يطرحها ذاك الأدب انتهت كلها بانتهاء العرقية، لذلك لفت نظري في هذه النصوص التي أترجمها المشكلات التي طرحها من نحن بصددهم، ولازالت قائمة في كل أفريقيا، ولا يحلها هذه المرة سوى الأفارقة أنفسهم، فلا الأدب ولا الفكر يستطيع بنصرة أمة مظلومة أن يجعلها المسيطرة على مشكلاتها التي سببت ظلم الآخرين لها، ومثال ذلك:

قصة «نادين غوديمر» التي لم تغادر «جوهانسبورغ» كبعض الكتاب في هذه القصص، ربما لوضع يدها في قصتها على ما عبرت عنه بالنهاية المأساوية «لجوسياس» في قصتها: من المؤكد سيكون يوم اثنين»[1]، تلك المرأة التي أرادت أن تبقى بجانب زوجها وأخيها الذي ربته صغيراً، فهي تريد أسرتها فقط، فلحقت بهما بعد فرارهما إلى «دار السلام» للالتحاق بالقوات التي كانت الجزائر وأثيوبيا تدربانها، بعد فشلهما بعملية ضد البيض في «جوهانسبورغ»، فعملت ممرضة، لكن:

حتى الأفارقة الذين تدعم دولهم تحرير جنوب أفريقيا لا يرحبون بأفارقة مثلهم لأسباب مناطقية وقبلية بحتة، وحيث

---

(١) أي لحظة الصدام مع البيض.

أُرسِل «جوسياس» زوج «إيما» ويبقى أخوها بانتظار أن يُرسَل، عندها انفجرت بشكل «هستيري» خوفاً من أن تبقى وحيدة في الغربة تعمل مع: «طاقم طبي لا يحب أي غريب يعمل... معهم». . إنها قصة تساوي السوء بين الضغطين العرقي والمناطقي على الإنسان، لا في أفريقيا - كما أظن - فقط، بل في كل العالم القبلي العشائري الذي كان الاستعمار يسميه همجياً!!؟

وللتمييز بين العقلية المؤسساتية الغربية من الناحية الاجتماعية والعقلية القبلية المتخلفة التي أعداؤها منها وفيها، إضافة إلى عداء العرقية ضدها، أي للتمييز بين تحييد العقل بالمشاعر الموروثة والرغبات، اقرأ قصة «آلان باتون» «سبونونو Sponono» الحائز صاحبها على جائزة الحرية عن مجمل أعماله التي لم ينلها من قبل سوى «تشرشل» و«داغ همرشولد» بهيئة الأمم المتحدة[1].

«سبونونو» الصبي في إصلاحية رأى أن مديرها يجب أن يكون بمنزلة شيخ القبيلة الأفريقيا: عليه تَقبُّل أخطائه - المتكررة والدفاع عنه بما كان يسميه بالمسامحة، خاصة وأنَّ إله البيض في الإنجيل مسامح، وبما أن «الزولو» مذ حاربوا البيض

---

(١) تجد تفصيل ذلك بالرسالة المختصرة عن سيرة المؤلفين بهذا الكتاب.

فلا بأس من أن يضرب أحد«الزولو» في الإصلاحية متوقعاً سرور ومسامحة المدير، أو حتى رضاه على الأقل؟ ولما لم يحصل على ذلك لأنه لم يتوقف عن تصوره للأمور من خطأ إلى آخر بمؤسسة يظنها قبيلة؟!

وحتى حين انتهت وظيفة المدير بالمؤسسة لحقه إلى بلد آخر، يريد أن يبقى تحت ظل حمايته التي يرجوها من تصوره القبلي للسلطة، كسبب لكل استزلام عشائري، دون أية محاولة فهم للواقع.

وحين فشل أرسل للمدير رسالة تأنيب بدأ بها«آلان باتون» سرد القصة، ومما قاله فيها:«أخجل منك أمام أصدقائي» ويقصد المحميين بزعيم. ومن هنا نستطيع أن نستنتج سمة أساسية من سمات التخلف، وهي: عدم قدرة المتخلف تعديل آرائه الموروثة بمحاولة إثر محاولة بفرضها بالأمر الواقع، مع تسخير مثاليات الآخرين لتحقيق إرادته المتجلية بعدم قدرته على تعديل آرائه بناء على معطيات جديدة تسمح له بتلاؤم أفضل، وهذا هو بالضبط معنى كلمة«دوغما» بكل أيديولوجيا.

فالدوغما، بهذا المعنى، المنطبقة على السود بقصة«سبونونو»، هي نفس الدوغما عند البيض الناتجة عن علوم«الماكرو» الداروينية، مع فارق بين العرقين، ما سبق وذكرناه عن«فوكو» من أن البنية الفكرية ومنها الأيديولوجية أيضاً عند الغرب

لا تتسامح مع أي خروج عن العقل، ولهذا كان السبب الرئيسي في عـصر «كوغنيتاريـا cognitetary» الـذي نعيـشه بعـد فـكّ الشيفرة الوراثية وراء القبول في جنوب أفريقيا بـالحقوق المدنيـة للملونين.

فلم تعـد قـصة «سـبونونو» تعـرض في بـرودواي» بنيويـورك على أنها دلالة على فكر متخلف يصعب ترويضه، بل على تجربـة حضارة قديمة يجب العمل على تلاؤماتها، للتلاؤم معها!!

ولهـذا الغـرض، يـستطيع القـارئ أن يلمـح معـي المحاولـة السيكولوجية للمسرحي الرائع: «آثول فوغارد» الـذي كـان بحـد ذاته نصف أفريقـاني - كـما يمكـن للقـارئ رؤيـة مختـصر سـيرته في «الرسالة المختصرة عن سيرة المؤلفين» في هـذا الكتـاب - وبقـصته النفسية المبنية على نظرية علم نفـس «الـسوسيودراما Sociodrama» المبنية على مباحث «بالسيكودراما Psychodrama» للطبيب النفسي «مورينو» ببناء التفاهم الاجتماعي النفسي بـين النـاس، عـلى تبـادل تمثيل كـل خـصم - بـتقمص شخـصين - إزاء خـصمه، والعكـس، وشرح ذلـك «مورينـو» بكتابـه «spontaneity test and training» في عملية تبادل الأدوار بين الخصوم، بـأن يمثـل كـل واحـد النمـوذج الثقافي والنفسي للآخر فيرى الآخر عيوبه، وبدوره يعرض عيوب الآخر.

فإذا كان التحليل النفسي «لفرويد» تحليلاً لتصورات الناس ومشاعرهم تجاه الآخرين، فإن «السوسيودراما» تجعلهم يتناقلون هذه المشاعر والرغبات واضحة من أفواه خصومهم، وقد استعمل «مايلز كوبلاند» هذا المنهج النفسي في مركز لعبة الأمم بمركزه في لعبة السّلم في واشنطن، وعرض ذلك كتابه الشهير: (لعبة الأمم)(١).

لكن القارئ يستطيع أن يرى الأسلوب الخير لهذا الاتجاه، بعيداً عن التشخيصات السياسية التي يمكن أن تكشفها «السيكودراما»، في رائعة «آثول فوغارد» في قصته القصيرة في هذا الكتاب بين «موريس» الفاتح البشرة و«زكريا» الداكن الولدين لأم ملونة، فتتكشف عيوب كل منهما للآخر، فينتقل القارئ دون أن يوجَّه من «السيكودراما» إلى «السوسيودراما» التي تكشف للآخرين كل ما يحصل في أفريقيا الجنوبية لعيني أحدهما الآخر الذي مَثَّلَ - تقمص قصداً - الأبيض، وكلاهما بتغيير الأدوار لا بالواقع فقط أخوان من رحم واحد، ورحم - قبل التاريخ - ترك صبغيات مختلفة بينهما منذ ملايين السنين من بيئات مختلفة، جمعتها مصادفات D.N.A بين البشر.

ولعل الإنسان حين يتقمص ذات خصمه في «السوسيودراما» يبدأ برسم خط موضوعي لمشاعر ورغبات وفكر من كان

---

(١) ترجمه إلى العربية، مروان خير، وطبع في مكتبة الزيتونة، بيروت ١٩٧٠م.

يدينه. إنها القرابة الحقيقية وقد ظهرت بأقصوصة:«مقطع من باطن القرابة» التي يجب أن تمارسها الشعوب مع أبنائها، مع بعضها كأساس لكلمة: حضارة.

هذا هو الدرس الذي يجب أخذه من كتاب«ترجمة الأدب الأفريقي الجنوبي» بكل مفازاته: لا البيضاء والبنِّية والسوداء»، فقد أحسن: أنتوني سامبسون حين بدأ مقدمته بالسؤال المطروح في هذه القصص الأدبية الراقية كلها عن؛«مصير الإبداع الفكري في أجواء التوتر» ؟ وإضافة لهذا، ستظهر لنا بعض هذه القصص القصيرة كثيراً من الاستقراءات التنبؤية، التي يمكن أن تحصل - وقد حصلت بعد ستينيات القرن الماضي يوم أول صدور لهذا الكتاب بالإنكليزية -بما هو قد يكون شبيهاً أسوأ من العرقية بعد زوالها، وهو بالضبط ما يحصل بين الأفارقة شأنهم شأن العالم الثالث كله وأعني: المناطقية والعشائريات التي لا تقل أذى عن العرقية للحضارة ولكل البشر.

وهنا أحب أن أترك القارئ قبل بداية قراءته لهذا الكتاب مع شروحات«سامبسون» المختصرة ليتهيأ لما أرجو أن يثير«أن يشير فيُمتع القارئ فقط كتسلية أدبية راقية، عندها سيضيع القصد من هذا الكتاب.

أ. د. هاني يحيى نصري

عن الأدب الأفريقي

في الوقت الحاضر

الأدب الأفريقي في مفترق طرق«والترجمة ضرورية له» في كل الأعمال الأفريقية باللغات: الإنكليزية، الفرنسية، والبرتغالية وخاصة في الدول التالية: أنغولا، الكاميرون، الكونغو، دهومي، غامبيا، غانا، ساحل العاج، كينيا، موزامبيق، نيجيريا، راواندا، السنغال، سيراليون وجنوب أفريقيا.

ملاحظة :

على أن الصيغة الأدبية الإنكليزية في هذا البحث كانت ملتزمة بالنهج الفيكتوري للأدب الإنكليزي، وهو الذي يعكس حتى ولو كتب بيد سوداء القيم والنظرة للعالم في أسلوبهم الأرستقراطي العرقي، والذي دجّنه الكتاب الأفارقة الملوّنون بما يتلاءم ونضالهم من أجل الحرية.

وبالعودة إلى «رسالة مختصرة عن سيرة المؤلّفين» نجد أن الذين حازوا على جوائز أدبية من الملونين حازوا عليها لأن أدبهم أبيض حتى وهو يصارع العرقية.

واليوم بعد أن تجاوز القرن الواحد والعشرون رواسب العصر الفيكتوري الأدبية نجد أن اللغة الإنكليزية الشائعة طبعاً كلغة دوليّة في كل العالم - لغة العولمة - أصبحت إنكليزيتها أميركية، فالراب «Rap» احتل مكان الشعر المقفى وهو من الدلائل القوية على انتصار النغرية «Nigrit» على الأدب الإنكليزي الأميركي في عقر داره وفي الخارج، وقد وصلت تشظياته إلى الأدب الشعبي المصري والعربي بصورة واضحة – شعبولا - مثلاً!!

والمهم من كل هذا أن أحداً من الآن فصاعداً لن يؤلف مثل ما ترجمناه في هذا الكتاب إضافة إلى شبه استحالة الترجمة لهذا الكتاب إلا من يدٍ خبيرة باللغة الإنكليزية الفيكتورية - وهم قلة - وهذا دليل على ما عانيته أنا وما لا يمكن ترجمته بعد ذلك من قبل آخرين، والسبب هو أن قلة من الخبراء الإنكليز أنفسهم ما زالوا لا يستطيعون قراءة النصوص شبه «التشوسرية Chaucer» بأدبهم اليوم.

المترجم

تاريخ مختصر لأفريقيا

من سنوات عديدة ظهرت الحاجة الملحّة لكتابة التاريخ الأفريقي، مع أنه كان قد ظهرت كتابات في مقاطعات أفريقيا مختلفة، وفي أحقاب مختلفة عبر التطور الطويل لتاريخ الاستعمار الأوروبي فيها، أما المقالات المعاصرة للأوضاع في أفريقيا في الدول التي حازت على استقلالها فقد برزت دراسات عن أفريقيا قبل التاريخ، وكل هذا لم يقدم صورة عامة للقارئ حول تاريخ أفريقيا منذ بداياته إلى اجتماعات مونروفيا وكازابلانكا.

أما المكتوب من«الأركيولوجيين»، ومن التقليد الشفهي، والعلاقات اللغوية في المؤسسات الاجتماعية والثقافة المادية فقد ظهر بحوليات أمثال مجلة«التاريخ الأفريقي» المختصرة التي تظهر الآن في مجلة«التاريخ الأفريقي المختصر» التي تمثل الآراء الأكثر سلطوية للزملاء الذين يمثلون كتّاب القصة، وأيضاً ما تتضمنه بعض النتائج الأصلية التي تأخذ بيد الدراسات الأفريقية إلى درجة أرفع.

عن الشعر الأفريقي الحديث

إن جغرافية الشعر الأفريقي الحديث فريدة من نوعها، وهذا الكتاب يستعرض عدداً من البلاد لإظهار الأعمال الشعرية السوداء بالإنكليزية والفرنسية والبرتغالية وسنبدأ بما سنضعه هنا بالإنكليزية كنموذج عن الأدب الأفريقي الذي يعكس خليطاً من الشعر الفردي والجماعي المهم.

أما الشعر المكتوب باللغات الأفريقية فلن نضعه هنا لاستحالة تغطية هذا الحقل الغزير بصوره ومشاعره، وضغوطات المجتمع التي يصطلح عليها بعبارة الشعر الزنجي «Nigrit» الذي يعكس رؤى الشعر الملتزم الأفريقي.

مُقَدِّمَة

بقلم «أنثوني سامبسون»

«كيف يمكن للأفارقة الجنوبيين ذوي المسؤولية والإدراك أن يظلوا مبدعين في جو من التوتر؟» تسأل «ماري بنسون» من جنوب أفريقيا في رسالتها إلى «جيمس بالدوين».

هذا السؤال سيسأله كثير من الناس بعد قراءتهم لهذا الكتاب، حيث سيظهر تحدي هؤلاء الكتّاب المبدعين للضغوط المحيطة بهم، والتي تنبع من حاجة ملحة ويائسة للتعبير عن الذات، وتتجلى في جميع الأمكنة: في الملاعب والأحياء الفقيرة، وفي ضواحي أحياء البيض الأثرياء ومن المنفى في جميع أنحاء العالم.

وكما يتسرب الغاز من شقوق الصخور هكذا كانت الكتابات تشق طريقها بقوة إلى الأعلى بأصولية لا يمكن إساءة فهمها.

وأكثر ما يلفت النظر ما فيها من حس للفكاهة يظهر في أكثر مـن نـصف هـذه القـصص: الإحـساس المتكـرر بالـسخافة المضحكة والقدرة على رؤية المواقف المقلوبة بطريقة مقلوبة، وفوق كل هذا روح الدعابة. قال«ناثانييل ناكاسه» عن حياته في«جو هانسبورغ» :«أقصى ما يمكنني فعله رؤية حالي كشخص قليل الفهم متطوع بحقل تجارب في اختبار علمي مهم لعالِم دجّال».

هذا الشعور بالسخف والذي يظهر للعيان يعطي عمقاً وتأثيراً حاداً للقصص: سواء كان بالفكاهة الساخرة المقبولة في قصة«سبونونو» لـ«آلان باتون» أم السخرية القاسية والمروعة في قصة«البذلة» لـ«كان ثيمبسه» أم القصة المروعة«اليوم الرابع للميلاد» لـ«بارَين سايمون»، فالرعب أصبح مقبولاً إما بالضحك أوَ السخرية.

ومن الصعوبة تجنب المقارنة بالأدب الروسي قبل الثورة. مقارنة غالباً ما تأتي من أدباء جنوب أفريقيا. فهذه المقارنة ليست في التشابه الجلي والواضح بالنموذج والحالة السياسية فقط، بل بالمفكرين المنهكين والأرستقراطيين المثقلين بالذنوب وبمظاهر فساد سياسي شديد، وفي الوقوع الوشيك للمشكلة الكبرى. هي أيضاً في الإحساس القوي بالمكان والشعور بتعدد واتساع الأطياف، والذي بَطُلَ الآن وبشكل كبير من الأدب

الإنكليـزي(*). فمـن خـلال هـذه القـصص تـستطيع أن تـشتم أماكن الشوارع، وحدائق الضواحي الثرية والمروج اللامتناهية. وسـواء كانـت هـذه الكتابـات سياسـية أم غيرهـا فهـي جنـوب أفريقيا بالصميم لقربها من الأرض، فلغتها تبـدو كأنهـا في زمـن «أوليث شرايز» آتية من الطبيعة.

إن بعض القرّاء سيغريهم محاولـة البحـث بالإضـافة إلى مـنح علامات للكتّاب الملتزمين من هذه المجموعة من القصص تبعاً لارتبـاطهم الـسياسي، والتـي أكثر مزياهـا أنهـا مثيرة لنـوع مـن التحـرر، وفيهـا إدراك حـادّ لعـدم تحيـز الكاتـب للـصراعات الكبيرة فيستدعي طلبها من الخـارج - وبـالأخص كـما يظهـر في أفريقيا - إنه ارتباط عاطفي يفقده في الداخل.

مثل هذا القارئ سيكون محبطاً مـن هـذا الكتـاب. فالعديـد مـن هـؤلاء الكتّـاب الملتـزمين ومـنهم«روث فيرسـت» التـي حكم عليها بالحجز الانفرادي مدة ١١٧ يوماً.

هـذه المجموعـة مـن الكتابـات تتعـدى أهميتهـا الجدليـة إلى فرديتها الصلبة وحتى إلى خصوصيتها في الكتابة.

إن موضـوع الـصراع العرقـي وبـسهولة يـستطيع أن يكـون استحواذياً: فـالإذلال والثأر للقمع يمكـن أن يطغـى عـلى كـل

(*) إشارة للأسلوب الفكتوري المعقد بالكتابة – المترجم -.

شيء آخر، كالجنس في أفلام الإباحة. ففي هذه الدوامة تخسر الشخصيات في الرواية أهميتها، وكذلك العواطف، ربما يكون هذا ضرورياً ولكنها ستكون كتابات سيئة.

هذه المجموعة من الكتابات لا ترقى إلى الكتابات السياسية بتعميماتها وافتراضاتها، بل هي لمحات خاصة متعاقبة لعوالم مختلفة مأهولة بأشخاص عاديين ومألوفين: يعيشون ويضحكون ويتذمرون، لكنهم حتماً سيواجهون عالماً خارجياً خطراً. ففي سلسلة من القصص ستدرك أن الإنسان في جنوب أفريقيا ليس له خصوصية: و«رونالد سيغال» اكتشف، وهو صبي مدلل في مدينة«كايب تاون» أن«خادم البيت» الأفريقي كان في الحقيقة شخصاً إنسانياً وراء ما يخفيه -بينما«دان جاكوبسون» يصف طفولة صبي أبيض وهوسه برفاقه الأفارقة، أيضاً«أليكس لاغومه» في مناجاته يصور بدقة إحساس المواجهة مع الشرطة، أما«نادين غودايمر» فتصف شاباً أفريقياً أُوقِف بسبب نشاطه السياسي.

إن ما يعطي أدب جنوب أفريقيا تميزه، هو هذا التجاذب بين خصوصية الكاتب الفطرية وزخم الأحداث الخارجية، كما نراه أيضاً عند الكتّاب الروس. بينما انشغل الكتّاب الإنكليز بأمور كالعلاقات الخاصة أو الطفولة الرقيقة أو الحنين للماضي أو الخيال، أمور مترفة لم يستطع كتّاب جنوب أفريقيا الخوض فيها،

وإنْ أرادوا ذلك. لقد كان عليهم الخروج إلى العالم حيث لم يكن صعباً معرفة ما عليهم كتابته. فعند الكاتب الأبيض إدراك متواصل لما يواجهه رفاقه من محن. فالناس هناك كانوا إما أكبر أو أصغر من الحياة كما في قصة«ديكنز».

فكل كاتب أفريقي يواجه مكاناً خطراً يشبه«لندن» أيام «شكسبير». ففي وصف«تات ناكاسه» لمدينة«جوهانسبورغ» يحذر من المراسلين الأجانب«الذين يجدون الدفء في قذارة أحياء السود الفقيرة»، لكن وصفه هو لحياته المتشردة، والقصة الرائعة لـ«داغمور بواتي» التي تتصدر هذه المجموعة القصصية، نرى دفئاً وسخرية وتجرداً رائعاً يشجع الزوّار العاطفيين الرومانسيين. إنه عالم بعيد عن الكاتب الإنكليزي الباحث بعبثية عن مادة يلتقطها من طفولته.

أيمكن البقاء!؟ وهل يمكن أن يبدع الإنسان في هذا الجو المتوتر؟. فعملية التواصل في الحياة الاجتماعية لجنوب أفريقيا أصبحت صعبة، وهذه كلمات«ناكاسه» :«ما نراه هنا هو أكثر من انحدار، إنه تعطيل للحوار، إن حاجز اللون الذي هيمن على كامل الحياة في جنوب أفريقيا فلازم وأثقل حتى أماكن الطعام بشكل ممل في كل أنحاء المدينة»، ليس فقط بين الأعراق ولكن حتى بين العائلات والمجموعات المغلقة، لأن هناك أسئلة وآراء تكونت عنها. وكلما زاد هذا الانقطاع في الحوار زادت الحاجة

للتعبير عن النفس حتى لا يفقد الإنسان عقله. وهكذا اندفعت وتفجرت الكتابة بشكل واثق وكأن هذه الكتابات تقول: لابد من روايتها، لابد من روايتها..؟» هل هناك حقاً أمل؟ البروفيسور «دي كيواميت» تنبأ منذ عشر سنوات في كتيبه«تشريح البؤس في جنوب أفريقيا» : أروع التفاؤل في جنوب أفريقيا هو في أقصى الجنوب، حيث انتشار الأوبئة والجرائم بين سكان المدن». والتأكيد على هذه الرؤية يكمن في روايات الحياة في أفريقيا التي تتميز بالتحمل والتعقيد والإنسانية، ورغم نهاياتها المريرة تذكرنا دائماً بالحضارة الحقيقية التي لن تموت.

بهذا المناخ، حيث لا نسخة للحرية تظل هذه المعضلة للكاتب الأفريقي مؤلمة -يشرح«لويس نكوسي» هذه المعضلة أو هذا المأزق في مقالته«القوة السوداء أو أرواح الأدباء السود» : فيشير إلى الترابط بين التسامح العرقي أو القدرة على الاحتمال - وبين اللا مقدرة فيقول:«تبدو وكأنها شريرة» وبعبارة غاضبة يتابع:«لمدة طويلة جرّب الشعب الأسود القوة بقدر كبير من اللاقوة». ويؤكد على أهمية التحولات بسبب هذه القوة فيقول:«رأيت الكثير من المستوطنين البيض في أفريقيا الذين كانوا يقسمون أنهم لن يجلسوا أبداً إلى طاولة عليها سود ذوو رائحة كريهة، ولكن وبعد الاستقلال لم يجد هؤلاء أي حرج من مشاطرة طاولاتهم لرجال قبائل نصف

عراة وبكل سرور..»». «نكوسي» يرى أن معضلة الكتّاب في هذه المرحلة الجديدة والضغوط من مجتمعهم ومن مثقفين «كسارتر» تجعل منهم أدباء ذوي عهود تجاه مجتمعهم. ولكنه يستتبع قائلاً:«في هذا الجو المحموم من التغيرات تدفع جموع الناس أيضاً للقيام بأشياء، ولكن تظل وظيفة الأدب المبدع تنادي بتعظيم الحياة التي هي أسمى من الأفكار».

معظم الأدباء الأفارقة يتشاركون بهذا الطموح الشجاع، ولكن في ظل الظروف الحالية يظل التوتر والمأساة قائمين. كان «ناكاسه» يشارك صديقه وصديقي«نكوسي»، الذي أقدم على الانتحار في نيويورك، هذا الطموح بكتاباته الرائعة. وفي ذكرى «ناكاسه» كتب«ويليام بلوم»:

حيث البيرة المرة والدخان الكثيف
والفسق والضجيج
وبضحكات نصف مموَّهة
يموت الأمل جريحاً
هو ليس هناك.

فهل«يموت الأمل من الجراح» ؟ فكرة تتكرر في كثير من القصص والقصائد، ولكن الأمل يظل قائماً. والشيء اللافت، وربما أيضاً الواعد ومفعم بالأمل شعور الأدباء الملزم من كلا

الفريقين الذي لا يقاوم بالكتابة عن بعضهم البعض، هذه الكتابة فيها مرارة وخوف وعواطف أو شعور بالذنب، ولكنهم استمروا بالكتابة بافتتان رهيب، مثل زوجين مضى على زواجهما وقت طويل وهما في نزاع وشجار شديد ومع هذا لا يستطيعان الفراق. خلال هذا الكتاب ترى ملاحظات دقيقة عن بعضهم البعض. فكما «آلان باتون» يراقب بدهشة شخصية «سبونونو» كذلك «تود ماتشيكيزا» يصف بمحبة لقاءاته في لندن مع هؤلاء الحمقى المصلحين ومع «هؤلاء الشبان المثقفين في المدارس العامة» لايزال «لورنس ثاني ديربوست» مأخوذاً بذكرى «بوشمان» الرومانسية.

هذا الكتاب لن يقدّم الكثير من التفاؤل، ولكنه يقدم صورة لوجود، وبالرغم من كل شيء لا تستطيع تجنبها أو التخلص من شركها.

هذا كله لخّصه «آثول فوغارد» في السطر الأخير من مسرحيته: «وكما ترى يا زاك إننا مرتبطون ببعض، وهذا ما يسمونه برباط الدم... أي ما يربط الإخوة ببعضهم».

الباب الأول

قـصـص

- الإلفة في مملكة الضياع	دغمور بواتي
- فاكهة الأرض	ليونيل آبراهامز
- جاري المتسول	دان جاكوبسون
- إلى أين تتسكع أيها الرجل؟	فليكس لاغوما
- أرض الجنازة	هيرمان تشارلز بوسمان
- سبونونو	آلان باتون
- هو والقطـة	إزيكيال مفاهيلي

- الطاقة الكهربائية	جاك كوب
- اليوم الرابع للميلاد	بارني سايمون
- صرخة في وضح النهار	جيليان بيكر
- بوي - بوي	كايسي موتسيسي
- وردة الصخرة	جان رابي
- من المؤكد سيكون يوم اثنين	نادين غوردايمر
- البذلـة	كان ثيمبا

الإلفة في مملكة الضياع

دغمور بواتي

عندما كنت في سن التاسعة عملت في محطة اسمها «محطة حافلة الطريق الطيب» في مدينة «صوفيا تاون». هذه الوظيفة كانت طوعية أكثر منها ثابتة.

ولقد عملت دون إذن أحد. وكنت أمسح حافلات المحطة بمكنسة مهترئة.

ليلاً، كنت أنتظر الحافلة الأخيرة، هذه ما عليها أن تكون الأخيرة لأنك لن تعلم أبداً أي من الحافلات سيرحل أولاً. تصل الحافلة الأخيرة بين الحادية عشرة والثانية عشرة منتصف الليل، فألتفُّ على نفسي وأنام فيها من الجهة الخلفية.

برحيل أول حافلة عند الرابعة صباحاً أستيقظ وأقف عند مفترق طريقي «غود ستريت وماين رود» وأنتظر عربة حصان الخباز.

في هذه الأثناء أسمع صدى حوافر الأحصنة على الطريق الإسفلتي وهي في طريقها إلى«نيولاندس»، إنه روتين يومي. حيث يوزع الخبز الطازج على السكان البيض في«نيو لاندس».

هناك أختبئ وراء أعمدة أحد المتاجر وأراقب سائق العربة، وحين تأكدي من عدم ملاحظته شيئاً إلا الطريق الذي أمامه أعدو كالسهم من مخبئي وأقفز برشاقة ودون تردد على الدرجة الخلفية للعربة: هناك أجلس أحياناً مستمتعاً بالركوب فيما قدماي العاريتان تتدليان.

وفي صباح أحد الأيام كنت شديد الجوع ولم أستطع التباهي والقيام بحركاتي المعهودة، وعوضاً عن ذلك رفعت الحلقة المعدنية الغليظة حتى تفتح المفصلة، ولكن العربة كانت حديثة الطلاء فلم أستطع رفع الحلقة لصعوبتها وهي كذلك، بل تحتاج لأيد أصلب؟ أيدٍ خرجت من الطريق الإسفلتي أو هكذا بدا لي. وفي اللحظة التي كنت في صراع مع الحلقة المعدنية ظهرت يدان بشكل غامض ورفعت الحلقة دون أي جهد.«اقفز» قالها لي: وهكذا فعلت، وولّينا الأدبار نحو«ماين رود» وتحت إبطينا أربعة أرغفة من الخبز الطازج.

وعند وصولنا إلى النقطة التي ظهر فيها صاحبنا بشكل غامض توقف وتأملني قائلاً:

«أين منزلك أيها الصبي؟».

فهززت رأسي وقلت: «ليس لدي منزل».

«أين تنام؟».

«في محطة حافلات عند شارع «غود ستريت» على المقعد الخلفي لآخر حافلة تصل».

كان هناك انبعاج في جبينه ينبض بشدة يشبه الشهيق والزفير، وكان يقف حائراً متردداً، ولكن الأصوات المنبعثة من عربة الخباز جعلته يتخذ قراراً سريعاً. كنّا نسينا إغلاق الباب الخلفي للعربة ما جعل الهواء يضربه بقوة، ودفع بأحد المارة للصراخ لجلب انتباه السائق.

«تعال من هنا»، قالها لي أبي الجديد ورمى نفسه منبطحاً على معدته، وانزلق كالسلطعون ليغيب في فتحة نفق أرضية. وفيما أنا متردد شعرت بأصابعه تطبق على كاحلي بقبضة قوية، عندها لم يعد لي الخيار فزحفت بضع ياردات قليلة لأجد نفسي وحيداً، ولو لم يشدني لزحفت متخبطاً في نفق ضخم. أما حيث نحن لا تستطيع رؤية يدك فهي أشد ظلمة من قرن الشيطان، ولكن بالمقابل تستطيع الوقوف.

«اتبعني». قال لي «وتحسَّس بيدك الحائط». هكذا فعلت، وبهذه الطريقة قطعنا ما يقارب الميل وثم توقفنا.

هناك أخذني من يدي وصعدنا أربع درجات. حيث كان عليه أن ينحني بينما بقيت مستقيماً.

هكـذا قابلـت الرجـل الـذي سـيكون في مـستقبل حيـاتي مسؤولاً عني. كانـت حيـاة تـشبه حيـاة الكـلاب، ولكنهـا تظـل حياة.

فيها سمعت كأنه يأخذ شيئاً من جيبه، إنها خشخشة عيـدان الكبريت. أشعل واحدة فانبهرت من لهبها، وأحضر قنديلاً مـن أحـد الأمكنـة وأشـعل الفتيـل. وبتلهـف كنـت أنظـر إلى مغـارة «عـلي بابـا والأربعـين حرامـي» في القـصة الخياليـة، ولكـن هنـا كانت حقيقية.

كانـت الحيطـان مغطـاة بـصور«مـيكس» راعـي البقـر، و... الأرض مليئة بأشـياء لاتـزال مبللـة، لابـد أنهـا آتيـة مبـاشرة مـن حبل غسيل؛ فهنـاك أغطيـة لـلأسِرّة وأكيـاس المخـدَّات وتنـانير نسائية وألبسة داخلية للرجال. بالإضافة إلى عجلة للنقل يدوية وغرامافون وأسطوانات وكعكـة عـرس باليـة، عـدا عـن خـوذة شرطي وطنجرة ضغط، وقـدور، هنـاك أيـضاً صـندوق للعملـة مهترئ وغيتار بثلاثة أوتار فقط، واللافـت هـو حـدوة الحـصان المثبتة على المدخل لحماية كل هذا من الأرواح الشريرة.

ولكــن عينــيَّ تــسمرتا، رغــم كــل هــذه الغنــائم، عــلى الغراموفون، ولاحظ هو هذا فذهب مباشرة إليه وشغَّل يـدوياً بعض الأسطوانات، ولاحظت عندما نظرت ملياً في المكـان أن هذا الجزء من النفق على شكل رقـم ٧. ولمنـع الميـاه مـن التـدفق

وضع لوحاً إسمنتياً على المنفذ، وبهذا فإن المياه ستجبر على الخروج إلى النفق الآخر. وما ساعده إلى السكن هنا علو المكان نحو ثلاثة أقدام عن النفق الرئيسي.

وبعد تمتعنا بسماع بعض الأسطوانات تناولنا الفطور. ومن ثم بدأ«والدي» يشرح لي عن كافة الأنفاق المحيطة بمدينة «صوفيا تاون» والتي تنتهي هنا بهذا النفق الكبير.

لقد علمني كيف أستفيد منها، أي نفق أستعمل وأي واحد أتجنب، وإلى أين يقود كل واحد، وماذا أفعل عند هطول المطر... لقد كانت أشبه بلعبة الأفاعي والسلالم المتقاطعة. لم نكن بحاجة إلى السلالم حيث تقودنا إلى الأعلى. بل نحن بحاجة فقط إلى الأفاعي التي تبتلعنا، وعندما نزحف في أحشائها توصلنا دائماً إلى بيتنا في الأسفل محملين بالبضائع المسروقة من دون أي أثر.

وعند شرحه لي كل هذا تملّكني الخوف ونظرت إليه، إن قصره غير اعتيادي، ولهذا السبب كان من الصعب معرفة عمره إذ يمكن أن يكون بين العشرين والأربعين.

أخبرني باسمه الحقيقي«غاغه»، ولكن الناس تطلق عليه اسم«كرومي» باللهجة الأفريقيا للبيض أي«الملتوي»، بسبب تقوس رجليه. وعندما رجوته بأن أناديه«غاغه» أي باسمه الحقيقي حتى لا أذكّره بتقوس رجليه رفض وأخبرني أن في المسلسلات الأميركية«غاغه» يعني المجنون وهو ليس كذلك.

كـان الانبعـاج في جبينـه مخيفـاً، إذ يمكـن وضـع طابـة تـنس داخله. وسببه كما أخبرني حافر فرس يملكه مزارع. ومـن تلـك اللحظة وحتى اليوم أصبحت أكره الخيول.

لقد كان«كرومي» شخصاً سيئاً طوال الوقت، فهو مؤذٍ أكثر منه مزعجاً، باستطاعته وبسهولة جعل شخص متدين إلى أقصى الحـدود أن يـستعمل كلـمات بذيئـة. وأيـنما حـلَّ يـترك وراءه الفوضى والأسى. وبتقديري، إنه لا يستطيع أن يمـشي في حقـل يابس إلا ليـشعل النـار فيـه. لقـد كـان مالـه مـأخوذاً مـن أطفـال يرسلهم آباؤهم لـشراء حاجيـاتهم. وهكـذا فـإن مرافقتـي لـه لم تكـن طبعـاً لتفيـدني في علاقتـي مـع أحـد، لا مـع صـغار الـسن لسكان«ماين ستريت» ولا مع أصحاب المحلات، فلقد كانـت هناك دائماً أثمان كلامية تحوم فوق رؤوسنا.

في صباح أحد الأيام كنت منبطحـاً عـلى معـدتي بينـما خـداي يستريحان على راحتي يدي، سمعت صوت«الغراموفون». إنـه تـسجيل لـصوت«روجـرز» في أغنيـة«بانتظـار القطـار» يرافقـه عزف على الغيتار. لقد أولعت بها من المرة الأولى إلى حد الثمالة.

لابد أني حينها كنت أحلم، ولكن بماذا؟ لا أحـد يعلـم ولكننـي كنت أعلم أنني أحلم. لأن«كرومي» قال لي رافعـاً نظـره مـن مجلـة المسلسلات الهزلية.«إنني أكلمك».

فأجبته:«ماذا؟».

فأشار بإصبعه السمينة الملطخة بالمربى إلى مجلته الهزلية قائلاً: «أيمكن للهنود الحمر أن يمسكوه؟».

ولإسكاته أجبته: «بكل تأكيد، ليس لديه حظ».

لقد ابتهج والدي لورطة الفارس على جواد نقل البريد. فطالما سأوافقه فكل شيء سيظل على مايرام، وللحقيقة أريد كل شيء أن يظل كذلك حتى أسمع الأغنية.

ولكن الأشياء الجميلة لا تدوم، لقد حدث شيء، لقد داس والدي من دون قصد على أسطوانتي المفضلة.

وبدأ كابوس البحث عن الأسطوانة، وفي كل مرة أسرق واحدة تكون الأسطوانة الخطأ، فكما ترى لا أستطيع الكتابة، فلو كنت أقرأ لوفّرت على نفسي الكثير من المشقة وعلى اليهودي الكثير من الحزن. وتواصلت الحالة على هذا النحو وبدأت أشك أن تكون لدى هذا اليهودي العجوز في دكانه هذه الأسطوانة.

لكن عزيمتي لم تهتز مثلها مثل تلك القشرة من الطين الملتصقة على التشققات المؤلمة على قدمي، فلا زلت أتردَّد على محل اليهودي وكأنني أملكه، وأخيراً حصلت عليها وعلى ستة أشهر في الإصلاحية، وكنت أصغر المدانين فيها.

عندما خرجت كان والدي يؤنبني بمرارة لسرقتي الأسطوانات عوض الطعام.

وفي صباح أحد الأيام خرجت كالمعتاد من أجل الخبز. وعند عودتي لم أعثر على«الغراموفون» لقد اختفى. فقد باعه والدي أثناء غيابي بحجة إفساده لي.

عندها شعرتُ كأن صلبي انقطع - فأخذت غيتاري ورحلت نهائياً من غير رجعة لأهيم ثانية في عالم مجهول.

ولكني لم أهم طويلاً، فسريعاً عملت لسيرك في غسل أقدام الفيلة، كنت حينها أتساءل عمن هو أكثر حاجة لغسل قدميه أنا أو الفيل، وبالطبع ما كنت لأزعج نفسي في غسل قدمي حيث لا أتقاضى أجراً.

ولأول مرة كنت أرى البحر، عندما رحلت مع السيرك إلى مدينة«كايب تاون». هناك في«كايب تاون» كنت معظم الوقت برفقة مجموعة كارنفال الزنوج والمعروفة بالمهرجين. ومن بينهم عازف غيتار أعجبت به كثيراً يضاهي بعزفه عازفي المفضل«روجرز»، كنا لا نفترق وأتبعه مثل جرو صغير.

كان يرسلني إلى جميع الأمكنة، فأذهب يومياً إلى المدينة لألتقط له أعقاب السجائر وزجاجات النبيذ الفارغة. فثماني زجاجات فارغة مقابل زجاجة مختومة من المخزن، مقابل تعليمه لي بضع نغمات على الغيتار.

كنت كثير الانشغال بهذه المهمات من أجل صديقي الذي ترك السيرك، لم آبه كثيراً ولكنني سئمت من أقدام الفيلة دون

أي أجر بل قليل من البقشيش. وشعرت أنه إذا ما بقيت أغسل أقدام الفيلة فلن أستطيع يوماً أن أغسل قدمي.

لقد أحببت مدينة «كايب تاون» فوسائل النوم لم تكن مشكلة، أستطيع أن أنام عندما أشعر بالنعاس: في الممرات أو السلالم وفي الشرفات أو أي مكان، وهكذا حييت، حياة حرة حتى اعتقدت لفترة أنه لا يوجد إصلاحيات في هذه المدينة، ولكني اعتقلت لمحاولتي سرقة كيس المال لقاطع التذاكر في الحافلة، ولو كانت سكينتي حادة بما فيه الكفاية لكنت أفلتُّ، وحصلت على كيس المال المعلق على كتفه بطوق جلدي، فهذه السكين الملعونة لم تقطع الطوق بضربة واحدة. لذا حاول قاطع التذاكر الأبيض سحب يدي التي أمسك بها السكينة ما أنساني الطوق الجلدي وعوضاً عن ذلك غرزت سكيني في يده، ومن المضحك كيف أنها لم تقطع الطوق الجلدي وقد غاصت في يده وكأنها يد مصنوعة من صابون صنع خصيصاً للإصلاحيات، ومن أجل هذه الحادثة عوقبت لمدة سنتين في إصلاحية «توكاي» التابعة لمدينة «كايب تاون».

في الإصلاحية فرضوا عليَّ عملاً بسببه خرجت منها. إذ كنا نحيك شباك السمك، وقد برعت أصابعي الرشيقة فيها، وخلال سنة أعطوني «قبعة» كترقية، فأصبحت الآن مشرفاً.

وعندما كنت مشرفاً علمت عن قطار السمك. أسرع قطار على سكة، إذ يقوم برحلة دون توقف من «كيب تاون» ليصل إلى «جوهانسبورغ» في استراحة قصيرة في «بلوم فونتين» لوضع الماء للسمك حتى لا يتعفن. هذه هي الرحلة المتواصلة للسمك بمرافقة قطع الثلج لتظل طازجة عند وصولها إلى «جوهانسبورغ».

لا أعلم لماذا بدأت أملّ العمل في شباك السمك، ربما لمعرفتي بقطار السمك هذا، الحقيقة لا أعلم! كل ما أعلمه أنني وبدلاً من حياكة الشباك وجدت نفسي أحيك سلماً، بينما عيناي شاردتان على حيطان السجن. لقد مرَّ زمن طويل، ولكن صدى صفارات الشرطي لازالت في أذني حالما أتذكر ما أحب أن أطلق عليه «فترة استراحة من توكاي». لقد عاملوني وكأنني في الأربعين من العمر بينما كنت في الحادية عشرة.

فبعد هروبي من «توكاي» بسبعة أيام صرخ شرطي: «اقفز فوق رأسه لتصل إلى الجهة اليسرى وحاول تخليص أصابعه بينما أعمل هنا جاهداً في الجهة اليمنى».

لقد اجتمع حشد من المتفرجين على جانبي قطار السمك، حيث كنت جالساً في مكان مرتفع بين مركبتين. فكان الشرطي الأبيض يشتُم ويتذمر محاولاً تحرير أصابعي المجمدة على القفص المعدني للمركبة فسبَّب لي ألماً، بينما الشرطي الآخر من جهة اليسار كان ألطف.

«ألا يمكـن أن نـشعل نـاراً لإذابـة الجليـد حـول أصـابع هـذا الشيطان الصغير؟».

«كلا سنسبِّب له قضمة صقيع».

«أتمنى لو أعرف كيف حشر نفسه هذا الشيطان الصغير في هذه الورطة».

وبحركة سريعة غير متوقعة جذبني الشرطي بعنف لتصبح يدي محررة. وكان الدم يقطر مـن أصـابعي بينما الـدموع تتـدفق مـن عينـي، تفحَّـصت يـدي المـدماة، لقـد فقـدت ظفـر إصـبعي الصغير.

«افعل الشيء نفسه لليد اليسرى، لا نستطيع إضـاعة الوقـت مع هذا الطفل المزعج».

«تمهل، لايزال الإبهام فقط عالقاً».

وسحب عصا من حزامه وضربها لعـدة مـرات عـلى القفـص المعدني فانكسر الجليد وتطـاير وتحـرر إبهـامي، ثـم جـذبوني مـن القطار، لكـن قـدميَّ لم تـسعفاني بـالوقوف، فعـاجلهما الـشرطي بتمسيد جيد فوقفت دون مساعدة.

«أيها المعتوه!».

«نعم سيدي».

نظرت إلى الشرطي بوجه قذر وملطخ بالدموع.

«بحق الأرض ماذا كنت تفعل في أعلى القطار؟».

«كنت أحاول الإفلات.. سيدي».

«نعم، نعم، أعلم. ولكن ما لا أعلمه كيف حشرت نفسك بين هاتين العربتين وأنت متجمد حتى الموت؟».

«كنت عائداً إلى البيت، سيدي».

«عائداً من أين؟».

«من كايب تاون، سيدي».

فدمدم الشرطي الآخر قائلاً: «أتعني أنك سافرت لمسافة ألف ميل معلقاً هكذا من «كايب تاون؟».

«أتيت على هذا القطار سيدي من كايب تاون».

«أيها الصبي، أين تقيم؟».

«في «صوفيا تاون» سيدي».

«بأي شارع؟».

«في «غود ستريت»، سيدي».

«ما رقمه؟».

«ليس له رقم، سيدي».

«لماذا؟».

«إنه ليس منزلاً، سيدي، إنه مرآب للحافلات».

«أتعني أنك تنام في مستودع للحافلات؟».

«نعم، سيدي، في المقعد الخلفي للحافلة الأخيرة».

«في المقعد الخلفي للحافلة الأخيرة، هه؟».

«نعم، سيدي».

«هذه حالة تخصُّ العمل الاجتماعي..».

«أرجوك، سيدي، لا للعمل الاجتماعي».

«ولم لا؟».

«في ما مضى كانوا يقولون إنني مصدر وجع».

«تعني أنك مصدر وجع في الرأس».

«نعم، سيدي».

«ما عمرك؟».

«إحدى عشرة».

«إحدى عشرة!» ردَّداها معاً.

وبينما اقتاداني من بين الحشود سحبت من داخل قميصي نصف رغيف خبز قديم وبدأت بقضمه.

لم أكن مبالياً بما سيقومون بعمله طالما أنني سأعود إلى المنزل. فالألفة مملكة الضياع.

لقد احتجزوني، وعندما شعروا أنني أصبحت بالغاً بما فيه الكفاية لأعتني بنفسي أطلقوا سراحي، وللحقيقة كنت قادراً على الاعتناء بنفسي لولا تدخل الشرطة(*).

(*) بهذه القصة ما يعتبره الأبيض إصلاحاً للزنوج هو بالضبط سبب ضياعهم؟. «المترجم»

فاكهـة الأرض

ليونيل آبراهامز

إن أول علاقة غرامية قصيرة كانت لـ«فليكس» عندما كان في سن السابعة والعشرين بلحظة حاسمَة، وهو الآن منذ ست سنين دون امرأة. وإعاقته ليست بيولوجية بل نفسية لعجز شخصي: فهو يتجمد ويرتعب من المرأة التي يرغبها أو يريدها في لحظة محاولة إقناعها عندما تحركه العواطف والإثارة، لفقدانه البراعة والموهبة الذكورية للتصرف بهدوء. أما بالنسبة لبائعات الهوى فلقد كانت«جوهانسبورغ» فظة في تكتمها عن بضاعتها، وكيف تكون متكتمة بالقدر الكافي وفيها بيوت لتلك البضاعة. ولكنه بين جهله وحيائه لم يجد طريقه أبداً إليهنَّ، ولقد مضت ست سنوات وعاد مجدداً، إذ إن حاجات جسده أصبحت مصدر رعب لأفكاره.

وفجأة أصبحت الرحلة إلى أوروبا وشيكة. فقد تلقى دعوة من«غوردن وكاثرين سلسور»، وكانا ينويان الهجرة، لينضمَّ

إليهما للقيام برحلة تمهيدية، لقد كان قرارهما سريعاً لذا لم يُبلغاه قبل فترة، ولكن ما جعل ذهابه معهما ممكناً حصوله المفاجئ على إرث عمه. إنها فرصة عجائبية، ومن الغباء رفضها. بالإضافة إلى أن هذه الرحلة إلى مدن أكثر تحضراً يمكن أن تناسب حاجاته الشخصية الملحّة - وضمنياً أقرَّ أن ذهابه في النهاية سيكون لأجل هذا.

فأبحروا، وعند المساء وقبل رسوهم بنصف يوم في«لاس بالماس» وقف«فليكس» على ظهر المركب بالقرب من الحافة يستمع إلى صديقه«غوردن» لوصف ما سيحدث عند وصولهم إلى المرفأ بطريقة تهكمية لا قيمة لها قائلاً: عشرات من الشباب الصغار الوسيمين على ظهر المركب سيندفعون إلى الشاطئ لتذوق حريتهم لأول مرة، ويصطفون لأخذ دور عند المومسات القلائل اللاتي يعملن بجهد في المدينة: فابتسم «فليكس» ابتسامة تنم عن استهزاء وازدراء لهذا الوصف، وأخفى خوفه. وفي اليوم التالي قاما بجولة سياحية بسيارة أجرة في الجزيرة مع«كاثرين»، ولكن تبقى لهم ساعة من الوقت قبل صعودهم إلى المركب مجدداً، فسأل«غوردن» :«ماذا عسانا نفعل أو نرى؟ السوق؟ ما رأيكما بالذهاب إلى الكاتدرائية؟» وتحوَّل بنظره من زوجته إلى«فليكس» قائلاً:«أم أجعله يأخذك إلى بيت دعارة؟».

لكن «فليكس» تجنب النظر إلى «كاثرين» وأجابه بصلابة: ليس بعد ما أخبرتني به الليلة الماضية». لاحقاً عانى «غوردن» شعوراً خفيفاً بالذنب بعد رفض «فليكس» له من المحاولة الأولى لإزعاجه. ولكن في المساء وخلال نقاش عن كتب كانوا يقرؤونها، أطلعته «كاثرين» على مجموعة من الأفكار التي شغلت ذهنه ولونت مشاعره في الأيام الأخيرة من الرحلة. فقالت له: إن بعض الأشخاص يتميزون عند معاناتهم بمواجهة ضميرهم، وأن يتقبلوا، إذا كانت لديهم الجرأة، بقدرهم الصعب.

فبالنسبة لهم سيكون هو السبيل لإنجاز استثنائي. من الجائز أن يكون هذا الكلام موجهاً له، وعلى ما يبدو هذا ما ألمحت به له. فقدمت له مزيجاً غريباً من العزاء والتحدي القاسي، فتأثر، ما خلق لديه دافعاً، وبتمسكه بالنموذج الذي أظهرته، باستطاعته الآن، بل سيرغب بالخروج من هذا الاستهتار وسيرفض حلول التسوية السهلة.

وعلى ما يبدو أن لندن لم تعد حاضرة طالما هو في القطار، بالرغم من أنها تحيط به. أما سيارة الأجرة التي ستأخذهم من محطة «واترلو» إلى الفندق الذي سيقيمون فيه فقد مرت بين السدود والجسور، وأيضاً بين القصور والميادين، وكلها مغمورة بضياء الشمس والخضرة في ظهيرة صيفية جميلة،

وبدهشة تساءل أين هي حفرة لندن السوداء التي وصفها الروائيون؟ لكن لم يمض وقت طويل حتى برزت أمامه بتهكم، إنه الوجه الآخر للندن، وهذا هو حدسه المبدئي والسري: إنها لندن القاتمة والخفية.

أما صديقاه اللذان كانت زيارتهما الأخيرة إلى هذه المدينة بعد قسوة الحرب الثانية، فقد كان لديهما مئات الأشياء لملاحظتها، ولكن ما أثار اهتمامه اندهاشهما الآن من إعلانات للدعارة بشكل بارع، وأينما كان، مما أوقف استجداء الشوارع.

بدأ القيام بتحرياته الخاصة، وتوزع اهتمامه بين الإعلانات الملفقة لحياة المدينة ومعالمها، وبين إعلانات على أبواب أو أوراق مثبتة على ألواح توحي بذلك. هل فاته المكان المفضل لديه بطريقة ما؟ فالدعوات التي كان يتطلع إليها تجاهلته، أم إنه رأى أشياء شديدة الغموض فلم يثق بها؟ لقد حدّق في واجهة تلو الأخرى بصور لافتة خارج أندية التعري، ولكن بمجرد دفْعِهِ الرسم يصبح عضواً ويجلس بين حضور صامت في مكان مظلم وصغير كعلبة الأحذية، وعند بدء الحركات المحمومة والمشاعر المثيرة، قريبة لما يهدف إليه، بدأ يشعر بأنه خدع.

أخيراً وجد بطاقة تحمل صيغة واضحة لما يتوقع، فأخذ طريقه صعوداً على سلالم بالية، ليصده طفيلي مرتاب يلازم المكان قائلاً له: «السيدة لا تعمل اليوم».

ستكون باريس مختلفة. وقد كانت كذلك، وقد وجد رفيقاه في هذه المدينة جمالاً أغنى ومؤثراً أكثر، وبعد عشائهم الأول في فندقهم تركاه يستقر في غرفته ويكتشف محيطه القريب، وذهب الزوجان في نزهة طويلة لزيارة أماكن ومناظر لهما فيها ذكريات سابقة، وعند عودتهما خلدت«كاثرين» إلى سريرها، بينما عرض «غوردن» على«فليكس» الخروج مرة أخرى للتفرج قيلاً على ما يمكن التمتع به.

شربا القهوة في منطقة«سان ميشال» على طاولة تقع على رصيف للمشاة، ومنها يمكنهما رؤية النافورة واستشراف قمة كنيسة«نوتردام» من خلف السطوح، ولكن المكان وحشود الناس من مختلف أرجاء العالم التي تستنشق الهواء المنعش وسط الأضواء، كانت لـ«فليكس» مجرد مجموعة من الأوهام والانطباعات البصرية تحجب وراءها الحقيقة الوحيدة غير المدركة. وبينما هما في طريق عودتهما إلى الفندق قال لـ«غوردن» : أرجوك أن تخبرني أين هي الأضواء الحمراء؟».

نظر«غوردن» إليه نظرة حياء وقليل من التحدّي قائلاً له: «بالحقيقة ليس هناك من أضواء حمراء..» ولفهما الصمت. الأيام القليلة التي تلت وفي زياراته للمتاحف والمطاعم والعجائب وأماكن الملذات بدافع من الفضول وأخذ الذكريات، تركت«فليكس» في حالة من عدم التصديق

والقشعريرة بل والاضطراب. فتنقل لساعات بين اللوحات الصامتة لـ«امبرانت» و«شاردان» و«دافنشي» في متحف «اللوفر»، يلفه حزن بسبب ريبة غير واضحة من خداع رائع في مكان ما، ربما لشيء فيه أو بسبب الانتظار الطويل لرؤية هؤلاء العظماء. ولكن ما هو أسوأ من هذا كله هو نهر«السين»، فهو يتبدل باستمرار لا نهائي، إذ تنعكس عليه جادات أشجار الكستناء والكاتدرائيات، والقصور والأبنية كذلك الدرابزينات والجسور، لقد كان مليئاً ومتخماً بنسخ منقولة لأشياء يجب أن تكون في قمة الجمال، ولهذا كان أكثر الأماكن كآبة وخيبة للآمال.

أما في مساء اليوم الخامس، وبرفقة«غوردن» و«كاثرين» فقد تجول في نزهة طويلة على الجانب الأيمن لنهر«السين». في مكان ما وراء«لي هالز» بين الشوارع الملتوية، وعند حافة الطريق رأوا امرأة وكأنها تمثال، فساعداها ملتفان وتتدلى حقيبة من أحد رسغيها، بينما قدمها تنقر بهدوء إيقاع لحن تدمدمه وهي شاردة. فعلق«غوردن» قائلاً:«إنها مومس». وعندما انعطفوا عند الزاوية ظهر لهم شارع وكأنه سوق لنساء يخمن بانتظار رجال حذرين، هذا المشهد جسَّد لـ«فليكس» نزواته وخيالاته القديمة التي نبذها منذ زمن طويل لتصبح بعيدة الاحتمال والحدوث، ومع هذا تمشى في الشارع بتحفظ واهتمام

متكلف، وبالرغم من استمتاع صديقيه بمختلف الأحداث كما في المسرحيات الهزلية كالنظرات الغرامية والاستعراضات بتباه وخيلاء والمزاح والسؤال عن الأسعار، فقد أحس بنوع من الحياء أمامهما، وبعد فترة انتقل على ما يبدو إرباكه وحرجه إليهما فغدوا أكثر هدوءاً.

بالرغم من هذا، ولاحقاً بعد أمسيتين (وقد كانت هذه هي فرصته الأولى) شرع وحده يبحث عن ذلك الشارع مجدداً.

تَاهَ وضاعَ قرابة ساعة دون العثور عليه، ولم يكن واضحاً لديه طريقة وصولهم إليه في المرة الأولى. وبدأ يشعر بالسخط والغضب عندما وصل ولكن ليس لنفس الشارع بل إلى شارع آخر أكثر عرضاً وأكثر إشراقاً، وبه فندق للقمار والبغاء، ومقاهٍ مكتظة تنبعث منها الموسيقا، وبه رجال أكثر استهتاراً ونساء يتبخترن أكثر توهجاً، لقد كان مكاناً للمتعة دون التباس أو غموض.

وفجأة برزت فتاة بحيوية مذهلة وتعابير جميلة بلمسات رفيعة الذوق، سمراء صغيرة الجسم، ترتدي ثوباً تنورته تنبسط بتمايل مثل زهرة تنثني على ساقين هيفاوين عندما تسير، فانجذب إليها وذهب فرحاً حيث هي.

«من فضلك..» قالها بالفرنسية، لكنها تجاوزته دون أن تشعر به، ربما لم تسمعه أو أنه أخطأ مقصدها. وفي الحقيقة كان جمالها لا يصدق؟ ثم رآها تتكلم مع رجل ودخلت معه إلى

الفندق!! وبالكاد مضت ربع ساعة حتى خرجا معاً، وقبل أن يتمكن «فليكس» من الوصول إليها، اقترب منها رجل آخر ودخلت معه أيضاً الفندق.

فانتظر «فليكس» عند باب الفندق واعترض طريقها، عندما خرجت، ليخاطبها أيضاً بالفرنسية: «مساء الخير أيتها الآنسة»، ونظرت إليه بجمود «أريد..؟» مشيراً إليه وإليها، وابتسم. لكنها هزّت رأسها وتخطته، فناداها: «لماذا؟»، «كم...؟ تريدين؟ يا إلهي لدي ما يكفي من المال...».

ولكنها ابتعدت غافلة عنه، وحمرة تنورتها تتمايل كتمايل حريتها بالقبول أو الرفض كما تشاء، وغابت عن نظره عند زاوية الشارع. بعد دقيقة واحدة وكان لايزال يبحث عنها بانبهار، متشوقاً لمناقشة حقه وتأكيده، ظهرت فجأة عند الزاوية فتوقفت عندما رأته وهزت رأسها له هزَّة خفيفة. ثم قطعت الطريق حيث توجد زمرة من النساء، وقالت لهنَّ شيئاً!! فحدقن فيه وتكلمن فيما بينهن. وأخيراً، أتت واحدة منه، إليه وهي زنجية طويلة القامة، فوقفت بقربه ونظرت إلى وجهه وهي تحني رأسها كطفل صغير.

شعر بالضجر والإرهاق، ووقف صامتاً لبضع ثوان محدقاً بمرارة في الفتاة ذات الرداء الأصفر، وبشيء من العنف والشرود قال «كم تريدين؟».

بغرابة مالت الزنجية عليه وهمست: «أربعة آلاف». كان هذا هو سعرها السري، وهكذا بدأت علاقتهما الحميمة. وبدأ يشعر بشهوانيتها من خلال عرضها الفاتن، فأومأ بالإيجاب وتبعها، وصلا إلى مدخل درج تكسوه سجادة سميكة وله درابزين مصقول ولامع، وكان الدرج ضيقاً ومرتفعاً والدرابزين من جهة اليسار لا يمكن استعماله، فوازن جسده وهو يصعد بالضغط على حائط مكسو بورق عليه رسوم من الزهور، وعند منتصف الطريق صعوداً انعطفا ليصبحا في الجزء الأعلى من الدرج، ليصبح الممر ضيقاً بشكل كبير بالكاد يتَّسع لموطئ قدم، ولمحاولة الخروج من هذه النقطة ضرب الأرض بشدة وجذب نفسه ولكن أصابع يديه بمحاذاة الحائط وأصابع رجليه التي على السجادة انزلقت وتركته يتأرجح ففقد توازنه، وشعر بوخز وحكاك بسبب قطرات العرق التي بدأت تتجمع على جبينه جراء هذه المحاولة اليائسة، فمد يده للمرأة التي أصبحت قريبة من فسحة الدرج، «من فضلك.. يدك» قالها بالفرنسية، فتوقفت ونظرت إليه، فمد يده ناحيتها حتى تمسك به، ولكنها لم تحرك ساكناً.

«يدك..» عاد وقال. أهذه هي الكلمة الصحيحة؟ «يدك، من فضلك. ساعديني.» واندفع تنفسه بقوة من أنفه وأسنانه.

فأطلقت صوتاً محدقة به ولم تتحرك.«يدك» قالها وهو يئن ويده تطير في الهواء، فتمتمت وضحكت وهي تقول:«أخاف» كلمة لم يتذكر معناها في تلك اللحظة.

«فقط مدي لي يدك للحظة» راجياً،«من فضلك، يدك..؟» وعندها تذكر معنى ما تقول، وبهمسة كالصرير كأنها صرخة كررتها عدة مرات:«أخاف... أوه، أخاف..؟».

عند وصوله إلى الشارع خارجاً من الدرج بدا مظهره هائجاً، فاقترب من ثلاث نسوة يقفن على الطريق فأدرن له ظهورهن، وبعد محاولات ثلاث لدعوتهن سار يائساً في طريقه.

عند وصوله إلى مكان خالٍ من الناس تمهل، ثم أسند وجهه على واجهة شباك لمحل مظلم ووقف دون حراك لمدة طويلة. وأخيراً قرر العودة إلى فندقه لينام. لكن فكرة النوم جعلته خائفاً، كخوف الزنجية على الدرج والتي بدت عاجزة عن الحراك، وفكَّر أنه إذا كان سيعود وينام وهو في هذه الحالة والعالم من حوله كالصقيع والجماد والمهزلة فلن يستطيع أبداً أن يشعر من جديد بالواقع، لكنه عمل كما يجب وقام بكل ما عليه في طلب ما يريد. فماذا يتبقى عليه أن يفعل؟

عند استئنافه السير ذهب باتجاه الشمال بعيداً عن النهر، وبعد مروره بعدة أبنية وصل إلى شارع آخر للمومسات. لقد كانت

إضاءته وأبنيته أيضاً قذرة وداكنة، فتملكته الرهبة وتلاشت رغبته الجنسية فسار ببطء عاجزاً عن فعل أي شيء وأخذ أي قرار، فجميع الأشكال البشرية التي رآها لم تثر رغبته. لقد رأت عيناه في كل الأمكنة إيحاءات ودعوات كتطاير لخصلات شعر أو لتنورة، أو لصدر نصف عارٍ. كل هذه الإيحاءات أوقعت في نفسه اليأس.

فجأة أصبح الشارع شبه خال بعد عدة أبنية، لكنه استمر في السير حتى المنعطف، فاستدار من حوله فرأى آخر وأبعد مكان لمثل هذه النشاطات. هناك كانت عدة فتيات يتسكعن قرب بضعة مداخل لأبواب معتمة، أما أجسادهن وظلالها فاختلفت لتصبح أطيافاً رمادية، وعلى طول الطريق جلست أخريات بجانب طاولات أمام مقهى صغير خاص بالمومسات، فتنحى جانباً واتكأ على الحائط يراقب من غير تأثر. لقد أصبح الوقت متأخراً واشتد البرد.

ولأول وهلة ظهر الشارع أمامه هادئاً، وكأن هؤلاء النسوة والرجال الثلاثة أو الأربعة قد ضلوا طريقهم، وكأنهم في حالة لا مبالاة كحاله. أحد هؤلاء الرجال كان جامداً لولا حركات يده التي تحمل السيجارة، أما الاثنان الآخران فقد كانا يتبادلان دمدمات خافتة، أما الرجل الأخير فقد مشى بخفة وبطء متجاوزاً بعض النساء، وعند وصوله حيث إحداهن واقفة، بدا

لـه أن ضـحكة لطيفـة ومكبوتـة واحـدة كانـت كافيـة لإعـلان اختفائه معها في باطن إحدى الأبنية. وبدأت تتزايد التحركـات هناك فهرولت امرأة وقطعت الطريق باتجاه المقهى وتكلمت مع الجالسين، ومع قليل من الضحك والأخذ والرد تجاوبوا معهـا، وبعد دقيقة أو دقيقتـين قطعـت الطريـق ثانيـة ووقفـت مـع فتـاة شعرها نحاسي وبدت كأنها تعطيهـا تقريـراً بحيويـة كبـيرة. لقـد جذبت الفتاة ذات الشعر الأحمر والجسد الممتلئ والجمال الـذي لابـأس بـه انتبـاه«فلـيكس». وأشـارت هـذه الفتـاة إلى كعـب حـذائها العـالي وأعطـت إشـارة سريعـة وركـضت مـع الفتـاة الأخـرى وهـي تبتـسم نحـو المقهـى ثـم رمقتـه بنظـرة فبـاشر بالاقتراب، لكـن بقـراره هـذا تـسارع نفسه فـانتظر قلـيلاً حتـى يهدأ. وفي هذه الأثناء أتت فتاة وكأنها خادمـة للمـرأة الأخـرى، هـذا مـا افترضـه«فلـيكس، إذ كـان لباسـها مختلفـاً، لقـد كانـت ترتدي سروالاً من الجينز القطني الأزرق وقميصاً من الجرسـيه باهـت اللـون، أمـا شـعرها فقـد كـان قـصيراً وكأنهـا تخلـت عـن مظهرها الأنثوي، فبدأ يقترب من الفتاتين آملاً بنظرة من الفتـاة ذات الشعر الأحمر.

لكـن توقعاتـه أخطـأت. لقـد جـاء رجـل - في أواسـط عمـره، يلبس سـترة رياضـية وقميـصاً كاكيـاً مفتوحـاً عنـد الرقبـة - ودون تلكؤ ذهب مباشرة إلى الفتاة بلباس الجينز ودون أي حديث بينهما على ما يبدو قادته مباشرة إلى مدخل قريب.

انتظر للحظات حتى يجمع قواه ويتحرك باتجاه الفتاة ذات الشعر الأحمر ليكلمها. لكنه فجأة أدرك أن أحدهم، وكان لا يبعد سوى ياردة أو اثنتين، يقترب منهم إنه الرجل الصامت المُدخن، شاب يافع ضخم القامة أسود الشعر، وقميص ضيق يبرز عضلات ساعديه. وتبين أنه يحدق بشدة إلى«فليكس» من خلف نظارته السوداء، فانتظر«فليكس» مروره، لكنه وقف وعضلات أحد خديه الشاحبين تتحرك، وأصابعه التي تمسك السيجارة بالقرب من فمه ترتجف، ثم خاطبه فأجابه«فليكس» :«لا أتكلم الفرنسية».

ولكن الرجل أعاد ملاحظته مرة بعد مرة. وشرح له« فليكس» من جديد أنه لا يفقه ما يقول، ومع هذا بقي الرجل يتكلم معه بإلحاح، لا يبدو أنه بحالة سكر.

ثم برزت الفتاة بالبنطال الجينز ثانية خارجة من باب المدخل فرحل الصيني بعيداً بصمت كما ظهر أول مرة، لقد سَمِعت ما دار بينهما لفترة وجيزة فتكلمت مع الشاب بحدة، فحدق بها وهز كتفيه بلا مبالاة ورحل.

«هل أنت إنكليزي؟» سألت الفتاة« فليكس»

«نعم».

«سائح؟».

«أين يقع فندقك؟».

«إيل لا ستيه».

«إنه بعيد جداً. هنا هو الحي الجزائري، وهو خطر عليك، ذلك الرجل يريد إثارة مشكلة».

ثم تمعن فيها وبالأخص في وجهها وأحس بأنوثتها ثم أجاب: «شكراً لك».

فأومأت برأسها وسألته: «ماذا تريد من هنا؟».

«أنتِ» قال «فليكس».

فنظرت إليه بصمت لدقيقة وكأنها لم تفهم مراده ثم أومأت ثانية برزانة وأخذت بيده وقادته للداخل إلى فسحة درج عارية ثم إلى زاوية غرفة فيها سرير مغطى بشرشف بلاستيكي وحوض مغسلة و«بيديه».

«من فضلك، قالت له عند وصولهما: «خمس فرنكات جديدة للغرفة وعشرون فرنكاً لي». لقد كان السعر متواضعاً، وكذا كانت هي عندما قالتها بتواضع أكثر، وللحظة تذكر وجه ذلك الصيني المتجهم الذي أتاها صامتاً وبصمت كذلك رحل، وبقيت هي بحالة صمت وحزن رتيب، ثم دفع «فليكس» المبلغ، ومن دون تبادل القبل أو أي اهتمام اقتربا. لقد حصل هذا بشكل مفاجئ وميكانيكي لكنه كان مثيراً وملحاً، بعدها

سمحت له بالاستلقاء لدقيقة، ولما عاد إلى واقعه تنهد بهدوء معبراً عن الرضا والامتنان، بعد ذاك اغتسل وكان اغتساله أشبه بالاحتفال أكثر منه لأجل النظافة، وفي الوقت الذي كانا يرتديان ثيابهما تحادثا قليلاً، فسألا عن اسمي بعضهما ومكان نشأتهما، وفي النهاية شكرها بكل حرارة، وبحرارة مماثلة ومفاجئة منها قبلته على خده.

عند وصولهما إلى الشارع حثته على أن يستقلَّ سيارة أجرة من أجل سلامته ووعدها بذلك بحال عثر على واحدة.

عادة ما تكون الشوارع خالية بعد منتصف الليل، ولكنه عند وصوله إلى«لي هالز» طبعاً لم يكن هناك سيارات بل فيضان لحياة مختلفة، فالمنطقة هناك بدأت لتوها بتحضيرات نشطة لصباح تجاري جديد، فأصحاب المحلات كانوا في كل مكان يتجادلون ويهتفون ثم يرسمون بالطبشور أماكن مواقع محالهم، كذلك المطاعم فتحت أبوابها بنشاط، فدخل«فليكس» إلى أحد المطاعم حيث كانت بعض صاحبات المحل منهمكات في جدال من خلف المنضدة حول كؤوس ذوات أعناق تستعمل لشراب مغلي أسود، فطلب شوربة البصل بناء على ما أخبره به أصدقاؤه أنه المكان والوقت المناسبان لمثل هذا الطلب، وبالفعل لقد كان اختباره موفقاً وبينما كان يأكل، كان يراقب هؤلاء النسوة العجائز الممتلئات حيوية، ثم انضم إليهنّ بعض الوافدين، ومن خلال

طلباتهم اكتشف أن الشراب السائل ما هو إلا قهوة، لكنها تصبح أكثر بهجة واحتفالية عند سكبها في تلك الكؤوس.

بعد أن أكل كل محتويات الوعاء، ترك المطعم، كانت الحركة في الخارج على أشدها، لقد امتلأت ساحات الأبنية والشوارع والساحات بالناس وبعربات اليد وأكوام الأكياس والأقفاص. وكانت صفوف الشاحنات تنقل بضائع جديدة من الإجاص والعنب والجزر والبطاطا والثوم والخس والذبائح والزهور، وجميع الأشياء المغبرة وكثيرة العصارة القابلة للتلف، اجتمعت في الحويصلة الليلية المتعاظمة لهذه المدينة.

لقد كان سلوكه لهذا الطريق الذي يشبه المتاهة صعباً وربما خطراً، ومع هذا الحذر والخوف إختار طريقه على الأرصفة مبتهجاً وسط أهرامات عطرة من فواكه الأرض(*).

(*) الكبت الجنسي في «جوهانسبورغ» كدليل على المدنية، هو ما تعبّر عنه هذه الأقصوصة؟. «المترجم»

جاري المتسول (*)

دان جاكوبسون

في أحد الأيام ولأول مرة رآهما«مايكل» وهو عائد من المدرسة. للحظة كان الشارع خالياً يتألق في ضوء الشمس خلف ظهر«مايه»، فلا سيارات على الطريق ولا مشاة على الرصيف الرملي الواسع، وفي لحظة أخرى برز اثنان أمامه ورفعا رأسيهما باتجاهه. وبدا كأنهما برزا مباشرة أمامه، وكأن ضوء الشارع وظله الساطع تكثّف فجأة ليصير اثنين من الزنوج الصغار بعيون كبيرة تقع في رأسيهما المستديرين ووجوه سوداء.

«ستاكي برووه» ؟ قالها الصبي الأكبر سناً بصوت حزين. أي قطعة خبز، ففي مدرسة«مايكل» كان كل الأولاد الأفارقة

(*) للإيضاح: هذه قصة تمثّل حاجة السيد للعبد وليس العكس. «المترجم».

يستعملونها كتعبير عامي: ستاكي بروود، وهذا ما كان الأولاد الأفارقة يقولونه دائماً.

«ستاكي برووود؟» قالت الفتاة الصغيرة. كانت ترتدي فستاناً أبيض وسخاً، وقصيراً بالكاد يغطي عورتها، وبدا كأنها لا تلبس شيئاً تحته، وكانت لا ترتدي جوارب ولا تنتعل حذاء وليس عليها سترة أو قبعة أو أي غطاء للرأس. كانت في العاشرة من العمر تقريباً، أمَّا الصبي فقد كان يرتدي قميصاً ممزقاً كاكي اللون وبنطالاً رمادياً قصيراً، ولكن قياسه كبير عليه. كان في عمر«مايكل» يقارب الثانية عشرة، ولكنه أقصر من الصبي الأبيض. وكحال البنت فالصبي الأفريقي لا يرتدي جوارب ولا ينتعل حذاء. وكانت أطرافهما نحيلة بشكل مؤلم، أما الرسغان وكاحلان فكانت أشبه بكتلة دائرية، والجلد الذي يغطي تلك العظام البارزة كان أخشن من غيره في أماكن أخرى من جسديهما. كما أن القذارة على جلديهما بدت بلون رمادي باهت مقابل لونهما الأسود.

«ليس لدي خبز» أجاب الصبي الأبيض، متردداً من المفاجأة بسبب ظهورهما المباغت أمامه. فلابد أنهما كانا يختبئان خلف إحدى الشجرات المزروعة على الرصيف: أنا لا أحضر الخبز معي من المدرسة. قال«مايكل»!!

لكنهما لم يتحركا. عندها نقل «مايكل» حقيبة مدرسته من يد إلى أخرى وتقدم خطوة إلى الأمام. وبصمت وقف الولدان الأفريقيان جانباً. لقد أحس «مايك» بنظرات عيونهما بعد أن تجاوزهما، وعندما نظر خلفه رآهما واقفين من دون حراك يراقبانه وهو يمضي. لقد كان الصبي يمسك بيد الفتاة.

هذا ما جعل الصبي الأبيض يتأنى. لقد تأثر من اعتمادهما على بعض، بينما أزعجه ظهورهما المفاجئ في طريقه ومراقبتهما له، وصمتهما بعدما تفوها بما اعتادا عليه حين التسول. لاحظ «مايكل» خرقهما البالية وقذارتهما، وفكَّر بمدى جوعهما. من المؤكد أنه يستطيع إعطاءهما كسرة خبز، فمنزله لا يبعد سوى ثلاث بنايات.

قال لهما: «ليس معي خبز الآن، لكن إن أتيتما معي إلى المنزل فسأتدبر لكما ذلك. هل فهمتما؟».

لم يجيباه. وسار الأولاد الثلاثة على الرصيف. وكان الولدان الأفريقيان صامتين كصمت ظلالهما التي انزلقت على الرمل الخشن أمامهما، يمشيان بجانب «مايكل» ولكن إلى الخلف قليلاً، فسألهما «مايكل» إن كانا يذهبان إلى المدرسة، فهزَّ الصبي رأسه بالنفي، وعند سؤاله لهما إن كانا أخاً وأخته أومأ الصبي بالإيجاب.

عندما وصلوا إلى منزله دخل «مايك» أخبر «دورا» الفتاة الطاهية بوجود اثنين من الزنوج في الممر الخارجي، وطلب منها بعض قطع من الخبز والمربى. فتذمرت «دورا» بأن ليس من واجبها أن تعتني بكل متسولي المدينة، فأجابها «مايكل» غاضباً، «لدينا الكثير من الخبز فلم لا نعطي قسماً منه؟» وغضب «مايكل» لشعوره بأن على «دورا» أن تكون أكثر تقبُّلاً منه لمساعدتهما فهي من نفس عرق الولدين اللذين في الخارج، ويجب عليها أن تكون أكثر استعداداً منه لذلك. وحالما بدأت «دورا» بالخروج إلى البوابة الخلفية حيث ينتظر الزنجيان أوقفها «مايكل» قائلاً لها بنبرة توبيخ: «لا بأس، سأحمله أنا» وخرج حيث ضوء الشمس حاملاً الصحن في يده.

«ستاكي بروود» ناداهما ليأتيا إليه. «هذا هو لكما ستاكي بروود». فمد الولدان أيديهما بتلهف، وسُرَّ «مايكل» لرؤية مربى المشمش الذي وضعته «دورا»، وأمسك كل من الولدين الخبز بكلتا يديه وكأنهما خائفان أن يسقط، وبدأ فم الفتاة بالتحرك قليلاً لكن عينيها ظلتا مثبتتين على الصبي الأبيض.

سألهما «مايكل»، «ماذا قلتما؟».

فأجابا بصوت واضح وعالٍ «شكراً سيدي».

«هذا أفضل، يمكنكما البدء بالأكل الآن». فهو بالفعل يريدهما أن يأكلا، وأن يشاركهما متعة إشباع شهيتهما المجهدة.

ودون أن ينبسا بكلمة بدأا بالرجوع إلى الوراء جنباً إلى جنب، وبعد عدة خطوات استدارا وركضا على الممر قرب الطريق الرئيسية حيث كانا يسيران من قبل، و - رفرف فستان الفتاة الأبيض خلفها فوق جسدها الأسود - وعند زاوية الشارع تمهلا ونظرا نظرة إلى الخلف ثم عادا ثانية إلى الركض ليتواريا عن الأنظار.

بعد أيام قليلة في نفس الوقت والمكان رآهما«مايكل» مرة ثانية في طريق عودته إلى البيت من المدرسة. كانا يقفان في منتصف الرصيف بعيداً جداً عن مكانه، وعلى الأرجح كانا بانتظاره، وعند اقترابه بادرهما«مايكل» بالقول:«ماذا؟ قطعة أخرى من الخبز؟» وكان لايزال على بضع ياردات.

«نعم سيدي» أجابا معاً!! واستدارا على الفور لمرافقته حالما مشى، ولكنهما حافظا على خطوة أو خطوتين إلى الوراء دليل الاحترام.

«كيف علمتما أنني قادم؟»

«نحن نعلم أن السيد قادم من المدرسة».

«وما أدراكما أنني سأقدم لكما الخبز؟».

لم يجب الصبي«مايكل» ولا بدرت منه ابتسامة، لقد بدا لـ«مايكل» وهو يرمقهما بين فترة وأخرى تطابقهما في الشكل مع

مئات أو آلاف الزنوج الآخرين، بدءاً بشعرهما الذي يشبه حبَّ الفلفل في أعلى رأسيهم وحتى أقدامهما العريضة والقاسية كَلون الرمل الرمادي.

وعند وصولهم إلى المنزل أخبر «مايكل» «دورا» قائلاً: «هذان ستاكي بروود ينتظران في الخارج. أعطيهما شيئاً ودعيهم يرحلان» ومن جديد تذمرت «دورا» ولكنها فعلت ما طلب منها، ولم يُخرج «مايكل» الخبر بنفسه، فلقد كان في عجلة للعودة والعمل على مجسم سيارة يقوم بصنعها، فاكتفى برؤية «دورا» من نافذة غرفة نومه بعد عدة دقائق عائدة من البوابة الخلفية بصحن فارغ بيدها. وسرعان ما نسي أمر هذين الولدين، ولم يخرج من البيت لساعتين مضتا، حيث حل الظلام، فتناول مصباحاً كهربائياً ليساعده في إيجاد قطعة من سلك معدني من أجل مجسمه في عتمة سقيفة المخزن. لقد أحس «مايكل» بالقوة والأهمية لحمله هذا الكشاف الكهربائي، ومشى في الممر وهو يحمله كشرطي في نوبته. فجأة عندما فتح البوابة رأى الزنجيين يقفان على بعد خطوات قليلة منه وتحت ضوء خافت.

«ماذا تفعلان هنا؟» صرخ «مايكل» بدهشة؟

فأجاب الصبي رافعاً رأسه في إشارة تحذير «لمايكل» بالسكوت، «نحن ننتظر هنا لنقول شكراً «للسيد» .

«مـاذا؟» وخطـا«مايكـل» خطـوة باتجـاه الاثنـين فتـسمرا في مكانهما وانكمشا على بعضهما قليلاً.

وبالرغـم من تألق وتـوهج شـوارع«لينهرسـت» نهـاراً، لكنـه الآن فصل الشتاء، بل منتصف فصل الشتاء وبمجرد أن تغيـب الشمس يـصبح الهـواء قارسـاً وشـديد الـبرودة، سريعـاً بـسرعة حلول الظلمة، والبرد ليلاً ينفـذ عميقـاً مـن الأسـقف الحديديـة المنقبـضة والمتقلـصة للمنـازل، لتتجمـد بـرك الـسمك في جميـع الحدائق الجميلة للأحياء التي يقطنها البيض. وكان«مايكل» قد شـعر بقرصـة الـبرد عـلى أطـراف أذنيـه وأصـابعه أمـا الولـدان الأفريقيان فقد وقفا هناك حفاة وبفستان مهلهل وقميص ممزق ينتظران شكره للخبز الذي أرسله لهما.

«لم يكن عليكما الانتظار» قال«مايكل». وفي عتمة يتخللها قليل مـن الـضوء رأى«مايكـل» الفـستان الأبـيض بوضـوح أكثـر مـن ملابس الـصبي، وتـذكر فخـذيها الأسـودين العـاريين والنحيلـين، ومدَّ يده إلى الأمام حاملاً المصباح«خذاه» قالها، فليس في يده سوى هذا المصباح ليقدمه لهما:«إنه جميل، إنه مصباح، انظـرا» ولمـا أضـاءه رأى مـن خـلال أشـعته زوجـين مـن العيـون تتحـرك مـن جهـة إلى أخـرى. فقـال مايكـل:«انظـرا كـم هـو جميـل»، مـديراً شـعاعه إلى الأعـلى لـيضيع ضـوؤه في الـضوء المتلاشي عنـد الـسماء.«إن كنـتما لا تريدانه يمكنكما بيعه، هلمّا خذاه».

امتدت يد الفتاة وأخذت المصباح. بعدها هرب الولدان بالاتجاه نفسه الذي أتيا منه عند الظهيرة. وعند وصولهما إلى المنعطف أضاءت كل مصابيح الشارع مرة واحدة فتوقف الولدان وحدقا بها قبل أن يعودا للركض، ورأى«مايكل» المصباح يومض في يد الصبي، عندها خطر له أنه بالرغم من تحمسهما لشكره عن الخبز فهما لم يشكراه عن المصباح؟ ربما حجم الهدية أدهشهما إلى حد الصمت، وكان حاسماً في قرارة نفسه أن فكرة كرمه ساعدته في مواساة إحساسه بالندم عند رؤيته للمصباح بعيداً عنه.

لقد كان«مايكل» ولداً وحيداً، لا إخوة له ولا أخوات، أبواه يعملان خارجاً خلال النهار، وليس لديه سوى قلة من الأصدقاء في المدرسة، لكنه لم يكن بأي حال حزيناً من وحدته هذه فقد اعتاد عليها بالأصل، وكانت وحدته لمصلحته فقد أطلق العنان لتصوراته وخياله، فلعب ساعات وحده بألعاب متنوعة من ابتكاره كألعاب الحرب والاكتشافات والملاحة واختراعات علمية، وكذلك ألعاب الجريمة والجاسوسية والسكن فوق أو تحت منزله الحقيقي، ولم يمضِ وقت طويل حتى أصبح الولدان الأفريقيان، اللذان بدأا يزورانه بشكل متكرر ضمن ابتكارات ألعابه، فضعفهما وفقرهما وتبعيتهما كل ذلك أعطى«مايكل» أفقاً فسيحاً ليظهر ميله للطيبة والكرم

والشجاعة والحزم، فكان أحياناً وخلال ممارسة هذه الألعاب ينقذ حياة الولد ليشكره هذا بلغة إنكليزية ركيكة.

أحياناً ينقذ حياة الطفلة وبكل إذلال ستطلب منه الصفح لما سببته له من المشاكل. وأحياناً أخرى لن يستطيع إنقاذ حياة أي منهما بالرغم من بذل كل جهده، وهنا يصل إلى المشهد المؤثر للوداع.

لكن، في واقع الحياة لم يلعب «مايكل» أبداً مع هذين الأولاد: فلقد كانا شديدي القذارة وثيابهما رثة وهما غريبان ومتطلبان وإلحاحهما جعل «دورا» تخبر والدة «مايكل» عنهما، فقامت الوالدة بواجبها وحذرت «مايكل» من اللعب مع هذين الولدين تحت أي ذريعة أو إعطائهما أشياء ذات قيمة.

«ألعب معهما!» ضحك «مايكل» من الفكرة.

وعدا عن الخبز، «فمايكل» لم يعطهما سوى المصباح وبضع ألعاب قديمة وقميص داخلي أو اثنين وزوج من الأحذية المصنوعة من القماش، فلا أحد يمكن أن يضِنَّ بهذه الهدايا. وفي الحقيقة، كانت والدة «مايكل» ضنينة بإعطاء الزنوج ألعاباً قديمة أو ثياباً أو حتى خبزاً. وببساطة، ما أقلقها منع ابنها من اللعب مع الزنوج لخوفها من أن يلتقط منهم الجراثيم واللغة السيئة وطرق «الكافير» (وهي لغة الشعوب في جنوب

أفريقيا)، وقد سرَّت والدة«مايكل» لسماعها من«دورا» و«مايكل» أن«مايك» لم يلعب معهما أبداً، وهو لم يدعُهما ولو لمرة إلى الفناء الخارجي للمنزل.

مرة في الأسبوع تقريباً كانا يأتيان لمقابلة«مايكل» عند عودته من المدرسة، أو ينتظرانه خارج البوابة الخلفية، لقد بدأت رياح الربيع تهبُّ وتسوق البرد بعيداً، وخصوصاً خلال الليل، وما زال الولدان يترددان، ولم يطرأ أي تغير على عبارات شكرهما لا في طولها ولا في نغمتها، مهما قدَّم لهما«مايكل» لكنهما أجابا عن سؤاله فأخبراه أن اسم الولد«فرانس» واسم البنت«آني»، وهما يقطنان في منطقة«غرين بوينت»، وأبواهما متوفيان، وخلال كل هذه المدة لم يلمسهما«مايكل» إلا لمسة سريعة عند إعطائهما هدية.

كان يتمنى لو كان تعبير امتنانهما له أكثر وضوحاً ومن غير تحفظ، وتمنى ولو لمرة واحدة إمساك يده وتقبيلها أو الركوع والبكاء!! وكان يمنّي نفسه بهذه التصورات، أو كيف سيخبر هذان الولدان رفاقهما عنه عند عودتهما إلى مسكنهما المتداعي والقذر في«غرين بوينت»، وتصور«مايكل رفاقهما وتشوقهم ليسمعوا قصص ذلك الولد الأبيض السيد النظيف الذي أعطاهما الطعام والألعاب والثياب.

في أحد الأيام خرج «مايكل» لمقابلتهما حاملاً شيئاً له قيمة خاصة عنده - مجموعة راقية من أقلام الحبر والرصاص - مقدَّمة له مؤخراً بمناسبة عيد ميلاده، ولم يكن بنيّة «مايكل» تقديم هذه المجموعة للولدين الأفريقيين، ولم يرد بباله التباهي بها أمامهما بل كان يريد فقط مشاركتهما سروره بها كأي شخص لم يرها من قبل، ولكن حالما لاحظ كيفية تحديق الولدين بعلبة الأقلام، أدرك «مايكل» خطأه. «هذه ليست لكما»، قالها فجأة فومضت أعينهما وحدقا بدهشة وصمت، مرَّة إلى العلبة ومرَّة إليه ومن ثم إلى العلبة، «يمكنكما فقط النظر إليها» قال «مايكل». وأمسك العلبة بقوة في يده ومدها إلى الأمام، وكانت الأقلام تشعُّ داخل العلبة المبطنة بالمخمل، ومعاً علا رأسا الولدين فوق العلبة وحدقا فيها بعمق.

أخيراً، رفع الصبي رأسه وقال متنهداً: «إنها جميلة؟ قالها وامتدت يداه ببطء نحو العلبة. «سيدي».

«كلا»، وتراجع «مايكل» قليلاً عن أعينهما المتوسلة وأيديهما المرفوعة.

«من فضلك سيدي أعطني إياها».

ثم قالت أخته: «لي أيضاً سيدي».

«كلا، لا يمكنكما الحصول عليها». وحاول الضحك، لربما من غرابة الفكرة، لقد غضب من نفسه لأنه سمح لهما برؤية

العلبة وتفاجأ بسؤالهما لأخذها، إنها المرة الأولى التي يطلبون شيئاً غير الخبز.

«من فضلك سيدي، إنها جميلة»، وخفت صوته متلهفاً عند لفظه الكلمة الأخيرة، ومن ثم كررت أخته الكلمة: جميلة، وأيضاً تلاشى صوتها كالصدى.

«كلا لن أعطيها لكما، لن أعطيكما شيئاً إذا أردتما أخذها، هل تسمعان؟».

فانخفضت أعينهما إلى الأسفل وكذلك رأسهما وتدلت أيديهما، وعندما تأكد من عدم سؤالهما مجدداً عن العلبة رقَّ لهما «مايكل» وقال: «سأذهب الآن وأسأل دورا أن تحضر لكما بعض الخبز».

بعد دقائق قليلة دخلت عليه «دورا» في غرفته حاملة صحن الخبز بيديها وقالت له: «الكافيرز رحلوا (أي الزنوج)». لقد كانت «دورا» تكره هذين الولدين، وأحسَّ «مايكل» بنوع من الانتصار في صوتها وطريقتها عند إخباره بهذا.

وذهب إلى الخارج ليرى إن كانت صادقة، لقد كان الممر خالياً فأكمل إلى الشارع ونظر في الاتجاهين، ولكن ليس هناك من أثر لهما. لقد رحلا. لقد دفعهما للرحيل، وتوقع «مايكل» أن يشعر بالذنب، ولكن لدهشته الكبيرة لم يشعر بهذا أبداً، بل أحسَّ بالراحة لرحيلهما، لقد انتهى كل شيء.

لكـن، عنـد ظهورهمـا مـن جديـد بعـد أيـام قليلـة أحـسَّ بالازدراء تجاههما لعودتهما بعد الحادثة الأخيرة، وشعر بقوتهما توازي قوته.«إذاً، لقد عدتما؟» قالها مستقبلاً لهما،«أنتما تحبان ستاكي بروود أليس كذلك؟ فأنتما جائعان اليوم ولهذا ستنتظران اليوم ولن تهربا».

«نعم سيدي». قالاها بصوت خفيض.

فأحضر«مايك» الخبز لهما، وعند محاولتهما أخذه حاول سحب الصحن مازحاً وضحك لدهشتهما، عندها قدم لهما الخبز.

«شكراً سيدي».

«شكراً سيدي».

وأكلا الخبز بحضور«مايكل»، وعند مراقبته لهما أحس بشيء من الود تجاههما:«حسناً يمكنكما القدوم ليوم آخر وأخذ مزيد من الخبز».

«شكراً سيدي».

«شكراً سيدي».

لقد أتيا بنزعة أكبر مما توقع«مايكل»، فأعطاهما الخبز وطلب منهما الرحيل فرحلا ومن جديد لم تمض أربعة أو خمسة أيام حتى برزا، وبعد يومين بدل خمسة أيام، ها هما الآن بسؤالهما الأبدي،«ستاكي بروود سيدي؟».

سألهما «مايكل» : و«لماذا أصبحتما الآن تجوعان بهذه السرعة؟» ومع هذا فقد أعطاهما الخبز.

وعندما كان يحضرهما بخياله في ألعابه لم يعد «مايك» يسعى لإنقاذهما أو شفائهما، بل يضعهما بلا مبالاة في المهالك والسيارات، وهو الآن يأمرهما ويرسلهما بمهمات خطرة، يعرِّضهما لإطلاق الرصاص من الأعداء، ولتمثيل دور أسهل لما يشبه تصوراته الأخيرة أصبح «مايكل» في حياته الواقعية يأمرهما دون مبرر، فيجعلهما متعمداً ينتظرانه أو يبعدهما ويطلب منهما العودة في وقت محدد بالرغم من علمه أنه سيكون خارج المدينة، أو يقول لهما أنه لا يوجد خبز في المنزل. وبحال أعطاهما فإنه يعطيهما خبزاً فقط، فلا ألعاب قديمة ولا ثياب.

وبمرور الأسابيع تحول ازدراء «مايكل» لهما إلى عدم صبر وسخط، والسخط إلى غضب. وما أغضبه أكثر أن الزنجيين كانا غبيين لدرجة لم يدركا شعوره تجاههما، وبدلاً من مجيئهما في فترات قليلة استمرا بالظهور أكثر من ذي قبل.

وسرعان ما بدأا يترددان يومياً بالرغم من صراخ «مايكل» عليهما وإغاظتهما فقد كان يتركهما ينتظرانه لساعات، أو يقوم بخداعهما أو ترنيم أغان عن خبزهما، لقد فعلا كل ما طلبه منهما، ولكنهما وبكل ما للكلمة من معنى تجاهلا تعليماته عن

الأيـام التـي يجـب أن يأتيـا بهـا. وبثبـات ودون أي تغيـير كانـا ينتظرانـه تحـت ظـل إحـدى الـشجرات التـي تنمـو عـلى جانـب الطريق المؤدية إلى المدرسة، أو عنـد البوابـة خلـف البيـت حيـث الرمـل عـلى الأرض هنـاك يغطـي أصـابع رجلـيهما العاريـة. ولعودتـه إلى المنـزل أخـذ«مايكـل» طرقـاً مختلفـة، ولكـن هـذا لم يثنهما عن القدوم، وببساطة انتظراه عند البوابة الخلفية. وسـواء دخل منزله من البوابة الأمامية أو الخلفية فلن يقـدر عـلى تجنـب رؤية أشكالهما الساكنة والمستقيمة.

وأخـيراً طلـب مـنهما الرحيـل وأن لا يعـود نهائيـاً فقـد كـان يتلهف للقيام بهذا مراراً ولكن، قليل من الحياء والكبرياء منعـه من القيام به، فكان يضعف من قبل، فيحدد لهـما وقتـاً مثـل بعـد أسـبوع أو أسـبوعين لقـدومهما، ولكنـه الآن يـصرخ بـوجهيهما «هـذه هـي النهايـة! لا مزيـد مـن الخبـز - لا شيء! وإذا عـدتما فسأقول للصبي الذي يعمل في الحديقة ليطردكما بعيداً».

من حينها بدأا بالقـدوم يوميـاً، لكـنهما لم ينتظـرا عنـد البوابـة الخلفية بل كانا يجلسا القرفصاء على الرمـل مقابـل الممـر. وكـان «مايكل» يشعر بنظراتهما تتبعه عند مروره ولكـنهما لم يقتربـا منـه أبداً، ولم يقفا عند مروره.

صرخ بهما بعض المرات وضرب برجليه أحياناً لكنه ارتدَّ عن ضربهما فهـو لا يريـد لمسهما. وذات مـرة أرسـل الـصبي«جـان»

الذي يعمل في الحديقة لمطاردتهما، لكن «جان» الذي يشارك «دورا» آراءها عن الزنوج عاد وهو يتمتم غاضباً بشكل مبهم، فذهب «مايكل» إلى الخارج ليجدهما لايزالان هناك، فتجاهلهما «مايكل» وتظاهر بعدم النظر إليهما فقد أصبح الآن يكرههما بل بدأ يفزع منهما أكثر.

ولم يدرك مدى كرهه أو فزعه من هذين الزنجيين إلا حينما أصابه الزكام والبرد ووقع طريح فراشه من أثر الحمى لبضعة أيام. في تلك الأيام لم يفارق هذان الولدان أحلامه ولا حتى أحلام يقظته، وعندما كان يحلم كان يدرك أنه في سريره، وأن الشمس مشرقة خارجاً في النهار، وأن مصباحاً داخل الممر في المنزل لا يزال مضاءً، وكان في أحلامه يضرب ويضرب هذين الولدين بأسلحة موجودة في يديه، ويهرب منهما في ممرات مليئة بالرمال بالكاد يستطيع الحركة فيها، وقد افتعل موبقات قاسية بحق الفتاة العارية الفخذين بينما شقيقها يصرخ ليخبر الشارع الفارغ عما يفعله، فضربه «مايكل» وأصابه بجرح عميق، وعند رفعه رأسه رأى مدى رعب الإصابة في رأس الولد، وكيف ظلت عينه المتبقية تحدق به دون رفة جفن.

وظن «مايكل» أنه مستيقظ، وعاد إليه هدوءه، وأن الحمى فارقته، وأنه نام عميقاً لأيام بعد ذلك الحلم الأخير والعنيف،

لكن انطباعه كان أنه قد أفاق من ذلك الحلم لتوه، فشعر بثقل اللحاف عليه فرماه جانباً، وكان المنزل هادئاً، فنزل من سريره وألقى نظرة على ساعة المطبخ. لقد كان الوقت باكراً بعد الظهر، و«دورا» و«جان» يستريحان في غرفتيهما عند الجانب الآخر من الفناء كالعادة في مثل هذا الوقت بعد الغذاء، أما في الخارج، فقد كان ضوء الشمس يسطع بلون ذهبي دون توقف فعاد إلى غرفة نومه، ووضع عليه ثيابه وانتعل خفيه فأحس ببرودة قدميه العاريتين. ودخل المطبخ ثانية بهدوء ثم إلى الفناء الخارجي، وشعر أن الشمس أمسكت به بشدة عند رقبته من الخلف مثل قبضة اليد، وكان ضوءها مشعاً إلا من الظلال الممتدة على الأرض. ففتح البوابة الخلفية، وحتماً كان يعلم مسبقاً أنهما هناك، لقد كانا ينتظران.

لم يكن بنيته الخروج من البوابة وهو بلباس النوم، فحجب عينيه من الوهج بيد وأومأ لهما باليد الأخرى، وبصمت نهض الولدان معاً وقطعا الممر، وبدا له أنهما تأخرا في الوصول، ولكن أخيراً وقفا أمامه وأيديهما متشابكة فحدق«مايكل» في وجهيهما الأسودين وحدقا به.

سألهما: «من تنتظران؟».

«ننتظرك». أجاب الصبي أولاً ثم رددت الفتاة«ننتظرك».

نقَّل «مايكل» نظره بينهما وتذكر ما فعل بهما في حلمه.

كانت أعينهما سوداء وعميقة ومن الصعب الغوص فيها. تطلع إلى الأمام وأدرك «مايكل» ما كان عليه إدراكه من قبل: فمجيئهما إليه ليس لأمل بالعطاء أو استغاثة أو تقرب، بل إنه الحقد؟ فما يشعره تجاههما كذلك هما يشعران به تجاهه، وما فعله بهما في أحلامه كذلك هما يفعلان الشيء نفسه.

كل شيء تجمع: من الشمس إلى الأعين المحدقة إلى الخوف الذي يتملكه، ليبدو أمامه في الهواء عند الممر أنه يسمع صراخاً، صوت أحدهما ينتحب وأدرك أنه يبكي، وشعر بحرارة الدموع في عينيه وأحس بقطراتها تتساقط على خديه. وبنفس ثبات قراره الذي كان لديه في أحلامه في العنف والتعذيب، أدرك ما عليه أن يفعل فأشار إليهما بالاقتراب أكثر. اقتربا ومدَّ يديه ليشعر من تحت أصابعه الشعر كالزنبركات النابضة التي لطالما نظر إليها من قبل من خلال المسافة التي تفصلهما عنه، وشعر أيضاً ببشرة وجهيهما الملساء الناعمة وبكتفيهما المستديرتين والهشتين وبأيديهما، لقد كانت أيديهما بين يديه، فقادهما إلى داخل البوابة.

أدخلهما إلى المنزل مروراً بالمطبخ ثم إلى الممر وإلى داخل غرفته حيث لم تطأها أقدامهما من قبل، فجالت أعينهما في الصور المعلقة على الحيطان وعلى اللعب المركونة أعلى الخزانة، وعلى الشراشف البيضاء غير المرتبة والبطانيات الملقاة على السرير.

وقفا إلى جانبيه، ولأول مرة منذ لقائه بهما افترَّت أن شفاههما عن ابتسامة متبلدة وقاتمة، فهو يعلم ما عليه أن يقدم لهما ليست الألعاب ولا الثياب ولا الخبز، ولكن شيئاً آخر سيقدمه لهما. أخذ وجه الفتاة وضغط شفتيه على شفتيها، متحسساً سواد ورائحة بشرتها وحركة شفتيها المترددتين بنبضة واحدة تضرب في كل لحظة شفتيه، ثم تلاشت. ثم قبَّل الصبي، عندها سمح لهما بالمغادرة، فاقتربا من بعضهما وأمسكا بأيدي بعضهما ثم حدقا به.

«ماذا تريدان الآن؟» سألهما.

وأصابه قلق خاطف ثم غادره بعد أن هزَّ الصبي رأسه ببطء. وبدأ بالرجوع إلى الوراء ساحباً أخته معه، وعند وصوله إلى الباب أدار ظهره «لمايكل» ومشيا بعيداً داخل الممر، وراقب «مايك» خروجهما مرة أخرى، ورفعا أيديهما، وكانت البنت تقلّد الصبي، بإيماءة وداع صافية ومترددة.

لم يتبعهما «مايكل» لكنه سمع دوران البوابة الخلفية وهي تفتح، وثم صوت إغلاقها، فعاد إلى سريره مرهقاً وعند استلقائه عليه تغير فجأة شعوره بالراحة والامتنان لوجود سرير يتلقاه إلى حزن عميق، عندما أدرك أنه بالفعل كان مستلقياً عليه، بل إنه لم يترك أبداً سريره.

وساء برده وتحول زكامه إلى التهاب قصبات أبقاه في سريره عدة أسابيع، ولكن بعدها لم تعد أحلامه عنيفة بل هدأت واتسعت وفرغت من الأشخاص كفراغ الممر آخر مرة سمح لهما بالخروج من المنزل، فسار حالاً إلى الممر ليرى إن كان الولدان بانتظاره.

لم يرهما أبداً بعد ذلك، بالرغم من أنه بحث عنهما في شوارع وممرات المدينة، لقد رأى مئات بل آلاف الأولاد الذين يشبهونهما، لكنه لم يجد الاثنين اللذين كان يرغب برؤيتهما.

إلى أين تتسكع أيها الرجل؟

فليكس لاغوما

من أمام متاجر بيع أسطوانات الموسيقا، كانت الأنغام تهدر عالياً، فألحان الأسطوانات المختلفة اختلطت ببعضها فلا يمكنك التمييز بين واحدة وأخرى. وقف أصحاب المحلات اليهود والهنود واليونانيون أمام أروقة مداخل محلاتهم على جانبي الشارع بانتظار الترحيب بزبائن آخر دقيقة، وكانت عربات اليد المملوءة بالفواكه والخضار لاتزال في الخارج أيضاً، بينما كان البائعون المتجولون بستراتهم البيضاء ينادون على سلعهم رافعين أوراقاً بأسعارها المخفضة عند انتهاء النهار، وعند موقف الحافلة احتشد الناس وهم يتدافعون بجهد مع الركاب المترجلين منها، وعلى طول الشارع وتحت الشرفات وعلى المداخل وحول النوافذ الزجاجية الكبيرة تتسكع زمر من ثلاثة أو أربعة أو أكثر من اليافعين، تراقب الجموع الآتية تباعاً، فيلقون النكات ويدخنون ويسخرون من الضجيج. وقرابة

نصف ميل من الضجيج والحركة أيضاً لافتات تتبعها لافتات: كوكاكولا، تنزيلات، مجوهرات، ملبوسات عصرية، إن لم تأكل هنا سنموت جوعاً نحن الاثنان، ملبوسات عصرية، نزهة عظيمة إلى جنة الوادي، حافلات مترفة، مقاه للشاي، للقهوة، للتدخين، هل جرّبت مخفوق الحليب لدينا، نادي بليارد، أسلحة روكينغهام، النصيحة هي عنواننا، بهو للملابس.

وتمش «مايكل أدونيس» على الرصيف بين سيل من الناس باسترخاء وسهولة يتهادى أمام متجر للموسيقا تنبعث منه أنغام صاخبة وحادة لأغنية تقول كلماتها: يوماً ما ستشتاقين لي يا حلوة. أنغام قادمة من الأطلنتيك ومرسلة بالسفن في أسطوانات مسطحة لتخفق منها نغمات الجاز من خلال مكبر للصوت مثبت في أعلى المدخل.

توقف خارج النافذة الزجاجية الكبيرة ونظر إلى الداخل، إلى صفوف آلات الغيتار والبانجو والمندولين وصف من قطع غيار الغرامو فون وأوتار الغيتار، بالإضافة إلى مكاوٍ كهربائية وقوابس وقيثارات وتوصيلات ودمى السليوليد القادمة من اليابان، وصور للملائكة والمسيح الذي يعلو رأسه تاج من الأشواك وقطرات دم مرسومة بأحمر للشفاه على جبينه الوردي.

خرج من المحل رجل سمين بخدّين ألمستين لامعتين ينمّان عن الصحة وقال: «أتريد شراء شيء، سيدي؟».

«كلا، يا رجل» ورمى عقب سيجارته في الشارع، حيث تدافع صبيان بأنفين ضخمين وقميصين رثين وأقدام خشنة، يتنازعان لينال واحد منهما بضعة أنفاس من السيجارة.

«مرحباً مايكي» قال أحدهما، فاستدار ليرى حطام صبي سقط بجانبه.

«هللو، جو».

كان «جو» قصير القامة ذا وجه من النوع الذي لا ينال منه العمر، يظهر تحت الوسخ المتمكن منه، كأنه شيء ثمين لكنه منسي ومهمل في محل للخردة. عيناه بنيتان كعيني كلب، ورائحته مزيج عرق وثياب لا يغيرها عند النوم وطحالب بحر، أما بنطاله فقد بلي من عند الركبتين وثنيتي ساقيه وهذه التمزقات موصولة بالدبابيس وقطع من خيطان، ولا يمكن معرفة لونه الأصلي لكثرة بقع الوسخ عليه. ويلبس فوق هذا البنطال معطفاً عتيقاً واقياً من المطر يصل حتى كاحليه، وكان كمّاه ممزقين عند الأكتفين، فيعلقه من الخلف بشرائط، ومن الأمام مثبت بدبابيس على صدريته القذرة، أما حذاؤه فكان مهترئاً لدرجةٍ لا يمكن تمييزه أو التعرف عليه.

لا أحد يعلم من هو «جو» ولا من أين أتى!! فقد ظهر هكذا في المنطقة مثل صرصار برز من لوح الأرضيات، يقضي معظم وقته متجولاً عند المرفأ يجمع أسماكاً رماها صيادو السفن وصائدو الصنارة، أو متنقلاً على شواطئ الساحل يلتقط في البطلينوس بلح البحر، فلديه شغف غريب بما يجلبه البحر.

«كيف حالك جو؟» سأله مايكي.

«أوكي مايكي».

«ماذا كنت تعمل اليوم؟».

«أتمشى عند أرصفة السفن. لقد وصلت «كاسل يورك» بعد ظهر هذا اليوم».

«نعم».

«أتحب بلح البحر، مايكي؟ سأحضر لك بعضاً منه».

«هذا جميل، جو».

«وجدت قنديل بحر عند الشاطئ البارحة - كبير - إنه كبير. كان ميتاً ورائحته كريهة».

«أحسنت بعدم إحضاره إلى المدينة. وإلا فمجلس المدينة سيطبق على رقبتك».

«سمعت أنهم سيقومون بجعل الشواطئ للبيض فقط»، قال «جو».

«نعم، قرأتها في الصحف اللعنة على أولاد الكلب».

«سيقومون بهذا كي لا يستطيع أحد الذهاب إلى أي مكان».

«لا أظن ذلك»، قال مايكي.

كانا قد وصلا إلى آخر الشارع وخارج منطقة «كوين فيكتوريا»، فسأله «مايكي»: «أتأخذ شراباً يا جو؟» بالرغم من معرفته أن «جو» لا يتعاطى الشرب.

«لا شكراً، مايكي».

«إذاً، إلى اللقاء».

«هل أكلت؟».

«حسناً... كلا.. ليس حتى الآن»، أجاب «جو» مبتسماً بحياء وتواضع، متنقلاً ببطء بحذائه المتشقق على بلاط الرصيف المتكسر.

«إذاً، هنا محل للسمك. خذ ما تشاء، قطعة من السمك مع بعض رقاقات البطاطا».

«شكراً، مايكي».

«لا بأس، إلى اللقاء، جو».

«أراك من جديد».

«لا تنسَ بلح البحر»، قال «مايكي» وهو يعلم أن «جو» سينسى في كل الأحوال.

«سأحضره»، قال جو ضاحكاً ورافعاً يده مودعاً وكأنه أحس بعدم ثقة الشاب بذاكرته، ثم أضاف بنبرة قوية ولكن ليست عنيفة،«لن أنسى. سترى أنني لن أنسى».

ومشى في الشارع يجرجر معطفه الممزق خلفه مثل راية أو علم نجا من معركة بعد أن شقه سيف أو مزقته رصاصة.

أما«مايكي» فقد توجه نحو حانة، فشاهد رجلي شرطة يتوجهان نحوه، لقد قدموا من الشارع وهما يرتديان قبعتيهما المستديرتين المسطحتين، بقميصين وبنطالين كاكيين، ومسدَّساهما الثقيلان يلمعان وهما معلقان على خصريهما، وجهاهما قاسيان وجليديان كأنهما منحوتان من جليد زهري اللون صلب، أعينهما لا رحمة فيها، تلمع بقسوة كأنها قطع من زجاج أزرق. يتجولان ببطء وتصميم جنباً إلى جنب دون تغيير مسارهما، يشقَّان طريقهما بين هذا السيل البشري على الرصيف كالسفن المدمرة في البحر.

أتيا باتجاه«مايكي»، لكنه استدار جانباً بغية تجنبهما، لكنهما أحاطا به بمناورة سهلة وأطبقا عليه قبل محاولته الهرب.

«إلى أين تتسكع أيها الرجل؟» أتى الصوت قوياً ومحدداً كفرقعة زنبرك حديدي، صاحب الصوت له شفتان رقيقتان وثابتتان ومشققتان وما تحتهما وفوقهما شعر بلون أشقر باهت.

أما عظام وجنتيه فقد كانت عاليه ومنبسطة، ويميل لونها إلى الأبيض الزهري مع جفون حمراء ذهبية ورموش باهتة، أما ذقنه فمالت إلى الطول مع فلقة في وسطها وبداية تشكل حبوب في أحد جانبيها ليظهر احمرارها على البشرة الباهتة.

«ذاهب إلى البيت»، أجاب«مايكي» وهو ينظر إلى البكلة الذهبية لحزام الشرطي، فمن خبرته السابقة تعَلم أن ينظر فقط إلى أية بقعة من بذلتهم، كأزرار جيوبهم أو أحزمة مسدساتهم«سام براون» اللامعة الملساء، ولكن عليه أن لا يحدق أبداً في أعينهم إذ يؤخذ على أنه تحدٍّ لهم، فقط الأكثر شجاعة أو الأكثر غباء يجرؤ على النظر مباشرة في عيون أصحاب النظام كتحدّ لهم أو الشك في سلطتهم.

أما الشرطي الثاني فقد غرز إبهامه في حزام مسدسه وابتسم ابتسامة شاحبة ومتشامخة. كانت كفاه متدليتين على جلد حزام عريض أبيض، وعروق يديه تحت الجلد المغطى بحقل من الشعر المائل الدقيق بلون بني، كانت زرقاء. أما أصابع يديه فهي ثخينة ومفاصلها كبيرة متغضنة تميل إلى اللون الزهري، وأظافر لامعة تدل على صحة واعتناء بها.

سأله هذا الشرطي بصوت قاس وخبيث:«أين تخبئ دكا[1]؟».

---

(١) قنّب هندي كالحشيش.

«أنا لا أدخنها».

«أيها الشاب، أفرغ جيوبك»، أمره الشرطي الأول.

«بسرعة».

فبدأ«مايكي» بإفراغ جيوبه ببطء دون النظر إليهما. وعند كل حركة يقول لهما بداخله (أنتم أيها البويرز القذرون)[1].

تمهل بعض الأشخاص للفرجة ولكنهم أسرعوا بالمشي عندما رمقهم الشرطي بعينيه الزرقاوين العدوانيتين. أخرج لهما «مايكي» علبة السجائر المفتتة والمستهلكة جزئياً، وبقايا نقود من أجرته، بالإضافة إلى محرمة متسخة وقطعة علكة قديمة مكسوة بزغب جيبه الرمادي.

«من أين سرقت النقود؟» ولم يكن السؤال للمزاح بل جدياً إلى حد بعيد، وكان صوت الشرطي قاسياً مثل سطح مغلف.

«لم أسرقه، سيدي (أنتم أيها البويرز اللعناء)».

«حسناً، انقلع مثل روث البقر من الشارع، ولا تدعنا نراك تتجول هنا، هل سمعت؟».

«نعم، (أيها البويرز اللعناء)».

«نعم ماذا، مع من تحسب أنك تتكلم يا رجل؟».

---

(١) البوير (Boer) شخص جنوب أفريقي من أصل هولندي.

«نعم، سيدي، (أنتم أيها البويرز اللعناء، اللعنة على مسدساتكم، واللعنة على رؤوسكم الحمراء الحقيرة)».

ثم اندفعا وتجاوزاه بعد أن كشط أحد الشرطيين «مايكي» من كوع يده واستأنفا تجوالهما. فأعاد «مايكي» أغراضه إلى جيبه، وملأه شعور بالغضب والإحباط والأذى ليزداد حتى يتدفق من كل هذا غليان ممض مصحوب بالألم[1].

(١) الظلم نتيجة التمييز العنصري والطبقي، واضح في هذه الأقصوصة.

أرض الجنــازة

هيرمان تشارلز بوسمان

في ذلك الوقـت كانـت لـدينا مهمـة صعبة (قـال آوم شـالك تورنس) عند قيامنا بتدريس«سيجيفو» مـن قبيلـة«متوسـاس» بغية جعلهم حضاريين لكنهم لم يظهروا أي تقدير حتى بعد أن أشـعلنا النـيران في صـفوف أكـواخهم حـول منحـدرات «إبجاتيرسكوب»، حتى أمكن رؤية الـدخان مـن«نيتفر دينـك»، ومع هذا ظلت قبيلة«متوساس» غير متنوّرة كما كانت من قبل. فكانوا ينسحبون إلى الجبال، لذا كـان مـن المستحيل عـلى فرقنـا العسكرية اللحاق بهم على ظهور الخيل، إذ يظلون مختبئين هناك في الأجمات الكثيفة.

«لدي إحساس بأن هـؤلاء«الكـافيرز» حولنـا، قـال«فيلـد - كورنيت أندرياس جوبرت» لزمرة من المستوطنين البيض بعـد أن توقفنـا في أرض مقطوعـة الـشجر بـين أشـجار«ويثـاكس»

الطويلـة.«لقـد سـبق وكنـت في العديـد مـن الحـروب ضـد «الكافيرز» لذا أستطيع أن أشم رائحة هؤلاء وهم بانتظارنا مع رماحهم الطويلة، لكـن خـلال نهـار كامـل لـن تـرى«متراسـه» واحداً لتطلق عليه رصاصة».

ثم أردف قائلاً:«إذا بقينا على هذه الحال مدة أطول فسننسى جميعنا الإمساك ببندقية، ماذا سنفعل عندها عندما يكـون علينـا أن نحارب إنكلترا؟».

كان«فاني لوي» الشاب يحب إلقاء النكات، فألقى رأسـه إلى الخلف متظاهراً باستنشاق الهـواء، وقـال:«أمـا أنـا فأسـتطيع أن أشم رائحة الرماح الطويلة بأنصال عريـضة ومقـابض قـصيرة، فالرماح التي تطعن رائحتها أقوى مـن الرمـاح التـي لا تطعـن، وهي تشبه رائحة الأماكن المجاورة للمقابر».

لكـن«فيلـد - كورنـت» لم يجـد تعليـق«فـاني لـوي» مـضحكاً، وأضاف: إن الكل يعلم أن«فاني لوي» يلتحق لأول مـرة بالفرقـة العسكرية. وقال أيضاً: إذا قفـزت علينـا فجـأة مجموعـة مـن قبائـل «متوساس» من خلف الأدغال فلن نستطيع أن نشم رائحـة«فـاني لوي» بسبب الغبار الذي عليه. وقـال أشـياء أخـرى كانـت أفـضل من ذلك.

فـضحكت مجموعـة المـستوطنين البـيض مـن أعـماق قلوبهـا، ولكن«فيلد -كورنت جوبرت» لم يستطع في تلك اللحظة قـول

تفاهات أكثر من ذلك كما يستطيع «فاني لوي»، ولكن عند إعطائه فرصة لكي يعلق أولاً فربما سيصدر عنه كما سبق ملاحظات ستعجب المجموعة.

وبالفعل سيتبين لنا مدى نفاذ بصيرة «فيلد - كورنت» عند قوله هذا وبعد أن يفكر ملياً:

«أيها الرجال، لنخرج من هنا بسرعة نارية». قالها بوضوح «ربما هؤلاء الكافيرز يختبئون في الأراضي العشبية المكشوفة حيث لا توجد أشجار ولا عشب طويل».

وعند خروجنا من الأدغال الواسعة سررنا لكون «فيلد - كورنت» كان على حق، وهو كذلك دائماً.

ولقد اكتشفت مجموعة أخرى من المستوطنين هذا التكتيك كما فعلنا نحن.

«لقد كنا في وسط الأجمة» قال لنا قائدهم «كومبرينك» بعد أن تبادلنا التحيات «وفي الجزء الأكثر كثافة منها حيث الأشجار تقف كهياكل عظمية، وفجأة خطر لنا أن قبائل «متوساس» ربما اختبأت خارجاً في المنطقة المكشوفة».

وشعرنا بسرور «فيلد - كورنت جوبرت» إ أنه ودون مساعدة أحد اكتشف خطة الكافيرز مثلما اكتشفها «كومبرينك» المشهور ببراعته في محاربتهم، وعلى ما يبدو ستكون حرباً طويلة الأمد.

وكما الحال دائماً، فقد تكلم«فاني لوي» من غير مناسبة، فقال: إننا بحاجة الآن لوصول القائد إلى وسط الأراضي العشبية ومعه الجزء الرئيسي من المستوطنين،«ربما علينا العودة إلى بريتوريا لنرى إن كان المتوساس يختبئون في فولكراد ليفرضوا القوانين وأشياء أخرى كما تعلم وقاحة هؤلاء المتوساس».

بفظاظة أجاب«كومبرينك»«لن تكون أسوأ من القوانين التي يفرضها الآن الفولكراد»، ومن كلامه هذا يظهر لنا سبب عدم تعيينه قائداً عاماً إذ إنه لم يصوِّت للرئيس في الانتخابات الأخيرة.

في هذه الأثناء أصبحت الشمس فوق إحدى التلال في الأفق على علو قدمين لذا بدأنا نفتش عن مكان للتخييم. لقد كانت المروج طينية فلم يكن بالإمكان تدليل أنفسنا والنوم في الأدغال، هكذا قال الجميع. الآن وقت حرب ونحن في مهمة عسكرية، والطين في التربة لن يضرنا.

لكن حينذاك حصل شيء غير اعتيادي.

فجأة رأينا«المتوساس» لقد رأيناهم من مسافة بعيدة، يأتون من الأماكن المليئة بالأشجار إلى العراء ولم يحاولوا الاختباء، ولدهشتنا كانوا يسيرون مباشرة باتجاهنا ويتقدمون في مجموعة

واحدة. كما لاحظنا من تلك المسافة أنهم عزل يحملون أثقالاً فوق رؤوسهم بدلاً من حرابهم الطويلة والتروس، وأدركنا بعد تمعُّن في تلك الأثقال أن من يحملها نساء.

أمسكنا ببنادقنا ووقفنا منتظرين، وبما أنهم نساء فمن الطبيعي أن يكون استعدادنا في أدنى مستوياته تحسباً لأي غدر. وأثناء اقترابهن رأينا عجوزاً من السكان الأصليين نعرفه حقَّ المعرفة إنه «ندامبي»، لقد كان رئيس مستشاري«سيجيفيو» لسنين عديدة، فأشار«ندامبي» بيده عالياً فتوقفت النساء ثم تكلم بصوت عال وقال: إن الرجال البيض هم ملوك وسط الملوك وفيلة وسط الفيلة. وأردف: إننا أفاعٍ أكثر سماً لذا نثير اشمئزازاً أكثر من أية أفعى أخرى في البلاد.

ونحن طبعاً كنا على دراية أن«ندامبي» يمدحنا على طريقة «متوساس» الغبية، ومن الطبيعي أن يسرّنا هذا كثيراً فلا أزال أتذكر كيف أن«جوري بيكر» وكزني في أضلاعي قائلاً:«هل سمعت هذا؟».

وعندما أكمل«ندامبي» قائلاً إننا أقذر من لعاب ضفدع الشجرة الأخضر زاد تململ المستوطنين البيض، وشعروا أن هذه المجاملات القبلية زادت عن حدها. فانسلت إصبع «فيلد - كورنت جوبرت» داخل واقي بندقيته وطلب من

«نـدامبي» الاقـتراب. ومـن تعـابير قائـدنا تعلـم أن هـذا المديح يكفي لهذا اليوم.

لقد أتوا عارضين السلام، هكذا أخبرنا«ندامبي».

أما ما كانت النساء يحملنه فوق رؤوسهن فقد كانت الهدايا.

وبإشـارة مـن«نـدامبي» ركعـت جميـع النسـاء عـلى الأرض الموحلة. لقد أحضرن معهنَّ جلود الأسود وحمير الزرد وأنياب الفيلة، والخرز وأساور نحاسية، وكـذلك وعـلى حصير عـشبي فخذ ثور أحمر أفريقي بكامله مـن جلـده إلى حـوافره، بالإضـافة إلى عدة خنازير مقطّعة إلى جزأين. ومعهم قدور طينية مليئـة إلى الحافة ببيرة بيضاء اللون وأكثر شيء في الهدايا ثمّناه عاليـاً أدويـة طبية للسحرة تحمينـا خـلال الليـل مـن أرواح الغـول والعيـون الشريرة، ثم أعطى«ندامبي» إشارة أخرى لامرأة تجثو وتحمـل على رأسها قدراً فخارياً فنهضت وتقدمت باتجاهنا. ما رأيناه في القدر كان عبارة عن تـراب أسـود رطـب يـشبه الـتراب المملـوء بالأعـشاب والجـذور، ولم نفهـم سـبب إحـضار هـذا الـشيء لنـا وكأنه ليس لدينا منه مـا يكفـي، فهـو تحـت أقـدامنا حيث نقـف ويلتصق بنا جميعاً، ومع هذا فقد كانـت تـصرفاتهم تـنمّ عـلى أنـه الأغلى والأثمن ضمن كل هـداياهم التـي أرسـلها لنـا زعـيمهم «سيجيفو».

لم نكـن نعلـم مـدى جهلـه وجهـل زعيمـه وكـل قبيلـة «متوساس» إلا حين تكلم ثانيـة، إذ أخـذ بيـده حفنـة تـراب مـن القـدر وضـغطها بـين أصـابعه ثـم أخبرنـا بمـدى فخـر قبيلـة «متوساس» لأننا نـشنَّ حرباً عليهم، ففـي الـسابق كـانوا فقـط يحـاربون قبائـل ذوي وجـوه مـسطحة بعـصي شـوكية، أمـا الآن فالوضع مختلف. فتقدّم قائدنا«فيلد - كورت» خطوة إلى الأمام حتى لا يبدأ«ندامبي» من جديد تملقه وإطراءنا، فقال«ندامبي» إن«المتوسـاس» سـيكونون مـسرورين لقيامنـا بحـرب ضـدهم ولكـن في وقـت آخـر بعـد أن يجمعـوا محـصولهم؟ ففـي الوقـت الحاضر لا ترغب القبيلة في إكمال الحرب!!

إنه وقت الحصاد.

ثـم رمـى«نـدامبي» الـتراب مـن بـين أصـابعه ليرينـا مـدى خصبه، ودعانا أيضاً لتذوقه. طبعاً رفضنا.

فقبلنا الهدايا وعُقِد السلام، ولكنني لازلت أتذكر كيـف هـز «فيلد - كورنت جوبرت» رأسه قـائلاً:«أتـستطيع التغلـب عـلى جهل المتوساس؟».

وتذكرت أيضاً مـا قالـه«جـوري بيكـر» عنـدما قـام بفحـص فخذ اللحم عن قرب ووجد عليه علامة«الوشم» الخاصة به.

ولم يطل الوقت حتى قامت الحـرب ضـد إنكلـترا، وفي نهايـة السنة الثانية منها كانت قوات«البويرز» في أسوأ حالها، لكننـا لم

نعقد سلاماً وبهذا الوقت ترقى«فيلد - كورنت جوبرت» ليصبح قائداً عاماً أما«كومبرينك» فقد لاقى حتفه في معركة، أما«جوري بيكر» فلا يزال معنا، وكذلك«فان لوي»، وكم كان غريباً تعلقنا به خلال السنوات الشديدة والقاسية التي مرت علينا في المعارك، ولكن علينا أن نسلم بأنه وإن كنا قد اعتدنا على نكاته، ولعلمنا أنها لا تسبب الأذى، فقد كنا نتمنى أن يتوقف عن إلقائها.

وبالفعل فقد توقف وإلى غير رجعة حين قتل خلال مناوشات قرب مجمع سكني، فدفناه تحت ظلال شجرة شوكية، وعند استعدادنا لملء حفرة دفنه وبعد إلقاء القائد بضع كلمات ورفعنا لأغطية رؤوسنا لإنشاد ترنيمة، وكما هي العادة أثناء مراسم الدفن يأخذ كل شخص يحضر حفنة من التراب ويرميها في المدفن.

انحنى القائد«جوبرت» والتقط حفنة من التراب، وحدث شيء غريب إذ تذكرنا الحرب ضد«متوساس» - وبالرغم من أن أحداً منا لم يقلها - ولكننا نعلم ما تتوق إليه قلوبنا الآن. فالقائد«جوبرت» لم يرمِ التراب الرطب مباشرة إلى مدفن «فاني» بل عجنه بين أصابعه كما لو أنه نسي أنها أرض للدفن وأنه لم يعد يفكر بالموت بل بالحياة، فحذونا حذوه بالتقاط

التراب وضغطه معاً، وقد تحسسناه ملياً لنكتشف مدى خصبه ثم تركناه يجري رقيقاً من بين أصابعنا. إنه وقت الحصاد.

عندها فهمت كيف أن«متوساس» في حربنا السابقة معهم أحسوا بأنهم ليسوا فقط محاربين بل أيضاً كانوا مزارعين[1].

---

(١) قصة تدل على صلة العرقية بتحييد العقل عند السود.

سبونونو[1]

آلان باتون

في هذا اليوم تلقيت رسالة من سبونونو مليئة بالتأنيب. ويسألني لماذا لم أجب عن رسالته السابقة، فكتب لي: «ألست أنت إذاً مثل بقية الناس حين يخطئ وأحدهم تعامله بقسوة؟ كنت أراك دائماً جديراً بالثقة، ولكنني الآن أخجل منك أمام أصدقائي». ثم يسأل: «لماذا انقلبت؟ كنت دائماً رجلاً عند كلمتك، لكنك الآن تغيرت». ثم يختم ليقول إن تغيري «عجيب».

وشعرت أن عليَّ الدفاع بطريقة ما ضد هذا الاتهام الذي يطرح الشك في رفعة أخلاقي، والتي أنا متأكد من اعتدالها

(١) قصة الخلاف الحضاري بين مفهوم إدارة المؤسسة، وفهمها عند «سبونونو» كزعامة قبلية عشائرية وباختلاف قيم كل منهما بين النظم المؤسساتية والنظم - التقاليد - العشائرية.

ولطفها، ومن غير المرجح ما إذا كان أصدقاؤه سيقرؤون هذا، سيحجمون عن إعطاء أحكام قاسية بهذا الشأن، ولكن على الأقل سيعطيني فرصة لوصف وضاعة الخطاب في توقع سلوكي تجاهه ليتخطى درجة فوق البشر بسلوكه تجاهي، فكيف له أن يستنبط هكذا مفاهيم نبيلة عن السلوك؟ هذا ما لا أعلمه لأنه بالتأكيد لا يمارسها ومع ذلك فهو يعرفها، في حين أنه يعتبر نفسه أضعف من أن يمارسها، ويتوقع مني أن أقوم بها، فلم يقصر أبداً في تأنيبي عندما قصّرت في القيام بها.

ومع ذلك فقد مارسها في مناسبة غير متوقعة بكل نبل وسهولة حتى لتكاد تعطى لقديس كشرف رفعة.

لقد كان«سبونونو» صبياً في السادسة عشرة من عمره عند أول دخوله إلى الإصلاحية، وأول لقاء لي معه كان حتماً استثنائياً. فقد طلب رؤية المدير لغرض عاجل وخاص؛ وعليه، فقد أحضره لي المشرف العام السيد فان دايك.

«حسناً يا سبونونو»، قلت له،«سمعت أنك تريد رؤيتي».

«نعم، سيدي». أجاب.

فسألته«ما مشكلتك؟».

فقال:«ليس لدي مشكلة، لقد جئت لرؤيتك لأجل مشكلة جوهانز موفوكينغ».

«هل أنت صديقه؟» سألته.

«أنـا لـست صـديقه»، قـال،«ولكنني سـمعت عـن قـضيته، ولأجل هذا رغبت التحدث إليك».

وقد كـان الـسيد«فـان دايـك» منزعجاً كـل الوقـت، فهنـاك قاعدة سائدة لكل من يريد رؤيتي من الأولاد بأن عليه أولاً أن يعرض قـصته بوضـوح للمـشرف العـام، إلا أن القـضية كانـت سرية وخاصة. لذلك طلبت من السيد فـان دايـك الاسـترخاء، وقلت لسبونونو:«ماذا بشأن جوهانز موفوكينغ»؟

فقال:«حسناً، نحـن جميعـاً نعلـم أن جوهـانز موفوكينـغ هـرب مـن الإصـلاحية، وعنـد القـبض عليـه وإعادتـه إلى هنـا كانـت بحوزته ساعة من الذهب».

فقلت،«نعم هذا صحيح».

«يعتقد بعضنا» قال سبونونو»«أنكـم كنـتم قـساة، فجوهـانز قد اعترف أنه سرق الساعة ولم يكذب بـشأنها، وهـذا مـا يجعلنـا نعتقد أنه ليس شاباً سيئاً، وهو لا يرغب في الدخول إلى السجن لكنه مستعد للعمل الإضافي في الإصلاحية للتكفير عما قام به».

«هذا عمل جيد من جانبه». أجبت.

«سيدي»؛ قال فان دايك«ليس لدي أدنى فكرة..».

«لا تزعج نفسك» قلت له ووجهت الحديث إلى سبونونو.

«سبونونو، عليك أن تعلم أنه ليس باستطاعتي إخفاء سرقة الساعة عن الشرطة. بالإضافة..».

«سيدي»، قال سبونونو«نحن لا نريد..».

فقال السيد فان دايك:«اسمح لي، سيدي، سبونونو يجب أن لا تقاطع المدير عندما يتكلم. هذا ليس لائقاً».

فأجاب سبونونو بتواضع:«أطلب الصفح؛ لم أقصد أن أقاطع المدير».

فقلت له:«تابع».

«سيدي»، قال سبونونو«نحن لا نطلب منك إخفاء سرقة الساعة عن الشرطة».

فقلت له«هذا شيء جيد منك».

«سيدي» أكمل متجاهلاً مقاطعتي له:«نحن نرضى بتقديمه للمحاكمة. لكن كل ما نطلبه منك أن تسأل المحكمة إعادته إلى الإصلاحية. وإلا سيكبر ليصبح شخصاً سيئاً، ونحن متأكدون أنك لا ترغب بحدوث هذا».

فقلت له:«إنه يتقدم في السن، فهو الآن يقترب من العشرين».

«نعم، أنا أعترف أنه بقرابة العشرين»، قال سبونونو«ولكنه ليس صبياً سيئاً. لكنني أخاف إن دخل السجن أن يصبح قابلاً للتحول».

فقلت«الإصلاحية مليئة بـالأولاد، ولـدينا أكثر مـن ستمئة صبي حتى الآن، وقد بنيت الإصلاحية لأربعمئة فقط».

«غرفتي ليست مليئة، يستطيع أن ينام فيها». قال سبونونو.

«هذا شيء جيد منك»، قلت له هذه الملاحظة للمرة الثالثة، ولكنه لم ينتبه للتهكم ولو قليلاً كما من قبل.

فقـال:«أعتقـد أنَّ مـن الخطـأ إرسـال جوهـانز إلى الـسجن». وأردف:«لقـد كـذبت عـلى المـشرف العـام عنـدما أخبرتـه أنهـا مـسألة شخـصية، لأننـي أعلـم أني بحـال أخبرتـه الحقيقـة فلـن يسمح لي برؤيتك».

سألته:«ألا تعتقد أن الكذب خطأ؟».

فأجاب:«ليس إذا كان لإنقاذ شخص».

«سيد فان دايك» قلت«أحضرْ جوهانز إليَّ».

وحـضر جوهـانز فقلـت لـه«جوهـانز أفهـم بأنـك مـستعد للمثول أمام المحكمة، وتطلب الصفح عن سرقة الـساعة حتـى تستطيع العودة ثانية إلى الإصلاحية».

«هذا صحيح، سيدي».

فقلـت لـه:«ولكنـك سـتبلغ العـشرين، وإذا لم تتوقـف عـن السرقة إلى الآن فما الجدوى من تعليمك هذا ثانية؟».

«أنا أتعلم»، أجاب،«ولكن ليس بالقدر الكافي إذا عدت إلى هنا فسأتعلم هذا نهائياً. أما إذا دخلت السجن فسأتعلم السرقة أكثر من قبل».

«بهذه الحال»، قلت له،«سأطلب من المحكمة إرسالك إلى هنا».

«شكراً، سيدي». أجاب.

«لا تشكرني، قلت له،«اشكر سبونونو، هو الذي تكلم من أجلك».

فالتفت جوهانز إلى سبونونو وقال:«شكراً».

«لا تشكرني»، قال سبونونو،«بل اشكر المدير فلولاه لا أستطيع القيام بشيء».

لم يمضِ شهر بعدها حتى طلب سبونونو رؤيتي من جديد، فسألت السيد فان دايك:«هل هي مسألة شخصية أكثر من تلك؟» فابتسم السيد فان دايك بطريقة تنم عن اللوم، وقال: «سبونونو يريد العمل في حديقتك».

فأجبته«إنَّ وليم يعمل في الحديقة».

فقال سبونونو«حديقتك غير معتنى بها جيداً، إن وليم زميل جيد، لكنه لا يعرف العمل بالحدائق».

فسألته: «وماذا عليَّ القول لوليم؟ أأقول له إنك لا توافق على عمله في الحديقة وإنك نصَّبت نفسك مكانه؟».

«أنا لا أقول هذا»، أجاب سبونونو، «سأعمل تحت إشرافه حتى إطلاق سراحه، وسيكون هذا قريباً».

سألته: «كيف تعلم هذا؟».

قال: «هو أخبرني بذلك».

فسألته: «هل قمتما بترتيب الأمر معاً؟» وعندما لم يجب سألته من جديد: «هل عليَّ أن أخبر وليم أنه لا يفهم بعمل الحديقة؟».

فأجاب: «هذه ستكون مشكلة، دعني أعمل تحت إشرافه».

وللحق فإن سبونونو لم يبرهن على أنه مساعد جيد. فقد تذمّر وليم حين أتى وأخبرني أن سبونونو لا يقوم بما يطلب إليه بينما قدَّم سبونونو كلَّ تذمر من وليم على أنه غير كفء وكسول ومخادع، فاضطررت إلى فصل الحديقة إلى قسمين، وعليَّ الاعتراف بأن سبونونو برهن عن أنه بستاني ممتاز، ولكن الخلاف لم ينته بينهما إلا حين إطلاق سراح وليم ليصبح سبونونو هو المسؤول، لكنه بعدها أصبح يشكو من المساعد الجديد، وهو شاب خنوع يدعى جورج وقد جرت الأمور بهدوء إلى أن حلَّ يوم عيد الميلاد.

لقد كان عيد الميلاد يوماً مميزاً في الإصلاحية تقدم فيه مأكولات خاصة، وتقام أنشطة رياضية تقدم فيها الجوائز وهدايا من الحلويات للصبية الصغار ودخان للأكبر سناً، أما أنا فقد كنت متشوقاً للعودة إلى المنزل بعد يوم حار ونهار عمل شاق، إلى عائلتي وإلى الاسترخاء الممتع، وبالكاد جلست مع ضيوفنا عندما رنَّ جرس الهاتف لاستدعائي إلى المكتب حيث كان هناك السيد فان دايك المنزعج ليقدمني إلى السيد أندرسون الذي كان شديد الاهتياج، وبدوره أخبرني القصة المزعجة التالية.

لقد وضَّب السيد أندرسون وزوجته سلة للنزهة ذلك الصباح وقدما إلى بقعة ظليلة في الجزء الشرقي من مزرعة الإصلاحية حيث تمتعا بوليمة الميلاد مع بيرة مثلجة، وبعدها تمددا على العشب لأخذ قيلولة ممتعة أيضاً، لكن قيلولتهما هذه لم تكن على الإطلاق ممتعة فقد أفاقا بطريقة فظة من صبي مطابق لباسه لبذلات الإصلاحية من قميص وبنطال قصير كاكي اللون، يهددهما بحجر كبير، ثم انتزع حقيبة السيدة أندرسون من على العشب وهرب إلى داخل أشجار كثيفة، كان في الحقيبة خمسة وستون جنيهاً، اثنتا عشر وحدة نقدية كل واحدة منها خمسة جنيهات: إنه راتب شهر كامل، لقد كان مؤلماً رؤية أسى السيد والسيدة أندرسون.

«أعلم أنه كان عليَّ أخذ إذن»، قال السيد أندرسون،«لكننا لم نر أحداً، وكانت بقعة رائعة للنزهة، هذا ما فكرنا به على الأقل قبل هذا الحدث البغيض».

فقلت له:«إن كان أحد فعلها من صبيتنا فهناك أمل بالعثور عليه فمعظم الصبية كانوا في الملعب ومن الطبيعي أن نعرف بدقة مكان وجود كل واحد منهم، وبالأخص في مناسبة كهذه.«هل وجدت كل شيء على مايرام سيد فان دايك؟».

«نعم سيدي، كل شيء صحيح، فقط الصبية الذين يخدمون لم يكونوا في الألعاب، ولكن، سيدي، عليك أن تستمع لما سيرويه السيد وسيلز».

حضر السيد وسيلز وروى أنه كان وقت خدمته في المزرعة، وحينما كان يتفقد المنطقة المرتفعة من المزرعة رأى سبونونو يمشي بين الأشجار، وسيد وسيلز كان على علم أن سبونونو يعمل لديَّ ومع هذا سأله عن وجهته؟ فأجابه بأنني أذنت له بالتجوال في المزرعة، فعرضنا على السيد والسيدة أندرسون صوراً فوتوغرافية لعدد من الخدم ومنهم سبونونو لكنهم لم يتمكنوا من التعرف على الصبي الذي هددهم.

«أحضر سبونونو إلى هنا من فضلك»، قلت للسيد فان دايك،«وأرجو من السيد والسيدة أندرسون والسيد وسيلز الانسحاب إلى مكتب آخر».

«هذا هو الحجر الذي كان يحمله الصبي». قال السيد فان دايك،«أرجو تركه على الطاولة». قلت له.

عند دخول سبونونو التفت مباشرة إلى الحجر، ولكن فيما بعد حوّل نظره بعيداً، وقد تعمد ذلك.

«إلى أين ذهبت بعد الظهر، سبونونو؟» سألته.

«كنت عند الألعاب». أجاب.

«هل مكثت هناك كل الوقت؟» سألته.

«الرئيس يعلم أنني لا أحب الألعاب، فبعد فترة خرجت لأتمشى». أجاب.

«أين كنت تتمشى؟».

فأغلق عينيه وكأنه يتذكر بعمق.

«قرب الإسطبلات ثم إلى الحقول ومن ثم عدت إلى غرفة المضخة ومنها إلى المنزل، سيدي».

«هل رأيت أحداً؟».

«لم أرَ أحداً، سيدي».

عندها دخل السيد وسيلزف نظر إليه سبونونو بحذر.

«السيد وسيلز رآك عند الطرف النهائي للمزرعة وسألك إلى أين تتجه، أليس كذلك؟» قلت له.

«هذا صحيح، سيدي».

«لكنك قلت بأنك لم ترَ أحداً».

«ليس بقرب الإسطبلات»، أجاب،«لكني رأيت سيد وسيلز في نهاية المزرعة عند المرتفع».

وسألته،«هل رأيت أحداً آخر؟» فكَّر بعناية قبل أن يجيب.

«لا أحد غيره».

فسألته:«لماذا أخبرت سيد وسيلز أنك أخذت إذناً مني لتتمشى؟».

«لم أقل هذا الضبط، ربما سيد وسيلز لم يسمعني بشكل واضح، إذ لا أتكلم لغته جيداً، لقد أخبرته أنني كنت أبحث عن شيء ما للرئيس».

«تبحث عن ماذا؟» سألته بصرامة.

فأعاد نظره دون إرادة منه إلى الحجر فوق الطاولة.

«أحجار». أجاب.

ولأجل ماذا؟» سألته.

«من أجل حديقتك، سيدي».

«لم أسألك إحضار أحجار للحديقة». قلت له.

«أريدها لأجل حائط كنت سأخبرك عنه غداً».

ثم أشرت إلى الحجر وسألته: «أهذا واحد من الأحجار التي وجدتها؟».

فلم يجب، فالأسئلة بدأت تتسارع، ووجد صعوبة في الحكم على أي سؤال أقل خطورة للإجابة عنه، وأصبح تنفسه ثقيلاً ولم يستطع إخفاء ضيقه.

«لماذا لا تجيب؟» سألته.

«أنت تخيفني، سيدي». محتجاً.

«أنا فقط أسألك». قلت.

فقال: «لا أرى أنك غاضب، وكأن شيئاً حدث وأحدهم يريد لومي عليه».

فسألته: «ماذا حدث؟».

«شيء سيّئ». ولم يتفوه بعدها بكلمة، وبدأ العَرَق يتساقط من وجهه.

«اتركنا سيد وسيلز». وجلست على طاولتي ولم أنظر إلى سبونونو، وقلت: «لقد أنقذت الصبي جوهانز من السجن، لأنك أنت قلت لي إنني مخطئ، أليس كذلك؟».

نعم، سيدي».

«والآن جاء دورك لتنقذ نفسك من الخطأ»، وقلت له: «لن تكذب عليَّ، أليس كذلك؟».

وبصوت منخفض أجاب:«لا، سيدي».

«لقد تمشيت إلى المرتفع في نهاية المزرعة؟.

«نعم، سيدي».

كنت لا تنوي عمل الشر، فقط كنت تفكر في أحجار حديقتي، ولم ترغب في إيذاء أحد».

«كلا، سيدي».

قلت له:«ولكن إغراء كبيراً وُضِع في طريقك، وقبل أن تستطيع جمع قواك قمت بعمل سيئ».

فصمت، وإذا كان من صمت أبلغ للإقرار فقد كان صمته، فقلت له:«لكنك الآن نادم لما قمت به وتحب أن تصلح الأمر».

وبصوت منخفض أجاب:«نعم، سيدي».

فوقفت وقلت له«دعنا نذهب ونحضر المال، سيفرح هذان الشخصان بعد أن يئسا من متعة العيد».

فخرجنا وركبنا السيارة حيث قادني مباشرة إلى المال، كل الستون جنيهاً كلّها، ففرح آل أندرسون فوق الوصف وأصرَّ الزوج مع إعطائي عشرة جنيهات، وعندما رفضت أراد إعطاءها إلى السيد وسيلز الذي بدوره طبعاً رفضها، عندها وضعها على الطاولة، فقلت له: سأرسلها إلى جمعيات خيرية.

فقال السيد أندرسون وشعوره يفيض بالراحة والإقرار بالعرفان: «كأن تعطيها للصبي».

فأجبت بجفاء: «لكن الخوف من عواقب فعلته فستكون مختلفة».

ولقد كانت بالفعل عاقبة فعلة سبونونو خطرة!! لقد أضاع فعلياً من جديد مدته في الإصلاحية، ولم أبلغ جريمته للشرطة إذ إن جرائم الإصلاحيات عدا الخطرة منها تقع ضمن صلاحياتي. لكن سبونونو حاول تغيير قراري فقال لي: «لو أنني هربت وأنفقت كل المال فما كنت لتعاقبني بقسوة أكثر من ذلك».

فأقررت له بهذا، عندها قال لي: «سيدي، ماذا تريد أكثر من ذلك، لقد كشفت لك عن موضع المال المخبأ».

فقلت له: «أنا لست قاضياً، ووظيفتي أن أعلمك تحسين سلوكك ولم أنجح، ولهذا علينا أن نبدأ من جديد».

فلم يجد جواباً لهذا الرأي، فقال لي: «سيدي، أطلب منك شيئاً واحداً».

«ما هو؟».

«أطلب منك، سيدي، بحال أحسنت التصرف وحصلت على حريتي من جديد أن تسمح لي بالعمل ثانية في حديقتك؟».

«سأوافق على هذا». قلت له.

فسأل: «أهذا وعد؟».

فنظرت إلى السيد فان دايك ورأيته مصدوماً، ولتهدئته ابتسمت له وقلت لسبونونو «إنه وعد».

فنظر سبونونو إلى السيد فان دايك ليصدمه أكثر بقوله: «إنني راض بهذا».

بعد مضي أسبوعين اشتبك سبونونو في عراك مع أحد أقرانه وتلقى جرحاً عميقاً فوق إحدى عينيه، وأخبرني الطبيب أنّ نظر عينه المجروحة سيضعف، بل أكثر من ذلك، فبعد شفاء الجرح لن يكون منظر عينه جميلاً.

وقمنا بالتحرِّيات بشأن هذه الحادثة واستنتجنا أن سبونونو وخصمه «تيمبو» كانا مذنبين بالتساوي، ولكن كان من الصعب تحديد كيفية التعامل مع تيمبو، فأثناء العراك لا نعلم من ضرب الكف الأول، إذ فجأة سحب تيمبو حزامه الثقيل وضرب سبونونو مباشرة في وجهه.

سألت تيمبو: «ماذا تقول في هذا؟ إن ما قمت به انتهاك خطير.؟».

فقال: «أعلم ذلك، سيدي، ولهذا طلبت الإذن وذهبت إلى المستشفى لآخذ العفو من سبونونو».

فسألت سبونونو«هل سامحته؟» فنظر إليَّ سبونونو من تحت ضماده وقال:«نعم سامحته، فهو لم يقصد أن يؤذي عيني، لربما كنت آذيته أنا أيضاً لو لم يؤذني. هو الحظ السيئ، سيدي».

فقلت له:«إنك شخص كريم وعفوك عنه سيكون قدوة لنا. لكن عفوك هذا مسألة بينك وبينه، أما بيني وبينه فمسألة أخرى».

فقال سبونونو:«سيكون أسهل عليك أن تسامحه، فعيني هي المجروحة وليست عينك».

فقلت له:«كان من الممكن أن تكون محامياً».

فابتسم من تحت الضمادات وقال:«سيدي، أنت تتلاعب معي، أنا لست ذكياً بما يكفي لأكون محامياً».

«اسمع يا سبونونو»، قلت له،«بالإمكان أن تسامح شخصاً كما أنني أيضاً يمكنني أن أسامح، ولكن هذا لا يعني أن لا يتحمل الإنسان نتائج فعلته».

فنظر إليَّ نظرة شك وكأنني أقدّم مبدأً خاطئاً بشكل واضح، ولكن حياءه الشديد منعه من قوله.

فسألته:«ألا تعتقد أن الإنسان إذا صفح عنه تمحى إساءته وكأنه لم يقم بها؟».

فأجاب:«نعم».

فقلت لتيمبو: «انصرف لكن لديك تأنيب رسمي وسنأخذ منك الحزام ونعطيك حزاماً أرقَّ منه، وأنصحك أن لا ترتدي حزاماً كهذا بقية عمرك، فطبعك الناري سيوقعك بمشاكل خطرة».

فقال تيمبو بتذلل: «شكراً، سيدي». وأخذه السيد فان دايك. فسألت سبونونو: «من أين لك بفكرة الصفح؟».

«إنها تعاليم يسوع»، أجابني، وعلى ما يبدو ليست لديه فكرة عما أعرف أو لا أعرف فأضاف قائلاً: «هل تريد أن أحضر الإنجيل وأقرأ لك؟».

«كلا، بل أنت أخبرني». قلت له.

«قال يسوع إنَّ علينا أن نصفح عن الذين أساؤوا إلينا، لسبعين مرة مضروبة بسبعة».

فسألته: «هل أنت مسيحي؟».

فأجابني: «كلا، لست جيداً بما يكفي لأكون مسيحياً، لكنني أحب أن أطيع الوصايا العشر».

فقلت له: «حظاً موفقاً، يمكنك الذهاب».

«ألا يمكنك العفو عني الآن، سيدي، عوضاً عن البدء من جديد؟».

«لقد قمت بذنب خطير». قلت له: «لقد عفوت عنك، ولكن عليك أن تبدأ من جديد».

«سيدي، ألا تستطيع العفو لدرجة أستطيع معها الآن العودة للعمل في حديقتك؟».

«كلا»، قلت له، «ليس قبل أن تصبح حراً».

وبعين واحدة عاينني بنظرة شاملة وكأنه يقول إن رئيسه المثقف لا يعلم المعنى الحقيقي للصفح؟! وما رآه مني لم يشجعه لقول المزيد فهزّ كتفيه.

سألته: «لِمَ قمت بهذا؟».

فأجابني «لا يبدو أنك مستعد».

وودت لو أن السيد فان دايك كان حاضراً لأن باعتقاده أنني دائماً مستعد إلى حد الغباء للعفو، ولكنني لم أحظ بهذه المتعة.

وبعد مضي شهرين اتخذت قراراً بترك خدمتي في الولاية وعليه أيضاً ترك الإصلاحية، وكان عليَّ أن أعطي مهلة ثلاثة أشهر كإنذار، وعملت جاهداً كي أبقي هذا الخبر سرياً قدر الإمكان.

لكن لم يمض وقت طويل حتى انتشر الخبر بشكل واسع، وأول زواري كان سبونونو، كانت عينه قد شُفيت أكثر من المتوقع، وأعطته سمة مميزة، وبقيت نصف مغلفة، وكأنه هكذا

يمكنه رؤية مواطن ضعف الآخرين عما لو كانت مفتوحة ولكن ومن أجل التسامح لن يفعل ذلك، ومع هذا ظل يعطي الانطباع بأنه يستطيع معرفة كل شيء.

«سمعت أنك ستترك، سيدي».

«هذا صحيح يا سبونونو».

قال: «لقد وعدتني عندما أصبح حراً أن أعمل في حديقتك».

فقلت: «هذا صحيح، لكنني وقتها لم أعلم أنني سأغادر».

فسأل: «إلى أين أنت ذاهب؟».

قلت: «إلى ناتال».

«لم أذهب يوماً إلى ناتال»، قال، «ولكنني متأكد من أنني أستطيع العمل هناك جيداً».

كنت على وشك القول «هذا لطف منك»، ولكنه فجأة غيّر أسلوبه وخاطبني بحزن: «لم أنظر إلى وعدك على أنه مجرد وعد للعمل في حديقتك، بل لأكون بقربك لأهميته لي حتى لا أقع في المشاكل».

فأجبته: «لقد عملت بقربي، ومع هذا قمت بتهديد شخصين بريئين بحجر وسرقت منهم ستين جنيهاً».

نظر إلي نظرة تنم عن ألمه من صراخي وقسوتي بالكلام.

«لقد قلت لي أنك عفوت عني من أجل ذلك».

فقلت له: «ولكنني أردت تذكيرك بأن وجودك بقربي لم يساعدك في تلك المناسبة».

شعرت أنه فكَّر بلا أخلاقية تذكيره بها، ولم يواصل المناقشة، لكنه قال: «آمل عندما يطلق سراحي أن أعمل عندك».

«الناس في ناتال من قبيلة الزولو ويمكن أن لا تكون سعيداً بينهم».

فأجاب: «سأكون سعيداً، يوجد هنا الكثير من الصبية الزولو ولم أتشاجر مع أي منهم».

«وعندما يطلق سراحك»، قلت له، «وإذا كنت لا أزال في ناتال، وإذا كان لدي حديقة يمكنك القدوم لتعمل عندي».

فاستدار سبونونو إلى السيد فان دايك وقال: «إنني راضٍ».

فرمقني المشرف العام ولكن من دون تعليق.

وهكذا قدم سبونونو إلى ناتال. ولم يمض عليه وقت طويل حتى أخبرني أن «سيلي» الحدائقي رجل كسول ولا قيمة له، وأن جين زوندي التي تهتم بشؤون البيت امرأة غير أمينة ومنحلة؟ وتحملت هذه الأقاويل بجلد، ولكن ما قام به لاحقاً من عمل طائش كان غير معقول، فقد دعي إلى حفلة في منزل أخت جين عند التلال وراء الشاطئ، ولكن الطعام لم يرق له فذبح دجاجة وأقام لنفسه احتفالاً

وشرب الكحول بلا قيد وعرض على بنت أخت جين أشياء من طبيعة بشعة ومهددة، فحملت كل المنطقة الريفية السلاح بوجه هذا الغريب ولجأت أخت جين إلى الشرطة. فجاءت الشرطة لرؤيتي إذ رأت أنه من الصعب البرهان على مثل هذه القضايا، ولكن ليس لديهم شك في خرق سبونونو للعديد من القوانين، وبحال أعدته مجدداً إلى الإصلاحية فلن يتقدموا بادعاء عليه، ومن ثم أتت جين زوندي وطرحت عليَّ إنشاء غرفة إضافية لسبونونو في جزء آخر من الحديقة، بينما سيلي اقترح شراء حديقة أخرى وتنصيب سبونونو البستاني الأوحد والأقوى عليها، وبذلك يعمل على إساءة إدارتها وإدارة شؤونه الخاصة دون تدخل أحد.

«على ما يبدو لا أحد يريدك». قلت لسبونونو.

«أستطيع أن أرى هذا»، ردّ قائلاً الجميع ضدي من وقت مجيئي إلى هنا، وعلمهم أنني جئت من الإصلاحية».

«من أخبرهم بذلك؟» سألته«لابد أن تكون أنت من أخبرهم بذلك».

«نعم لقد أخبرتهم». وقال:«اعتقدت أنهم سيكونون أكثر صبراً معي».

فأخبرته قائلاً:«الشرطة تقول إن عليك الاختيار بين الذهاب إلى المحكمة أو العودة إلى الإصلاحية». فقال:«هؤلاء الناس يكرهونني، الأفضل أن أعود».

وهكـذا، عـاد سـبونونو إلى الإصـلاحية وبـدأت مراسـلاتي معه، وقد دامت حتى الآن لمدة عشر سنوات.

«لقد كان فعلك تجاهي قاسياً، كتب،«لقد تصرف غـيري في الحفلـة كـما تـصرفت، فـلا تعتقـد أننـي الوحيـد الـذي أكـل الدجاجـة، فـابن شـقيقة جين أكـل كـما أكلـت وهـو الـذي وشى بي».

وقد اشتكى أيضاً بمرارة مـن جين وسـيلي، وذكـر أنهـم مـن الأشـخاص الـذين لا يـسامحون أبـداً خطـأ أحـد، بـل يطاردونـه حتى تدميره؟ بالإضافة إلى أنهم من الزولو وهو من أكسهوسا. وكتـب أن سـيلي يخافـه، فمـن الواضـح أنـه لا يعلـم شـيئاً عـن الحدائق ويخاف أن يخسر وظيفته لشخص أفضل منه.

«لكنك أنت»، كتب،«عليك أن تـدرك أكثر لأنـك عملـت مع آلاف الخاطئين واكتسبت سمعة جيـدة فـيما بيننـا، بالإضـافة إلى أنك رجل أبيض ولا يوجد مـبرر لكرهـك لي، وأخـيراً أنـت كاتب ولست بستانياً تخاف أن تفقد وظيفتك ليأخذها أمثالي».

مكـث سـبونونو سـنة أخـرى في الإصـلاحية، وعنـد إطـلاق سراحـه طلـب أن أتـولى مـسؤوليته فرفـضت هـذا، وكتبـت لـه وأخبرته أن جيني زوندي لاتزال هنا معنا وكذلك سيلي لايـزال في الحديقة ولا أحد منهما يرغب في قدومك.

فكتب: «إنهم لا يصفحون، ولكن هذا ليس من طبيعتك فلا تتـأثر بهـم وتخـاف أن تأخـذني فلـن أقـوم بالمـشاكل في منـزل والدي».

وخـشيت أن أكـون غـير متـسامح؟ فكتبـت لـه أنـه خـذلني مرتين وسبَّب لي المشاكل في منزلي أيضاً مـرتين، وسـألته إن كـان من الممكن وجود خطأ ما في شخصيته.

فكتب: «لديّ الكثير من الأخطـاء، لكننـا الآن نـتكلم عنـك ولـيس عنـي، لقـد خـذلتك مـرتين ولكـن هـذا بعيـد جـداً عـن السبعين والسبعة ليسوع».

«ماذا عليَّ أن أفعل؟» سأل، «بضربة واحدة حرمتني من بيتي ووالدي».

وهكذا كان، فقد كان لديَّ صديق في المقاطعة الشرقية يـزرع الحمضيات، كان صديقاً متسامحاً كما كنت أعتقـد أنني كـذلك، بالإضـافة إلى أن جميـع العـاملين لديـه كـانوا مـن أكـسهوسا. فتـدبرت لـسبونونو وظيفـة دامـت فقـط لـستة أسـابع بعـد أن وجدوه مذنباً بسرقة سترة ومال من زميل له في العمـل وأدخـل السجن لمدة سنتين في لندن الشرقية.

«إنسان عـديم الفائـدة»، كتـب لي صـديقي. «إذا كنـت تريـد إشـعال حمـاسي في إعـادة التأهيـل لمـاذا البدايـة كانـت بنـذل

مشاكس؟ لقد تشاجر مع جميع العمال من اليوم الأول الذي حط فيه هنا. وأسوأ ما في شخصيته تذكيره لي دوماً بواجباتي الأبوية كما ويدّعي أنني ورثتها منك، واعتقدت أن مرور ثلاث عشرة سنة تعمل فيها لإصلاحية تستطيع أن تميز البيضة الفاسدة عند رؤيتك لها».

أما سبونونو فكتب لي«صديقك رجل صعب، لديه صرامتك ولكن لا شيء من طيبة قلبك حتى إنني لم أسئ إليه إلا مرة واحدة».

لقد سُمح لسبونونو بكتابة رسالة واحدة في الشهر، وكنت أنا من يراسله، وبعثت له عدة كتب مبسطة، ثم اكتشفت أن المشرف العام في السجن يعرفني عندما كنت في الخدمة بالولاية، فكتب لي:«إنني معجب برسائلك لسبونونو، ولكن أخشى أن نصائحك تذهب هباءً، إنه سجين سيئ الطبع، وأضطر أحياناً لوضعه في الزنزانة المنفردة لفترات بسبب شجاراته. ومع ذلك، ثابر على عملك الطيب».

إن المشرف العام رجل قاسٍ»، كتب سبونونو،«فهنا ليس كالإصلاحية، لا تسامح مع الذنوب الصغيرة».

لا أدري كيف أن هذه الرسالة اجتازت عين النسر المراقبة للسجن، ولقد كانت الأخيرة من هذا النوع فسبونونو كان على وشك إخلاء سبيله، وقد طلب أيضاً القدوم والعمل عندي.

وكتبت له مجدداً«جين وسيلي لا يزالان هنا ولا يوافقان على عملك عندنا».

فكتب سائلاً: «من هو السيد في منزلك؟».

ومضت عدة سنوات قبل أن أسمع عنه مجدداً. هو الآن في سجن«تايغر فلي» موقوف لمدة سبع سنوات مع سخاء في تخفيف العقوبة بحال حسن سلوكه، وسمح له بالكتابة، لكن بفترات متباعدة، فأجبته؛ ولكن عليَّ الاعتراف أن حماسي قد ضعف للقيام بهذا، وذلك لسببين: إن الحكومة الجديدة في جنوب أفريقيا منعت الأفريقيين في جزء من البلاد العمل في جزء آخر. والسبب الثاني هو شعوري بأنّ علاقتي بسبونونو وصلت إلى نهايتها.

«يمر وقت طويل قبل أن تجيب عن رسائلي»، كتب سبونونو«لماذا هذا التغير؟ أنا لم أتغير».

وحتماً لا يبدو أنه سيتغير، وبعد مضي خمس سنوات كتب ليخبرني بإطلاق سراحه بعد فترة قصيرة، ويرغب في القدوم إليَّ حينذاك كنت قد انتقلت إلى جزء آخر من البلاد، وارتبطت بعمل أخذ معظم وقتي خارج البيت، ولم أرد أن أرهق زوجتي بمشاكل سبونونو.

«لا أستطيع إحضارك»، كتبت له.«لايزال الزولوس يعملون عندي وأنت لا تحبهم، ولا أعتقد أن ذلك سينجح».

حين ذلك كتب لي أنني لطالما كنت بنظره جديراً بالثقة، ولكنه الآن يخجل مني أمام أصدقائه.

«لماذا تغيرت؟» سأل«كنت دائماً عند كلمتك لكنك الآن تغيرت».

ثم كتب«أنت لا تقول إنك لم تسامحني ولكن هذا ما تعنيه. لقد علّمنا يسوع التسامح حتى سبعين ضرب سبعة».

وأضاف:«لم أعد أتشاجر أبداً»، فقد حصل تغير في قلبي. وكذلك أنت، لكن تغيرك كان في الاتجاه الخاطئ».

لقد وصلنا أنا وأنت يا سبونونو إلى نقطة إحراج الشاه في لعبة لا تعرفها، أنا أحرك وأنت تحرك، ولا أحد منّا قادر على أسر الآخر. لقد أعطيتك فرصة ولم تأخذها لأسباب فوق قدرتنا نحن الاثنين على شرحها، وأعطيتني فرصة ولم آخذها لأسباب وجدتها سليمة ومناسبة.

ولا يساورني شك في أنك كنت ترغب، كما كنت أنا أرغب، أن تكون نهاية اللعبة قد سارت في اتجاه آخر.

هـو والقطــة

إزيكيال مفاهيلي

خذها إلى محام. هذا ما قاله لي صديقي لأقوم به. ولم يكن عندي أبداً قبل هذا أي شأن مع المحامين، فذكر المحامين يحضر لعقلي دائماً صور المحاكم والاعتقالات والشرطة، إنها صور مخيفة، لكنني كنت في مشكلة، وتساءلت لِمَ يجب أن يكون من سيساعدني محامياً؟ ومع هذا فقد أعطاني صديقي العنوان.

ومن تلك اللحظة كبرت مشكلتي، هذا ما دار في خلدي، ففي الليلة التي سبقت زيارتي إلى محامي المدينة كان قلبي مليئاً بمشاعر الأسى فروحي أشعلتها النيران والمياه الحارقة، سأخبر المحامي، سأخبره بما يتآكل في داخلي من عدة أيام.

صعدت درج مبنى مرتفع، وتخيلت كل من التقيته أنه المحامي الذي سأبدأ بصب كل همومي له، وعند مطلع الدرج التقيت بصبي له رأس ووجه رجل له أذنان وشفتان كبيرتان إلى

حد ما، فقلت له إنني هنا لرؤية السيد«بي» المحامي، وبلطف كبير قادني للانتظار في غرفة الجلوس مع الآخرين ليأتي دوري. لقد خاب أملي. كنت أريد رؤية السيد«بي» لأخبره عن كل شيء فيعطيني علاج المحامين، أما أن يدعوني لأنتظر...!

كان الزبائن ينتظرون في غرفة الجلوس في صف عند الحيطان نحو العشرين، يشبهون لعباً معدة لطرحها أرضاً في اللعبة الدائرة التي يلعبها الأولاد في الأعياد، وعلى ما يبدو ليس لديّ الوقت الكافي لسرد القصة كلها - ثم كبرت لتصل حد التهديد بسحقي - بوجود هذا الجمع من الناس.

لقد كان الصبي الذي له رأس ووجه رجل وأذنان كبيرتان يأتي بين الحين والآخر ليستدعي الشخص التالي، وعلمت ما علي فعله: سأراجع المشكلة برمتها في عقلي حتى يمكنني قولها بصورة انعكاسية على المحامي حتى لا يفوته شيء.

لكن أثناء ذلك كانت عيناي تجولان في الغرفة: الناس والحيطان والسقف والأثاث، إنها غرفة غير جذابة، فأيدي الكراسي عليها خدوش ربما قام بها أحدهم وهو ينتظر!! وعند الحائط الوحيد الخالي من كراسي أصحاب الدعاوى يجلس رجل في نحو الخمسين من عمره خلف طاولة يغلق المغلفات، وهناك رسم لقطة، وهي الصورة الوحيدة في الغرفة معلقة على

الحائط خلفه، وهذه القطة عيناها خضراوان وتنظر إلى الأمام وكأنها تراقب عمله، ولسبب ما لم أفهمه كان هناك كرة أرضية مدرسية صغيرة على الطاولة، ربما لتوحي أن الرجل الذي يغلق المغلفات سيبدأ بتحريك الكرة ويشرح للصف أن الأرض تدور على محورها.

حين تحاول التفكير بشيء ما سيخطر في بالك آلاف الأشياء. لربما تفكر بمغامرة ليلة أمس، ثم تدخل صديقتك عنوة إلى خط الأمام لتفكيرك لتبدأ من جديد على غير هدى، أو تعود إلى الوراء كما أفعل الآن وأنظر إلى القطة أمامي أو إلى الرجل خلف الطاولة أو إلى الزبائن واحداً واحداً، وفي لحظة سريعة أرى القطة كأنها تتحرك ثم تعود لوضعها السابق ليقول لك شارباها المستفزان إنك أحمق إذا تخيلت أنها تتحرك.

ومن ثم تراقب تحركات ذبابة هائجة أمام النافذة تحاول بجلبة كبيرة الخروج من الأعلى حيث الأسفل مغلق، ثم تنظر بعيداً إلى أبنية المدينة العالية، وبسبب حرِّ ما بعد الظهر يصبح رأسك كصندوق اختلطت أشياؤه من أثر الحر الثقيل، لدرجة لا يمكنك سماع الصبي الذي له رأس ووجه رجل وأذنان كبيرتان وهو ينادي«التالي!». ويخيل إليك أنك تطر في هواء الغرفة الراكد دون جسد، ولم تعد أنت، لا«سيلو» ولا«تيمبا»، منتظراً في الغرفة بل مخلوق بلا زمان الشعور والتفكير.

وتابع الرجل عند الطاولة عمله الميكانيكي، وعلى ما يبدو هو يريد أن يتخلص أيضاً من هذا العمل الشاق فتكلم مع اثنين أو ثلاثة من الزبائن، ضاحكاً مراراً ضحكات خافتة ليبرز فمه العذب من غير أسنان، ويظهر عليه السرور حين يتكلم فيقول أربع أو خمس جمل ويضع فيها حكمة أو قولاً مأثوراً.«يقول حكماؤنا، إن الشيء الوحيد الذي نملكه حقاً هو الذي نأكله». (ثم يضحك)،«من بعيد تكون المدينة جميلة ولكن عند الاقتراب منها تصبح مخيبة للآمال» (ثم يضحك ثانية).

كانت كل جماعة من الزبائن تناقش أشياء مختلفة. رجل وُجِد ميتاً قرب«شانتي تاون» ربما دهسه قطار...«انظر إلي الآن؛ لدي ثلاثة أبناء. هل تعتقد أن واحداً منهم يهتم بإحضار بنسٍ واحدٍ إلى المنزل؟ هم فقط يأكلون وينامون ولا يبالون من أين يأتي الطعام».

فقال الرجل عند الطاولة:«أنا دائماً أقول بمجرد سماحك للبنت بالخروج والرقص فإنك تخسرها».

«حاول التقاط رياحٍ تجري - هـ هـ هـ»، «لن يستطيع الذهاب بعيداً سيلحقونَ به». ..«هل يمكن تصوّر هذا - لم يمضِ على زوجها ستة أشهر في القبر يا للرجل المسكين، خلعت زوجته الحداد؟ هذا جزاء الزوج الجيد!».

«يقول حكماؤنا؛ إذا قادت البقرة قطيعاً من الماشية فسيقع دائماً في الخندق» . .«استمع دوماً لها، مادامت الكلمة الأخيرة لك».

«التقيت برجل في أحد الأيام.». .«ينادي على البطاطا؟ كل شيء غالٍ هذه الأيام، حتى النساء ترتفع أسعارهن عندما نريد الزواج» . . وحده الله يعلم متى سنذهب عندما نريد ذلك وفي أي وقت؟». .«ألسنا هنا من أجل المال؟ حين نمشي في الشوارع أو نركب القطارات والحافلات أليس من أجل المال؟ أليس المال هو سبب تجوالنا؟».

«الموت موجود في أرجلنا، نمشي معه» (ضحكة أخرى).

«إذا لم تذهب إلى«ماغابه» كما تقول؟ إذاً أنت لا تعلم شيئاً. فالنساء هناك تبيع الفواكه. جميعهم حمر كالأرض التي يقفون عليها؟ الرجال والنساء كشيء واحد مع الأرض الحمراء؛ اللحوم المملحة تشوى على الصفائح المعدنية للبيع، الغبار الأحمر مثل الدوامة في الأعلى، والناس تندفع في هذا الاتجاه أو ذاك كالعفاريت التي تُسفَعُ بالنار - إنه كالحلم».

ضحك الرجل خلف الطاولة من جديد، وقال:«الأبواق التي توضع عليك لا تلتصق بك - فلا تقلق من الضجيج».

«لقد أصبحنا في أوقات شريرة حيث يمكن للفتاة ضرب حماتها» . .«إن - هذا يحدث لأول مرة من سنين عديدة، في

أيامي لو حدث مثل هذا فستلد البقرة حماراً». ...«أوه، الكل يضرب الكل هذه الأيام؛ لقد ضعنا، ضعنا». «لكننا لن نستطيع العودة إلى الوراء».

«عندما أرى خطوطاً أعلم أنه حمار وحشي». هذا التعليق كان من وراء الطاولة.

«إذا كان يقرأ كثيراً، يقول الأطباء البيض، فإنّ عقله يتخمر».

حكمة أخرى.«حتى النسر يحطُّ على الأرض».

«لم تسنح لنا الفرصة أنا وأنت كي نذهب إلى المدرسة، لهذا يجب علينا أن نرسل أولادنا إليها، سيقرؤون ويكتبون من أجلنا». .. ألم تسمع بهذا؟ إن الرجل المسكين كان يصرخ قبل موته محاولاً الهرب، ويبكي قائلاً إن جبالاً من الخطايا تقف في طريقه». ..«نعم لقد كانت زوجته تقف عند سريره ويقول لها«شلوبي، اعتني بولدي، أعطيني الآن ماءً لأشرب. هذه نهايتي»، ثم يقول،«لن أطلب منك شيئاً بعد الآن».

ثم أتى الصبي الذي برأس رجل وأذنان كبيرتان ليخبرنا بدخول رجلين أبيضين إلى مكتب السيد« بي» فساد صمت. وأومأ الرجل عند الطاولة برأسه عدة مرات. فحدقت به القطة باندهاش بعينيها الخضراوين، وبشاربين كأن الحياة تدبُّ فيهما،

لابد أن الذبابة وجدت طريقها إلى الخارج، وأصبح الحرُّ شديداً يُحسب له حساب.

«كم مرة أتيت إلى هنا؟» سألتْ امرأة عجوز هذا ليس لأحد بالتخصيص،«سيكون أحفادي الآن جائعين، فوالدهم الذي لا يصلح لشيء لم يرسل لهم المال من وقت ما فرَّقته المحكمة عن ابنتي». صمت عميق أكثر من ذي قبل. وعبس قلة من الأشخاص الموجودين في وجه المرأة العجوز، وكما يقال: ماذا فعلت العصافير عندما حاولت اليوم الهجوم عليها؟ أما البقية فقد تظاهروا بأنهم لم يسمعوا ما سمعوه.

«من أين أتت الأم المسنة؟» شخص من جانبها سألها، وعندما بدأ بأسئلته أكمل بسبحة طويلة منها ليُخرج المرأة العجوز عن مسار كلامها.

وهكذا، بدأ الموجودون يسوون خلافاتهم. وأثناء هذا الوقت استجمعت أفكاري بشكل صحيح، وتخيلت نفسي أحياناً أنني أمام السيد«بي»، رجل قصير القامة وبعينين متعبتين (كنت أتصوّر جميع المحامين قصيري القامة)، وأخبره بكل شيء. أما الآن حيث لاأزال في غرفة الانتظار فقد أحسست أنني سأتخلص من همومي، وبمجرد أن أرى وأتكلم مع السيد«بي» فسيقع الحمل عني، كنت متأكداً من هذا. فلا يمكن حصول عكس ذلك.

قل الكلام الآن، إنهم أغبياء هكذا اعتقدت، فداخل ذواتهم كان ألم وخوف من ألم الماضي (كحالي)؛ كانوا يتوقون لرؤية السيد« بي» وإخباره عن مشاكلهم، ومع هذا فهم الآن هنا متظاهرون بإرجاء قلقهم. هم الآن هنا يحاولون تمزيق موجة الحر وتفريقها بكلامهم الفارغ؛ يثرثرون بأشياء لا تعنيهم حتى يخففوا دوامة قلقهم. ماذا يوجد تحت هذه التيارات والفقاعات البشرية التي تتراقص وتتفجر في موجة الحر؟ - الاستحواذ على أشياء الآخرين، الاستهزاء بالقانون، عدم الإخلاص، الشجرة المحرّمة؟ وهذا الرجل خلف الطاولة، بأي حق يتلفظ بهذه الحكم؟ والأفعال المأثورة القديمة كقدم الإنسان ودرجة بياضها مثل قميص بني أصبح ببياض متسخ؟ بأي حق يقهقه بهذه الطريقة وينظر إلينا كأننا زبائن في متجره؟ التالي... الشخص التالي... الشخص التالي!...

الآن أصبحت وحيداً مع الرجل والقطة، فخفق قلبي بشدة عندما تحول عقلي إلى المشكلة التي جئت من أجلها إلى المحامي. لقد قال صديقي بكل ثقة أعطها إلى محام، وكأنَّ عليَّ فقط ضغط مفتاح كهرباء. سيساعد بإخراجك مِن الوحل أنه محامي مدينة لعين. تعطيه أصعب القضايا وسيكلمك بكل صراحة... نعم سأخبره عن كل شيء، ما يقلق ساعات نومي ويقظتي، وبعدها سيكون كل شيء على مايرام. شعرت أنها ستكون كذلك.

«الرجل الكبير منشغل اليوم كثيراً، إيه؟» لاحظ ذلك الرجل الجالس خلف الطاولة.

«نعم»، أجبته بشكل ميكانيكي.

وانسحب اهتمامي من جديد إلى ما يحيط بي برمته، غرفة بسيطة متواضعة، وكراسٍ قديمة، وكرة أرضية مدرسية، وأكداس من الرسائل والمغلفات، بالإضافة إلى الرجل وصورة القطة.

وقع مغلف على الأرض، فانحنى والتقطه، راقبت يديه الكبيرتين وهما تبحثان عنه وتتلمسّانه، ثم التقطت يده هذا الشيء ولكن بجهد أكبر من قطعة ورق تحتوي على كفالة، وقبل أن يقوم الرجل عن كرسيه رأيت كل شيء بوضوح!! إنه أعمى بل أعمى تماماً، لقد أدركت ذلك عندما بدأت عيناي تعتادان على التفاصيل لأن عقلي ارتبك بالحركة، فهذا الرجل الذي يغلق المغلفات يشبه رسماً على سطح منبسط. لعله رقيق ومنبسط مثل أسطوانة الغراموفون، رقيق لدرجة لا يعوقه الحرُّ ولا الجلوس الممل لساعات والقيام بالعمل نفسه، بوجود عدد قليل أو كثير من الناس، اثنان لا يقهران: هو والقطة التي تحملق فيه وتسخر من عارنا وآلامنا ومن الحر، وكأنها تملك مفتاحاً لا ندركه، لا بالحس ولا بالعقل، في زماننا الحاضر، وغير منظور ومغرق في البعد.

ثــم دخلــت لأرى الــسيد«بي». رجــل قــصير القامــة كــما تصوّرت وعينـان متعبتـان، لكـن بوجـه شـجاع، وأخبرتـه بكـل شيء من البداية إلى النهاية[1].

---

(١) هـذه الأقـصوصة تظهـر الأسـاطير وأمثالهـا للنـاس في جنـوب أفريقيـا وقصصها ببحثهم من خلالها، ومن خلال ما يظن أنه رجال القانون؟ في بحثهم عن القانون الضائع ضمن كل هذا؟!

إنها أقصوصة الرغبة بوجـود قـانون لكـل هـذا؟! إذا أردت أن تجعـل لسردها أي معنى؟!

الطاقة الكهربائية

جـاك كـوب

نظر من ناحية شجرة الصمغ إلى الجانب الآخر في الخارج، حسناً - لا شيء - لا شيء هناك بعد منزل والده، المرج فقط، إنه منبسط وثابت لا يتغير لدرجة أن شجرة «الكوبي» الظليلة والوحيدة والتي ترتفع عالياً إلى حدود السماء تجعله فارغاً أكثر، إن شجرة كوبي» وحيدة مثله.

الشيء الوحيد الذي يحدث الفرق هو خط الكهرباء، مرتفعاً فوق الأرض على أبراج عملاقة من المعدن المتشابك ويبعد باتجاه شجرة الصمغ حتى يختفي وراء شجرة الكوبي».

فهي تمر قريبة من منزل والده، ويقف أحد الأبراج على أرض هذا المكان في رقعة مربعة مسوّرة بأسلاك شائكة. فهي منطقة محظورة، ومن عادة أندريه أن ينظر من خلال الأسلاك إلى هذا البرج!! وحول هذه الأجزاء الفولاذية حاجز آخر له

سور حديدي ملصق عليه لوحات مطلية للتحذير، مرسوم عليها جماجم حمراء وعظام متقاطعة، ومكتوب عليها بثلاث لغات: خطر! ومكتوب أيضاً عدد الفولتات، وهي بالملايين.

كان يعلم أندريه أن الفولتات تعني كهرباء، وأن هذه الشبكة هي التي تأخذ الطاقة بوساطة طريق مختصر بعيداً عبر البلاد؛ حيث تُشَغِّل مناجم الذهب وتنير المدن وتسحب القطارات وتحرك الآلات في جميع الأماكن البعيدة، وكانت محطة الطاقة تبعد عشرة أميال عن المدينة في الجهة الأخرى من سكن والده، ويعلو هذا الخط العملاق مباشرة فوقهم ودون توقف.

كان«أندريه» يملأ حيّز حياته الفارغة بالتصورات، لقد رأى يوماً فيلماً سينمائياً عن جبل«غرست»، وظل لوقت طويل يتصور نفسه يستولي على الجبل كأبطال الفيلم«هيلاري وتنسينغ»، لكن ليس لديه جبال هنا لذا فقد استولى على سقف منزله الذي لم يكن مرتفعاً وكان مصنوعاً من تنك مطلي بالأحمر، فصعد إلى القمة وزرع علماً على مترسة البرق، وحين نزوله«ضربته أمه لشقاوته بقضيب شجرة سفرجل.

في مرة ثانية، استولى على شجرة«كوبي». واستغرق هذا كل ما قبل الظهر صعوداً ونزولاً، ولم تكن مغامرة مثيرة كما توقع

فالشجرة لم تكن مرتفعة بالقدر الذي تبدو عليه من بعيد، ولهذا لم يكن بحاجة إلى الحبل، بل وجد بقربه بَكَرَة رفعته إلى القمة.

ثم فكر في الاستيلاء على أحد أبراج خطوط الطاقة، فهذه الأبراج تحتوي على كل شيء، وخصوصاً الخطر، وعندما قام بدراستها من جميع النواحي اعتقد أن بإمكانه الوصول إلى القمة دون لمس أي خط مشحون بالكهرباء، لكنه لم يكن متمرداً لهذه الدرجة وكان يعلم أنه إذا ذهب إلى داخل السور الفولاذي الشائك فإن أمه ستسلخ جلده بقضيب شجر السفرجل، بالإضافة إلى والده. هناك إذاً قمم عليها أن تظلَّ غير خاضعة لأحد.

كان أحياناً يتمدد ويستمع إلى الهمهمات المدهشة لخط الكهرباء، فملايين الفولتات تنساب أبعد من أفكارنا لا مرئية في هذه الأسلاك النحاسية المعلقة بنعومة ورقَّة بوصلات بيضاء مجعدة من الخزف كأنها مصابيح صينية معلقة في أعلى السماء. وفي بعض الأحيان يسمع أصوات طقطقات ودمدمات ضعيفة وسريعة من الخط الكهربائي، أما في الليل فهو واثق تماماً أنه رأى أنواراً تقفز وترتعش على الأسلاك وكأنها تنفلت قليلاً من نهر الفولتات العاتي فكانت الأنوار تتراقص وأصواتها تثرثر له بغموض.

وعند الصباح الباكر، عندما يرتفع الضباب الرقيق ويخرقه أول شعاع للشمس، تتألق أسلاك الكهرباء وكأنها بيت عنكبوت ضخم، هناك كانت ترحل أفكاره لأماكن بعيدة سحرية، بعيدة بين الآلات العملاقة والمعامل التي تضج بالحركة، هناك حيث مُنح له العالم.

لقد أحب أندريه أسلاك الطاقة كثيراً فكانت باباً تمر أفكاره عبرها إلى مسافات بعيدة، فهي مثله لكنها لا تنام، وبينما هو يحلم فإن دمدماتها وطقطقاتها الضعيفة لا تتوقف، إنها الكهرباء تقفز عالياً لتتخطى المناجم من قلب الأرض وتندفع بعنف في مجموعات القضبان الحديدية الضخمة الخضراء إلى الخطوط التي تشع فتهدر نهاراً وليلاً في المصانع.

في مثل هذه الأيام من السنة تتحول خضرة شجرة الصمغ إلى خضرة داكنة وتجتمع فيها ألوان الأسود والذهبي للبذور الناضجة وأنصال الأوراق الذابلة، فالآن بدأت أيام الخريف الدافئة بالقدوم بعد عواصف الصيف الهادرة وتقف جموع العصافير على الأسلاك الكهربائية.

وعند المساء تجتمع رفوف السنونو وتقف على الأسلاك كأنها عقود مصنوعة من الخرز الأسود والأزرق الزجاجي، هكذا كان يراها أندريه، فقد استغرق الأمر عدة أيام على ما يبدو

لتتشكَّل هكذا، وهو لا يعلم ما إذا كانت هي نفسها مجموعات السنونو التي تتشكل في المساء وتزداد أعدادها، أو أنها رحلت وحلت محلها أخرى! فهو لا يعلم ما يكفي عنها. صحيح أنه يحب سماع أصوات زقزقتها المبهجة ورؤيتها عند انفضاضها بكل بساطة عن السلك النحاسي وإلى الفضاء، وكيف أن أجنحتها المقدسة بشكل مثالي وتام تستطيع رفعها في الهواء.

فهذه الطيور ليست كالطاقة الكهربائية تتخطى الأفق فقط بل إنها تطير آلاف الأميال فوق الأرض والبحر والجبال والغابات لتصل إلى بلاد لم يحلم بها بعد، فهي تطير فوق قمة «إفرست» وربما ترى السفن من تحتها من البحور الزرقاء وبين الجزر، وتبني أعشاشها تحت الجسور وعلى المداخن حيث الصبية بملابس غريبة تراقبها.

في صباح أحد الأيام راقب أندريه السنونو وهي تطير من مجاثمها، فهي فجأة تبدأ جميعها بالطيران وكأن لديها إشارة سرية فتهبط في الهواء وترفرف بأجنحتها البيضاء والزرقاء وكأن الطيران أسهل الأشياء في العالم. تنقضُّ إلى الأسفل ثم تطير إلى الأعلى بخطوط متقاطعة، ومتسقة بجنون وكأنها فرحة لاستيقاظها عند الصباح.

ثم يطير سرب آخر ثم آخر وكأنه لم يعد هناك مكان إلا على هذه الأسلاك. أقلع سرب آخر قريب من البرج العالي

ووصلات الخزف المشعة، ولكن واحداً من طيور السنونو بقي جاثماً. راقبها أندريه وهي تطير إلى الأمام عدا الطائر الوحيد الذي لم يترك الخط الكهربائي، فقد بقي معلقاً هناك يرفرف بجناحيه، وقد رآه أندريه معلقاً من رجله.

كان على أندريه الذهاب إلى المدرسة لكنه وقف يراقب السنونو فسقطت قبعته عن شعره الفاتح وتغضنت عيناه من الضوء، وبعد دقيقة توقف السنونو عن الرفرفة وتدلى. واحتار أندريه بسبب وقوعه في هذا الشرك، ربما علق عند ربطة السلك أو الوصلات، فالسنونو له أرجل قصيرة ومخالب سوداء صغيرة. في أحد الأيام علق طائر من السنونو في عش فحمله أندريه بين يديه قبل أن يقاوم من أجل حريته ثم طار كالبرق. لقد اعتقد أندريه أن الطائر المعلّق على خط الكهرباء سيتحرر سريعاً، ولكنه أحس بوخز ألم في صدره وبإحدى رجليه عندما نظر إليه وكأنه هو أيضاً علق من رجله.

أراد أندريه أن يعود بسرعة ويخبر أمه، لكنها كانت ستؤنبه لتأخره عن المدرسة، فصعد على دراجته بعد أن نظر مرة أخرى إلى الطائر البائس المعلق في السماء على السلك الفولاذي للبرج وأسرع إلى الحافلة.

وقد فكر مرة أو مرتين بالسنونو عندما كان في المدرسة لكنه نسي أمره معظم الوقت ما جعله يشعر بالانزعاج، واعتقد أنه عند وصوله إلى البيت سيكون الطائر قد تحرر من شركه، فرفرفته وتلويه ستنجح وتخرج قدمه، وليس عليه أن يقلق بشأن تدليه هناك.

عند اقترابه من تقاطع الطرق حين عودته شعر بالقلق، ولكنه لم يشأ النظر إلى الأعلى حتى يصبح قريباً، ثم التفت التفاتة سريعة إلى البرج ليرى الطائر لا يزال عالقاً هناك وجناحاه ممدودتان دون حراك. فجأة رآه يهتز ويطوي جناحيه. وشعر بالخوف حين فكر أن الطائر بقي معلقاً في هذا الشرك طيلة النهار.

أسرع الصبي إلى الداخل ونادى أمه، فوقف الاثنان على مسافة تحت خط الكهرباء وتأمّلا الطائر حجبت الأم عينيها بيدها وتأسفت على هذا الطائر المسكين ولكنها كانت متأكدة أنه سينجو بطريقة ما فلا تستطيع عمل شيء بشأنه.

«ألا نستطيع -؟» بدأ بالكلام.

«لا نستطيع شيئاً، عزيزي»، قالتها بصراحة ليعلم حقاً ما تعنيه«الآن توقف عن التفكير به، وغداً سنرى؟».

عند الساعة السادسة مساءً قدم والده واحتسى الشاي، وما تبقى لديه من وقت أمضاه يعمل في رقعة أرض مزروعة

بالخضار خلف البيت، فلحق به أندريه واستدار لرؤية السنونو على الخط الكهربائي.

«أنا أعلم»، قال والده.«أمك أخبرتني».

«لايزال هناك».

«حسناً..» وأمال والده قبعة عمله القديمة ونظر إليه بقسوة من عينيه الحادتين الزرقاوين...«حسناً، لا نستطيع عمل شيء لأجله، أنستطيع؟».

«كلا، أبي، ولكن..».

«ولكن ماذا؟».

ضرب حجراً برجله ولم يقل شيئاً بعدها، وأحس أن والده متصلب نوعاً ما ولا يريد سماع المزيد في هذا الموضوع، ربما كان والداه خائفين من محاولته تسلق البرج.

عند العشاء، لم يتحدث أحدٌ منهم عن السنونو، ولكن أندريه شعر أن كل شيء سيكون على مايرام، وأن السنونو واقف فوق رؤوسهم، أما والده فقد شعر أنه عبء عليهم وقالت له أمه عند ذهابه إلى النوم بأن لا يقلق بشأن الطائر المسكين.«فلا يسقط عصفور دوري دون علم الله».

«إنه ليس دورياً بل سنونو»، قال لها:«وسيكون معلقاً هناك من ساقه طوال الليل».

تنهدت أمه وأطفأت الضوء، لقد كانت قلقة.

في اليوم التالي، لم يكن عليه الذهاب إلى المدرسة فقد كان نهار سبت، وأول شيء قام به عند الصباح هو النظر خارجاً، لقد كان الطائر هناك مع بقية الطيور، وعندما طارت رفرف وصاح صيحات خافتة ولكنه لم يستطع الإفلات.

ربما كان من الأفضل له لو كان في المدرسة عوضاً عن مراقبة الطائر معلقاً على السلك المتوحش. وتعجَّب كيف أن الكهرباء لم تؤذه، طبعاً فهو يعلم أن الأسلاك آمنة تماماً طالما لا تمس شيئاً غيرها، كان الصباح طويلاً لذا فقد نسي أمر هذا السنونو في بعض الأوقات.

لقد كان يبني قلعة من الطين تحت شجرة الصمغ، فيحضر الماء ويحفر الأرض ليستخرج الطين الأحمر ويخلطهما ليصبح صلصالاً صلباً.

وقبل دخوله إلى المنزل عند منتصف النهار وكان يعتمر قبعة كاكية تتدلى فوق وجهه ألقى نظرة أخرى، وما رآه جعله يقف فاغراً فاه لمدة طويلة!! إذ كانت طيور السنونو ترفرف بأجنحتها وتحوم حول الطائر الذي في الشرك وتحاول مساعدته. فاندفع إلى الداخل وسحب أمه من يدها إلى الخارج فوقفت هي أيضاً تظلل عينيها بيدها لتنظر إلى الأعلى.

«نعم، إنها تطعمه. أليس هذا غريباً؟»، قالت.

«شش! لا تخيفيها» همس.

عند المساء استلقى على العشب وراقب السنونو من جديد ترفرف حول الطائر المثبت وأجنحتها تهتز بضربات قصيرة فاتحة مناقيرها الواسعة، فلطيور السنونو جيوب في حلقها تستطيع بداخلها عمل آجرات صغيرة من الطين لبناء أعشاشها، ولهذا استطاعت إحضار الطعام بها، فهي أيضاً تعمل كي تطعم أفراخها، وعندما يقع أحدها بالشرك يطلق زعقات وصرخات فتحضر له الطعام.

وشعر أندريه بغصة عندما فكر كيف أن طيور السنونو تقوم بمساعدته بينما لا أحد يساعده، حتى أن والديه لا يريدون الحديث عنه.

وبعينيه الحادتين رسم طريقة لإمكانية التسلق صعوداً حتى ربع المسافة، أما بعد ذلك فقد كانت هناك دعائم متشابكة من الفولاذ، فهو قد درسها من قبل.

ولو صعدتُ إلى الأعلى ماذا بعد ذلك؟ كيف يمكنني الوصول إلى السنونو؟ ألا يمكن لتلك الملايين من الفولتات أن تثور وتقذفني إذا وضعت يدي قرب السلك؟

الشيء الوحيد الذي يمكن عمله هو إحضار أحدٍ ما وإطفاء الطاقة لدقيقة عندها مثل سعدان يمكنني أن أصعد بسرعة

الصوت إلى البرج. ولقد اقترح هذا عند العشاء ليلاً ولكن والده كان غاضباً ومتجهماً حيث لم يره هكذا من قبل.

«اسمع يا بني»، قال والده: وهو بالعادة لا يقول«بني» إلا حين يكون غاضباً جداً من شيء ما.«اسمع، لا أريدك أن تجهد نفسك بشأن هذا الطائر، سأرى أنا ما يمكن فعله. لكن دع أنت هذا جانباً، ولا تضع أي أفكار في رأسك ولا تذهب إلى قرب ذلك البرج اللعين.

«أي أفكار؟ بابا؟» سأله وهو يرتجف من الداخل.

«أي أفكار على الإطلاق».

«إن الطيور الأخرى تطعمه، ولكنه يمكن أن يموت».

«حسناً، إنني متأسف، حاول عدم التفكير به».

عندما أتت أمه ليلاً لتتمنى له نوماً هنيئاً أدار وجهه على المخدة ولم يقبِّلها وهو شيء لم يفعله من قبل، لقد كان غاضباً منهما كليهم الاثنان لتركهما السنونو يتأرجح طوال الليل ولم يقوما بعمل شيء.

لكن أمه ربتت على ظهره وقلبت شعره الفاتح وقالت له، «عمْ مساء يا عزيزي» فصرَّ بأسنانه ولم يجبها.

وكأن عصوراً قد مرت عليه، فالطائر لا يزال معلقاً فوق خط الكهرباء الشاهق، يرتعش بضعف إنه لا يطيق النظر إليه.

في الصباح بعد الإفطار خرج وحاول إكمال بناء قلعته تحت شجرة الصمغ. وكانت الطيور تزقزق في أعلاها وعلى الأسيجة المصنوعة من القضبان والأغصان خلف المنزل، ثم رأى من زاوية عينه طائراً أسود وأبيض، أنيقاً يطير عند الدارات الكهربائية المتأرجحة القريبة من الشجرة ثم جثم على السلك الكهربائي على مقربة من البرج إنه طائر سفّاح وجلاد، طائر كالقرصان النهم الفظيع.

وقف الطائر على السلك بصفاقة يحاكي صيحات الطيور الأخرى، إذ يمكنه تقليد حسون أو طائر الحناء أو بلبل، وهو يخطف صغارها العراة من أعشاشها ويثبتها على السلك الشوكي ليستمتع بأكلها، كما أنه يسرق أغانيها. ثم طار وحط أعلى سلك قرب البرج.

أسرع أندريه بالدخول إلى المنزل والتقط«النقيفة» ووقف تحت الخط الكهربائي، فرأى طيور السنونو ترفرف وتقوم بدورات سريعة حول آكل اللحوم هذا، فانقضت عليه وأجبرته على حني رأسه لكنه بقي جاثماً، ثم أتت زرازير تصيح من داخل شجرة الصمغ وطارت في مجموعة، متوعدة الطائر السفاح فالجميع يكرهه، وقد قام بخطأ ففقد توازنه وطار في الهواء تحيط به جميع الطيور وهي تنقده وتقذفه بحركات مفاجئة وتصيح، فقام الطائر السفاح بإحدى خدعه المعتادة، فوقع

بشكل عامودي وعندما أصبح قريباً من سطح الأرض مد جناحيه واتجه وهو منخفض فوق الشجيرات، ثم صعد إلى أعلى المنزل وحطّ على مانع الصواعق.

وقف أندريه يلهث وقلبه يخفق سريعاً. وفكر في رمي حجر باتجاه الطائر السفاح ولكنه كان يعلم أن الحجر لن يصل إلى سطح المنزل، وعلى الأرجح سيقع في مشكلة مع أهله، فركض باتجاه المنزل يلوح بيديه ويصرخ فرفع الطائر رأسه وراقبه.

فخرجت أمه من المنزل«عزيزي، ما القصة؟».

«ذلك الأحمق موجود على السطح ويريد أن يقتل السنونو».

«أوه، يا عزيزي!» قالت أمه برفق.

وعند المساء وقد كان يوم أحد قال أندريه لأمه:«إنها الطيور الأخرى التي تبقيه على قيد الحياة، فقد كانت تطعمه اليوم أيضاً».

«لقد رأيتها».

«لن يستطيع البقاء لمدة أطول يا ماما كما أن هذا الأحمق يعلم بوجودها هناك!! ألا يستطيع بابا إقناعهم بإطفاء الكهرباء؟».

«لن يقوموا بذلك من أجل طائر يا عزيزي حاول النوم الآن».

وفي اليوم الثاني عندما غادر منزله إلى المدرسة حاول عدم النظر إلى الأعلى، ولكنه لم يقدر على ذلك فرآه هناك ينشر

جناحيـه ثـم يغلقهـما فـصعد إلى دراجتـه وأسرع بهـا قـدر مـا يستطيع. ليس بإمكانه التفكير بأي شيء آخر سوى ذلك الطائر الواقع في الشرك على خط الكهرباء.

بعد انتهاء المدرسة لم يأخذ أندريه الحافلة ليعود إلى المنزل بـل عوضاً عن ذلك استقل حافلة باتجاه مغاير نحو المدينـة، وخـرج من الحافلة في شارع مزدحم وانسل إلى منطقة المصنع واتجه نحو المـداخن الأربـع الـضخمة لمحطـة الكهربـاء، وكـان الـدخان الأبيض يتصاعد بهدوء إلى السماء الـصافية مـن مـدخنتين فقـط، وعند وصوله إلى المحطة واجهه سور بأضـلاع حديديـة تعلوهـا نتوءات شائكة وبوابة فولاذية ضخمة تغلق بسرعة.

حدَّق أندريه داخل البوابة ورأى رجالاً سوداً خارج خـدمتهم، يجلسون على صناديق مقلوبة تحـت الـشمس ويلعبـون بلعبـة تـشبه الداما فناداهم، ليأتي رجل متثاقلاً، يلبس فوق ثيابه بزّة عمـل تقـي ثيابه من الاتساخ ويضع حزاماً جلدياً عريضاً.

شرح أندريه بعناية ما يريـده، إذا كـان بالإمكـان قطـع التيـار الكهربائي ليصعد هو أو أحد أقدر منه لإنقاذ السنونو.

ضحك الرجل ضحكة عريضة مطقطقاً لسانه، وصاح بشيء ما للآخرين فضحكوا. وكما قال اسمه:«غاز - غـاز مـاكبيني»، وهو يعمل في الصيانة إنه لا يستطيع قطع التيار، لكنه فتح قفـل باب صغير في البوابة وسمح لأندريه بالدخول.

ثم بابتسامة كبيرة قال له: «اسألهم هناك». أحبَّ أندريه هذا الرجل «غاز» والمكتوب على ثيابه من الخلف بأحرف كبيرة ESCOM، لقد كان ودوداً بفتح الباب له.

رافق أندريه الرجل ودخلا من تحت قوس عالٍ، وعلى الفور أحاطت به همهمات ضخمة تُوقع رهبة في النفس، جعلته عصبياً، ثم أخذه «غاز» إلى باب فدفعه.

هناك كان يوجد مهندس يلبس بزّة عمل أيضاً، فسأله عدة أسئلة ثم ابتسم. «حسناً»، قال له «لنرَ ما يمكن فعله».

ثم قاده إلى ممر فإلى قادومية بأدراج حديدية متعرجة، ومنها إلى ممرٍ آخر ليصل إلى قاعة بها أقسام وفيها أقراص وأضواء تتوهج ورجال يلبسون سترات طويلة بيضاء ويجلسون على مقاعد عالية أو يتنقلون بصمت، فخفق قلب أندريه بعنف وسرعة.

عند وصوله إلى هناك أصبح صوت الطنين أقوى آتياً من جميع الجهات، وكأن الصوت أصبح إحساساً تحت قدميه.

سلمه المهندس ذو بزّة العمل إلى أحد الرجال الموجودين في قسم المراقبة فأصبح أندريه شديد التوتر بعد كل هذا الوقت لذلك استغرق شرحه عن السنونو وقتاً طويلاً. فسأله الرجل عدة أسئلة فلم يستطع أندريه الإجابة بوضوح وكأن لسانه قد ربط، ولم يبتسم له الرجل مطلقاً.

غادر هذا الرجل ثم عاد ليأخذ أندريه إلى مكتب واسع، فيه طاولة يجلس وراءها رجل بشعر أسود ونظارتين. وعلى جوانب الطاولة هواتف وألواح عليها أزرار ضاغطة، وكانت على الأرض سجادة وكراسٍ جلدية ضخمة.

لم يتفوه أندريه بأكثر من خمس كلمات حتى ارتجفت شفتاه وتدحرجت دمعتان من عينيه، فقال له الرجل،«اجلس يا بني، ولا تخف».

حاول الرجل شرح الأمر؛ كيف يمكنهم قطع الطاقة وآلاف آلاف الآلات تعمل بها؟ فتتوقف القطارات وتظلم المستشفيات أثناء العمليات، وتتوقف المناجم فجأة على عمق ثمانية آلاف قدم، صحيح أن أندريه مهتم بشأن السنونو ولكن هذه الأمور تحدث وهذه هي الحياة.

«الحياة؟» قال أندريه وفكر أنها تشبه الموت أكثر.

فابتسم الرجل الضخم وكتب اسم أندريه وعنوانه، وقال له «عملت جهدك يا أندريه، وأنا متأسف ولن أعدك بشيء».

ومن جديد وعند أسفل الدرج قاده«غاز ماكابيني» خارج البوابة.«هل سيقطعون التيار؟» سأله غاز.

«كلا».

فهزَّ غاز رأسه، لكنه لم يبتسم هذه المرة فقد رأى تعاسة الصبي.

ووصل أندريه إلى البيت متأخراً عدة ساعات وكانت أمه شديدة الاهتياج فكذب عليها قائلاً إنه كان محتجزاً في المدرسة بعد الدوام، وأبعد نظره عن السلك الكهربائي، فلم تكن لديه الشجاعة للبحث عن السنونو، وشعر بالسوء لأنهم جميعاً سيتركون السنونو يموت؟ ولو لم تحضر له الطيور الأخرى الطعام لكان قد مات.

هذه هي الحياة كما قال الرجل...

أفاق في منتصف الليل ليجد أمه في غرفته تلبس الكيمونو، وكان النور مضاءً. فقالت له«لقد أتى رجل ليراك، هل طلبت من أحد القدوم؟».

«كلا، ماما»، قالها وبه دوار.

«انهض من فراشك وتعال» لقد بدت قاسية فتجمد من رعبه. فخرج إلى المدخل ورأى والده بثياب النوم، ثم ظهر رجل ضخم بلباس بني فضفاض وأحرف ESCOM عليها، إنه رجل أسود إنه:«غاز ماكابيني!».

«غاز!» صاح عالياً«هل ستقومون بها؟».

«إنهم يعملون عليها الآن»، أجاب غاز.

ثم جاء إلى المدخل عامل الأسلاك وسائق الشاحنة، وأخبر عامل الأسلاك والد أندريه أنهم أخذوا أمراً بإغلاق مفتاح الصيانة عند الوقت الأدنى لعمل الطاقة، وطلب منه أن يريه موضع الطائر، فرمق أندريه والده بخوف، فأومأ له وقال، «أرهم».

ذهب مع عامل الأسلاك والسائق وغاز إلى داخل الشاحنة واستغرق الوقت خمس دقائق فقط لوضع الشاحنة تحت البرج، فتفقد عامل الأسلاك الوقت وبدؤوا بالصعود على السلم الممدود. ثم ثبتَ غاز بكلاّب سلسلة في حزامه العريض ولبس خوذته المثبت عليها مصباح وتأرجح على السلم راكضاً وكأنه لا وزن له، وعند وصوله بمحاذاة عوازل البرج، رأى بوساطة بمصباحه الطائر المعلق على السلك غير المكهرب. ثم انحنى وبرفق فك مخالب الطائر الصغيرة والمعلقة على عقدة السلك ثم وضع السنونو في الجيب الداخلي لبزّة العمل.

وخلال دقيقة نزل إلى الأسفل من جديد وأمسك الطائر وأعطاه للصبي، فاستطاع أندريه أن يرى حتى على ضوء المصباح أن للسنونو أهداباً رمادية باهتة عند حوافي ريشه

الأسود والأزرق اللامعة وهذا يعني أنه طائر صغير السن، بل إنها سنته الأولى. فوقف أندريه صامتاً وهو يحمل السنونو بين يديه وقد شعر بارتعاشه الخفيف.

«شكراً»، قال،«شكراً«غاز». شكراً أيها السيد».

وفي المنزل أخذ والده الطائر وذهب ليفتش عن صندوق لحفظه بعيداً عن القطط.

«اذهب الآن إلى سريرك»، قالت له والدته«لقد حصلت على إثارة تكفي لنهار واحد».

ثم شرب السنونو وكان شديد العطش، لكنه لم يأكل شيئاً قدّموه له، وفكر الوالدان أنَّ من الأفضل إخلاء سبيله عندما يستطيع الطيران.

فيما بعد أخذ أندريه الصندوق إلى قلعته عند شجرة الصمغ ونظر إلى شجرة الكوبي وإلى السلك الكهربائي، وحمل الطائر في يده فظل فيها دون حراك وأطراف جناحيه متعاكسة.

فجأة قفز قفزتين صغيرتين بمخالبه الصغيرة وفرد جناحيه النحيلين، ثم ضرب بهما بشدة في الهواء ولكنه سقط على الأرض.

انزلـق خطـوة إلى الأمـام فـوق العـشب وتـذكر بعـدها كيـف يعلـو بجناحيـه ثـم ازداد ارتفاعـاً، وارتعـش قلـيلاً بفـرح وكأنـه أدرك أنه حر[1].

(١) بهذه الأقصوصة يظهر التقدير لكل الأعمار وكل الأجناس البشرية بيضاء وسوداء وعلى أهمية الحرية لكل كائن - إنها قصة ضمير -.

اليوم الرابع للميلاد[1]

بارني سايمون

حضر اللصوص ليلة الثلاثاء في الثامن والعشرين من شهر كانون الأول، وكان يوماً جميلاً، وذلك بعد انقضاء عيد الميلاد، وكان أيضاً يوماً جميلاً، وسيأتي عيد رأس السنة. وفي تلك الليلة، ليلة مجيء العصابة تجادلت مع جدتي حول وضع الصندوق عند الباب، ولكنها لم تكن تريد فعل ذلك. ثم نادتني، كوكي، وهذا ليس اسمي الذي ولدت به بل نشأت عليه، وطبعاً لم أولد أصلع كما أنا الآن وفي الأربعين من العمر. في كل الأحوال، قالت لي:«كوكي» في إحدى المرات كنا نتحدث عن بعض القوانين بوجود آخرين وكان في بعض منها

(١) وحتى لا يظن القارئ أن الضمير هو الذي يحكم كل سلوك البشر، كما في الأقصوصة السابقة، وضع محرر هذه القصص هذه القصة؛ التي يظهر كيف يغلب الحقد المكبوت أفعال الضمير بالغل المعلن حين السيطرة العرقية للمضطهدين.

ما يستحق الاهتمام؛ كمثل: إن البيض يجب أن لا يناموا مع سكان البلد الأصليين، وكانت تقصدني أنا و«مارثه» فقلت لها: جدتي، حسناً إذا ناديتني«كوكي» فسأنام مع الكافيرز (وهم مجموعة شعوب في جنوب أفريقيا) وإذا ناديتني روبرت فسأنام وحدي؟ ثم قالت: كما تريد يا كوكي يمكنك وضع الصندوق عند الباب ولكن عند الصباح عليك إبعاده عن طريقنا ولا تحسب أنك تستطيع أن تتسلل من خلال النافذة والعمل كما في الأيام السابقة.

نستطيع أنا وليلي أن نتدبر أمر الطاولات والكراسي وطاولة المكتب ولكن ليس الصندوق، فلن أسأل كل من سيأتي لزيارتي للتسلق عبر النافذة؛ كما أن عليَّ التنقل بين الداخل والخارج. فقلت لها: حسناً يا جدتي لا تقلقي سأعاونك في الصباح ولكن أيقظيني عند الساعة السابعة إلا ربعاً فأجابتني: قل أيقظيني ولا تقل إلا ربعاً واذهب من أمامي، فأنا لا أطيقكَ وأنت في هذا المزاج، ولكنني أعلم تماماً ماذا يجري. إنك تفكر بمدى كرهك لهم ورغبتك في ضربهم والخلاص منهم، حسناً أقدّر لكَ اهتمامك ولكن هذا ما كان ينقصني في حياتي أن أفقدك، فباعتقادي أن حفيداً ميتاً مثل لا حفيد، لذا إن قمتَ بعمل غبي فسأقتلك أنا.

حدث هذا الجدال بيني وبين جدتي والحديث عن حضور اللصوص كما قلت يوم ثلاثاء، وكان يوماً جميلاً، واعتقدت أن

اللصوص سيأتون بالرغم من أن جدتي قالت أنهم سيكونون منغمسين بأجواء العيد، كما أنهم كانوا قد قاموا بزيارة عائلة هندرسون وبرودزينسكي من قبل، أما أنا فقد اعتقدت أننا سنكون مباشرة بعدهم.

وقالت جدتي: أنا أعتقد شخصياً أننا نضيع وقتنا في جر هذا الصندوق هنا وهناك، علينا فقط أخذ الاحتياط بشكل عادي، تكفي فقط طاولة الطعام والكراسي وطاولة المكتب.

أتذكرين، قلت لها، عندما وضع آل روزنس صندوق الرجاء (وهو صندوق تضع فيه الفتاة جهازها) لـ(أنابيل) والسرير خلف أثاث غرفة الطعام والتي بدورها كانت خلف الباب، طبعاً وحده الله يعلم لم انسحبوا وعوضاً عن ذلك ذهبوا إلى منزل آل فينترز. فهزت جدتي كتفيها وبدأنا بجر الصندوق معاً، فهي كانت تدفعه وأنا أسحبه، ثم ثبّتنا بإحكام ظهر كرسي تحت قبضة الباب، وكرسيين آخرين على الباب، ودفعنا بطاولة غرفة الطعام باتجاه كل هذا ثم طاولة مذاكرة أختي الصغيرة ليلي، ومن ثم وبكثير من اللهاث والنفخ وضعنا الصندوق الأسود الكبير والقديم وراء كل هذا. أووف، قالت جدتي، هذا عمل شاق يكفي لأسبوع، سأقفز مباشرة في ماء حمام ساخن لطيف ومن ثم إلى السرير، فقلت لها، هذا شيء مضحك حقاً، ألا تذكرين ما حدث لمجموعة

كريستال السيدة كينيدي، ونسخة لوحة«زينوار» للسيدة دي توات؟ يجب علينا أخذ الحذر!

فقاطعتني جدتي وهي تتنهد، حسناً حسناً، أنت خذ احتياطك وأنت قادر على ذلك، أما عندما تصبح في عمري...

تعالي يا جدتي، قلت لها، وماذا عن أغطية الأسرّة التي ورثتِها؟

أوه نعم، قالت، سأمدها بين الصحف وأدسها تحت سجادة حجرة الجلوس!

وماذا عن حَلَق أذنيك المتدلي؟

سأرفعهما على ثريا حجرة الجلوس، قالت.

والكؤوس؟

مباشرة خطت بسرعة من جانبي وذهبت إلى أريكة غرفة الجلوس لتضعها هناك، وقبل أن أتفوه بكلمة رفعت الوسادة المركونة في وسط الأريكة وظهرت ثيابي الداخلية الوسخة.

فصرخت جدتي وقالت، أهذه لك يا كوكي؟

فقلت لها، لا تكوني سخيفة، من كان يزورك مؤخراً؟

التقطها، قالت جدتي؛ أنت الصبي هنا، فأخذتها بين إبهامي والسبابة وقلت: تركوها عند مجيئهم آخر مرة؟

ارمها في سلة المهملات، قالت لي. ثم وضعت الكؤوس بشكل منبسط فوق قاعدة الأريكة وغطتها بوسادة كبيرة لينة.

أمن الحكمة القيام بهذا؟ قلت لها.

حسناً، دعها تفحُّ رائحتها! وأقصد بذلك الكؤوس.

ثم قالت، أوه إنها بأمان مثل المنزل، وماذا عن ساعات أيدنا؟ ثم انتزعت ساعتي من معصمي وأخذتها مباشرة ووضعتها خلف الخزائن في المطبخ!

بسرعة كان كل شيء مخبأ، وهادئاً، فأختي ليلي كانت نائمة منذ ساعات، أما جدتي فهي الآن في المغطس وأنا في سريري قلق بشأنها لأنها بدون نظارات.

وبعد أن أفرغت حوض الحمام، اجتازت بسرعة الممر حافية القدمين، سترى، قالت متلعثمة بدون أسنانها، لن يأتوا هذه الليلة.

من الأفضل أن تضعي طقم أسنانك في فمك بحال أتوا، أو ربما أتى معهم ذلك العملاق!

وجهة نظرك صحيحة، قالت. وبخطوات سريعة عادت إلى الحمام، بعدها سمعت سكسكة ناعمة هي تعطي ليلي«النونية»، وبسرعة أصبحت في سريرها وأصوات صرير تنبعث منه. من هناك نادتني: نم جيداً يا كوكي. ومن ثم علا صوت الشخير

ولمدة طويلة جداً كان شخير جدتي هو الصوت الوحيد في الليل عدا عن تنهيدة عبر الممر آتية من سرير أختي ليلي الصغيرة.

سمعت صوت شاحنة كبيرة وهي تتوقف في شارعنا، وأبواب تغلق بعنف ثم أصوات أقدام تنزل على الرصيف، بعدها توقفوا لفترة قصيرة عند بيت برودزينسكي، هكذا بدا لي، ومن ثم تحركوا فخرجت بسرعة من السرير وزحفت إلى الجانب الآخر لأختلس النظر من النافذة، وأتأكد من وجودهم هناك. إنهم صبية وصلوا تقريباً إلى البوابة الخارجية، وكان واحد منهم يحمل ساطوراً وآخر وهو يشبه المسخ، يحمل آلة للثقب أما الاثنان الآخران فقد كانا قصيري القامة ويحملان شيئاً يشبه جذع شجرة. أما الصبي الخامس والذي كان يعطي الأوامر فقد كان طويلاً جداً ونحيلاً جداً وشاحباً جداً.

والواقع أنني غضبت وفكرت في الصراخ عليهم أو إلقاء زيت دوار الشمس الساخن فوقهم، لكنني احترمت رغبة جدتي وكبحت رغبتي، فزحفت عائداً إلى سريري وانتظرت.

ولم أسمع بعدها أيّ صوت أو كلمة من الخارج، ولا حتى من جدتي أو ليلي، ثم بدأت أصوات أقدام (نحو عشر) تصعد إلى ممر بيتنا ومن ثم صوت تحطم وتكسر مرعب، فذهبت بسرعة من جديد إلى النافذة كان الرجلان الصغيران يستعملان

جذع الشجرة وكأنه الكبش[1]. ومن الجهة الأخرى للطريق رأيت السيد دي توات يختلس النظر إلى الخارج من نافذة غرفة نومه، لابد أنه كان يراقبني لأنه أشار لي بإبهامه إشارة سريعة للتشجيع. فانحنيت إلى الأسفل من جديد عندما بدأ المهاجمون استعمال الساطور حيناً وآلة الثقب حيناً آخر، فعدت وانزلقت في سريري.

كوكي، سمعت جدتي تطلق صوتاً حاداً من سريرها. أشكرك كثيراً. لن يستطيعوا الدخول وكله بسبب صندوقي الهولندي!

صه، لكن قبل انتهائي من الهسهسة أتت تجري بسرعة ودخلت من الباب ثم أصبحت في سريري. لن تمانع يا كوكي، قالت جدتي، أن أحضنك فإنها تريحني.

وعليّ القول: إنني شعرت بالارتياح أيضاً بالرغم من أن عظام جدتي كانت تؤلمني، وإذ بنا نسمع شيئاً يندفع ثم ينسحق وبعدها صوت صرير، عندها بدأ الباب يقع أرضاً.

إن ذلك الصندوق لأعجوبة همست لها، أرى أنهم يستسلمون.

---

(١) هي آلة حربية كان القدماء يستعملونها لدك أسوار المدن المحاصرة.

فقهقهت جدتي وأنهتها بصفرة وكانت متوترة.

أين أسنانك؟ قلت لها متذمراً وأنا في الظلام.

أوه!! قهقهت أيضاً، ثم جلست، لابد أنني تركتها تحت المخدة.

حسناً، أسرعي، ودفعتها خارج السرير، وبدّلي ثياب النوم وإلا ستكون هناك مشكلة! فذهبت إلى غرفتها مذعورة. أما أنا فلم يكن بسروال نومي ربطة، وفكرت في ارتداء ثياب لائقة حتى أكون خفيف الحركة عند الحاجة ولكنه الجحيم، وبقيت ممدداً وأصوات التقطيع والنقر تعلو، وكذلك صوت السحب والجر يعلو ويعلو من الأسفل، ومن الواضح أن كل ما عملناه قد انهار، ولم يبق شيء يفصلنا عنهم سوى الأثاث، ليحمِ الله صندوق جدتي كما فكرت وفجأة عادت إلى سريري وهي بكامل أناقتها، بصراحة جدتي قلت لها: ماذا لو صعدوا إلى هنا؟

سيطلبون الإذن منا، أليس كذلك؟ قالت لي.

أليس عندكِ حس ولو قليل بالكبرياء؟

كلا. قالت: لا شيء من هذا!!

ثم بدؤوا بسحب شيء ما، وعادت أصوات النقر والتقطيع من جديد، وداعاً يا صندوقي. تنهَّدت جدتي.

فقلت: حسناً، مواسياً لها، بالواقع كان هناك إمكانية لأن تنجح خطتنا.

ثـم سـمعنا أصـوات دفـع وسـحب في أسـفل الـدرج وتلتهـا أصوات أقدام وصوت رجل يلهث.

هذا يكفي، قلتُ، أليس من الأفضل الآن يا جدتي أن ننـزل إلى أسفل الدرج ونرى إن كان بإمكاننا إنقاذ شيء ما بالحيلة.

ليس مقابل حياتك، قالت جدتي، أنا سأبقى!

لتغريهم بالقدوم إلى هنا؟

بالحقيقة، قالت جدتي، عندك حق. على أية حال من الأفضل أن نـشغلهم. فأغطيـة أسرة جهـازي يبـدو حجمهـا أكـبر ممـا اعتقدت، إنهم يستطيعون رؤيتها من تحت السجادة.

حالاً، قلت لهـا، وقفـزت مـن الـسرير ممـسكاً ببيجـامتي وأنـا أقول«أوبس».

ونزلنـا عـلى الـدرج معـاً. كنـت أنـا في المقدمـة أُحكِـم تثبيـت بنطال بيجامتي بعقدة محكمـة مـن الأمـام، أمـا جـدتي فقـد كـان شعرها الرمادي المربوط من الخلف يتمايل كـذيل الفـرس. أوه! قالـت جـدتي بهمـس، كنـت متأكـدة أنهـم لـن يـأتوا، فلقـد كـان موسم الأعياد جميلاً.

كـان العمـلاق ينتظرنـا عنـد أسـفل الـدرج. هـل أنـتم مجـانين؟ صرخ بحدة، كنـتم عـلى وشـك قتلنـا بـسبب ذاك الثقـل! وكزتنـي جدتي قبل أن أجيب، أما البقية فقد كانوا لا يزالون يقذفون حطـام

الأشـياء لفـتح طـريقهم، وبالكـاد اسـتطعت تمييـز الـصندوق. «ماهوغـاني» دمـدمت جـدتي، إنـه صـندوق هولانـدي قـديم مـن خشب الماهوغاني.

لقد اعتقدت أنه من الخشب النتن همست لها.

هذا ما كنت أنا أيضاً أقوله! وحملقت بي.

حسناً أيها الشباب قلت بمرح: لقد أتيتم بسرعة كبيرة! فإننا لم نعوض ولا ربع ما أخذتموه المرة الماضية! لقد كانوا مـصطفين خلف قائدهم. هذا يكفي، عندما نَبَح وكان طويلاً ونحيفاً، ماذا لديكم لتصرحوا عنه؟

نصرّح! هتفت جدتي بتعجب، شكراً جزيلاً لكم، ما عليكم سوى التقاط تلك الأجزاء المحطمة على الأرض، وستكون كل ثروة العائلة بين أيديكم!

مجوهرات؟ قالها القائد بإلحاح، لقد كانـت عيناه مثـل شـقين صغيرين باهتين فضحكت جـدتي بمـرارة، ثـم انتقلنـا إلى غرفـة الجلوس. ألديكم كؤوس أخرى غير هذه؟ همس العملاق لنـا. إنه هو ما قالت جدتي. ثم كرر من جديد، كؤوس، نظارات لقد كسرتُ نظارتكِ المرة السابقة - عظيم - ولم أجد نظارات أخرى عوضاً عنها.

كلا ولا أنا! قالتها بغضب وازدراء.

حسناً! صرخ القائد، إلى أماكنكم أيها الرجال!

فساروا بسرعة وخرجوا من القاعة وظل القائد فقط والعملاق. العملاق وحده بقي لحراستنا، ثم سمعت صوت الشاحنة هائجاً وهي ترجع إلى الوراء داخل الشارع وتقف عند مدخل منزلنا.

إلى أماكنكم! صاح الزعيم.

منتظرين الأوامر! علت أصوات ثلاثة منهم في أنحاء متفرقة من البيت. فجلس العملاق على الوسادة الموجودة وسط الأريكة، وعلى ما يبدو أنني وجدتي فقط سمعنا صوت نظارتها تتكسر من تحته. خنزير؛ هَمَست باستهجان من بين طقم أسنانها المثبت، وكبتت ضحكة.

ابدؤوووووا! صاح هادراً، ثم بدأ ينادي ويقوم بوضع علامات شيفرة على كتاب صغير أسود.

فواكه موسمية؟ تفاحتان وإجاصة واحدة!

حمضيات؟ برتقالة واحدة ونارنجة واحدة!

فواكه استوائية؟ نصف ببو[1] وحبة أناناس واحدة!

(١) شجرة من شمال أميركا ذات زهرات أرجوانية وثمر أصفر يؤكل. الثمرة اسمها البَبْو. (المترجم).

خضراوات ورقية؟ خسة واحدة!

لا يوجد سبانخ؟ لا يوجد سبانخ.

إنه يحبها بجنون، همست جدتي، ثم ضحكت.

لا يوجد ملفوف؟ لا يوجد.

خضراوات الجذور؟ ٦ رؤوس بطاطا.

مناشف؟ أربع للصحون!

ثلاث للحمام!

أربع لليدين!

وسادات؟ أربع ريش، واحدة منفوخة!

صور؟ صور فوتوغرافية دون قيمة تجارية

قل د. ق. ت. د. ق. ت؟

دون قيمة تجارية!

فرش؟ اثنتان للكبار واحدة... د. ق. ت.

الأسباب؟ نوابض ناتئة.

في كل الأوضاع؟ في كل الأوضاع.

كراسٍ؟ واحد.

واحد؟ الباقي مكسر عند المدخل!

أقلام؟	واحد بريشة وواحد مستدير.
آلات تصوير؟	واحدة.
بحبر؟	بحبر فوّار.
لا تعمل؟	لا تعمل.
ضعها تحت الألعاب	كما تأمر!
سكاكين؟	خمس عشرة سكيناً للسمك!

ثم سمعنا من المطبخ أصوات طقطقات معدنية

أوه - ٨ عادية!

سبع شوك

خمس ملاعق للفواكه - بل ست

واثنتان للشوربة!

«ليلي» لا تلمس هذه الأشياء أبداً، قلت له.

من في المطبخ؟ سأل القائد بغضب وقد تجاهلني.

فقال العملاق، إنه الصغير. ضعه مع الحمولة ليخدم في الشاحنة، وخذ مكانه! أجابه القائد.

كما تأمر! فخرج العملاق مسرعاً من غرفة الجلوس.

فوراً! نادى القائد وهو يذرع الغرفة فوق شراشف جهاز جدتي. ثم قال: بياضات!

فضحكت جدتي ضحكة خافتة دون إرادة منها، وانضممت إليها ضاحكاً.

ما أمركما؟ قال وهو يراقبنا بارتياب. فوضعت جدتي يدها على فمها بمهارة وكأنها تتحَّسس وجعاً ما في أسنانها، أما أنا فقد قرصت فخذي.

بياضات! كرر من جديد ثلاثة شراشف طاولة

ستة شراشف للكبار

د. ق. ت!

الأسباب؟ بالية!

فضحكت جدتي بصوت مرتفع، وقرصتُ فخذي من جديد.

اثنان قطن

د. ق. ت!

الأسباب مبلولة ولا يزال فيها طفل.

هذا لصالح ليلي، همست لجدتي.

فأومأت مبتسمة ابتسامة عريضة وقالت: ولقد أعطيتها النونية أيضاً!

ثم سمعنا الصبي الضخم يضرب بعنف على خزائن المطبخ. فتبادلنا أنا وجدتي نظرات يأس. الساعات همست لها، فلحست جدتي شفتيها، أيها السادة! صرخت رافعة يديها، موسيقا؟

فتوقـف الجميـع، وعـادوا إلى غرفـة الجلـوس ليحـدقوا بهـا. ليـساعد الله جـدتي، هكـذا فكـرت، لـو خطـر لهـا أن تحـضر أسطواناتي والآلة المشغّلة لها! فالبيانو انتهى أمره عند المتراس الأخير الذي وضعناه، وكأنها قرأت أفكاري فغمزتني للطمأنة، وبدأت تـدور في الغرفـة وتدمـدم أغنيـة الـدانوب الأزرق، بيـنما شعرها المعقوص في أعلى رأسها يندفع بقـوة، ولكـن في الوقـت الـذي وصـلت فيـه إلى الترنيمـة الثانيـة تثـاءب الـدب الـسمين الـضخم وعـاد إلى المطـبخ، وقبـل أن تـصل جـدتي إلى الترنيمـة الثالثة، صرخ من دون أن يسأله: أحد ساعتا يـد! وهكـذا كـان، فجلـست جـدتي عـلى الأريكـة وصـفق لهـا الجميـع بتهـذيب ثـم تفرقوا... بعد ذلك ودون سابق إنذار ومشى القائد بكل هـدوء نحو الثريا ورفع يده وهزها فوقع حلق أذن جدتي على الأرض، خنقـت جـدتي تنهيـدة عميقـة، وبـدت نحيلـة جـداً، وطاعنـة في السن. جلست بجانبها واحتضنتها، واستأنف الـزعيم الـصراخ وإعطاء الأوامر: مواد غذائية - معلبة - نيئة - أثـاث - طـاولات تحطمـت عنـد المـدخل - أسرّة - سـجاد - د. ق. ت - باليـة - أريكـة - د. ق. ت - الـسبب - تتـداعى - مـصابيح - سـبعة - واستمرت هكـذا أصـداء أصـواتهم تعلـو وتعلـو ليفـرغ منزلنـا، وتتكـوم ممتلكاتنـا عاليـاً في الخـارج، فحـضنت جـدتي برفـق. وشاهدت من خلال نوافذنا التـي أصـبحت دون سـتائر منـازل

جيراننـا ورؤوسـهم التـي تعلـو وتـنخفض مـن وراء عتبـات نوافذهم. ثم صرخ الزعيم، طواقم أسنان! فنزعت جدتي طقـم أسنانها بضجر، وعاد العملاق من المطبخ فانتظرها وخطفه مـن يدها ليضعه مباشرة في فمه.

لو أنكَ تعلم كم تبدو سخيفاً، قالـت لـه جـدتي بترفـع وهـي تلثغ، فطرف بعينيه متغاضياً.

في النهاية توقف الزعيم وهو مـتردد، وبـدأ يخطـو إلى الخلـف وإلى الأمـام بيـنما كـان ينهـي الآخـرون تحميـل الـشاحنة. فجـأة توقـف عـن المشي وحـدق بنـا بعينيـه الـصغيرتين والبـاهتتين!! حسناً، همست جدتي بانكسار، أرجـوك هـذا يكفـي، مـاذا تريـد أكثر من ذلك؟.

جنس، قال:

جنس؟ كررتها جدتي بسأم. مع مـن؟ معي أو مع كـوكي؟ فأمسكت سروال بيجامتي بقوة؟ أنت قال لها.

ولكنني في الثامنة والسبعين مـن عمـري. قالـت لـه: أي مثـل الثمانين، وأنوثتي النشطة قد انتهت منذ ثلاثين عاماً، ثم توقفت عن الكلام وتنهدت.

إذا قَبلتُ، قالت بشكل آلي، ألـن تتوقـف عـن البحـث مجـدداً عن شراشف جهازي؟

عن ماذا؟ سألها.

لا عليك كوكي، قالت: استدر إلى الخلف من فضلك، إنه منظر مؤلم لعيني حفيد، فأنزلت سروالها الداخلي وبدأت برفع تنورتها، فتحولتُ إلى النافذة ومن بعدها سمعت صوت الزعيم يهزهز ويلهث فوقها فوقفت أراقب من وراء نافذتنا تلك الرؤوس الصغيرة في جميع النوافذ الأخرى، بينما القمر يمر عبر الغيوم بخفة ورشاقة فبدأ الصبيان بالصراخ بعد أن أنهوا تحميل الشاحنة، ولم أستدر بل سمعت جدتي تبكي، وبعد دقيقة كان الزعيم يمشي خارج الممر وهو يبصق ويغلق سحاب بنطاله، ثم سمعت صوت الشاحنة تهتز وتمضي باتجاه الشارع. انطفأت عندها أنوار الجيران، وقالت جدتي: كوكي كنت مذهلاً. فخرجت من الغرفة وتجولت في أنحاء منزلنا الفارغ، وحاولت أن أغلق صنبوراً كان الماء يرشح منه فآلمتني يدي دون أن أقدر على إغلاقه، وخلال تجولي رأيت أن الباب الخلفي لم يعد موجوداً وسمعت من جديد هدير محرك الشاحنة يزداد ثم استدارت لتأخذ الطريق السريع، عندها نادتني جدتي فعدت إلى غرفة الجلوس وجلست بجانبها على الأريكة، وضممتها.

كن حذراً يا كوكي، قالت لي. لقد كانت متألمة فقبلتها من جبينها.

وفي الغرفة المظلمة العارية من الأثاث جلسنا لمدة طويلة إلى أن بزغ أول ضياء في السماء فرفعتُ السجادة البالية وأخرجت شراشف جهازها، وضعته على ساعدي، وبيد أمسكت سروال بيجامتي، ثم ساعدت جدتي للقيام باليد الأخرى ومشينا ببطء خارج البهو متكئين على بعض. أراحت جدتي رأسها على كتفي ثم همست ونحن نصعد الدرج إلى الأعلى، لقد كان الصندوق من خشب صلب نتن.

صرخة في وضح النهار

جيليان بيكر

كان رأس الآنسة غريفيث مستديراً وكانت جفونها نصف مفتوحة ورقيقة حتى إن الهواء يكاد يخترقها، ويمكن أن يكون رنين إصبع القدر هو الذي نظم إيقاعها، وأخرج صوتها الرفيع والحاد من قفصها العظمي متنقلاً من نغمة إلى أخرى، إذ إنها لم تغنِّ أبداً أغنية كاملة. هذه هي معلمتي للبيانو، فلقد كانت أصابعها نحيلة ولم تكن بحاجة لقلمها لتضربني به على مفاصل أصابعي، وكان عليَّ أن أنتظرها عند البيانو مستعداً فلا أعلم في أية لحظة قد تصل، لذا يجب أن تكون أوراق النوتة مفتوحة في مكانها على الحامل وغطاء البيانو مرفوعاً، والكرسي في مكانه بجانبي وكانت أمنيتي دائماً أن أؤجل قدومها لدهر أو اثنين، ولكنني كنت ألتزم بالوقت رغم فزعي، فأنزلُ على الدرج متمهلاً بقدر ما أستطيع من التمهل وأنظر لوقت طويل في كل صورة معلقة، وتنحدر هذه الصور كانحدار الدرج، أما لوحة

«صرخات لندن» فلا يمكن رؤيتها بوضوح لأبعد من قدمين، لذا كان مطلع الدرج أنسب مكان لوضعها، فكنت أقرؤها وأنا أنزل ببطء حتى لا أفكر بقدوم الآنسة غريفيث!! لقد فكرت بمعلمتي ما يكفي لفترة طويلة وبقوة حتى إنني حددت مصيرها ومستقبلها ووصلت إلى حد أنني رسمت وجودها النهائي فزوّجتها؛ لقد زوّجت الآنسة غريفيث معلمة البيانو لرجل عتقي[1] طاعن في السن. فالزواج كان مشكلة للآنسة غريفيث وسأشرح هذا لاحقاً، وعلى ما يبدو لقد كان الزواج لها حلاً مجرباً وقديماً، إنه الحل التقليدي بالاستناد إلى الروايات في الكتب، وإلى قصص ونصائح وأحاديث مختلفة ووعود بالجنة من الأهل وجميع معلمينا ومرشدينا، بدءاً من القابلة التي تسحبنا حتى حفرتنا على يد الكاهن.

«أيمكنك شراء بنفسجاتي؟» قرأتها في أسفل إحدى اللوحات.

ولكن عليَّ الآن أن أشرح عن العريس الذي اخترته لها.

كان هناك رجل عتقي طاعن في السن، وهو أسوأ رجل على الإطلاق، يأتي إلى شارعنا ثلاث مرات في السنة وهو يصرخ بصوت غريب«آردي يااااها!» وكان لعربته دواليب من ثمانية

(١) رجل يشتري الملابس والأدوات العتيقة من البيوت.

أضلاع، وعندما يجرها تعلق بالإسفلت من تحتها، فيرتجف كل ما يعلو فوق سطح الأرض ويهتز، وتئن وكأنها تموت أو تستسلم، وفي داخل العربة أسمال بالية وكريهة تتناثر فوقها زجاجات عفنة محدثة ضجة، ولم ألمح أي عظام فيها، ولكنني كنت على يقين من أنه جمع الكثير منها؛ كعظام أفخاذ وسيقان وجماجم كانت لرجال نحيلين، لذا أمكن سلخ جلودهم بسهولة كما تُسلَخ قشرة البندورة وهي ساخنة، وأيضاً عظام النخاع نصف المأكولة وقد انتزعت من أفواه كلاب هزيلة في الأزقة، مما زاد خوفي منه. كنت ليلاً عندما أتمدد باتجاه الحائط، أسمع من خلال الآجر وورق الجدران وقع خطوات تتسلل على بساط الدرج، إنه الرجل المرتد القذر العتقي، قادماً بأظافره الحادة وعينيه الحمراوين، متسلقاً الدرج الملتف باتجاه باب غرفة نوم الأطفال... عندها أسمع وقع الخطوات وصوت الصرير المعتاد، وكنت لسعادتي أغفو قبل أن تصل هذه الخطوات إلى فسحة الدرج في الأعلى.

الآن أدركت أن طريقة صراخنا في تلك الأيام الثلاثة التي يأتي فيها كل سنة هي طريقة صراخه. لقد كان ينادي على المشترين والبائعين عن سلعه البالية، ولكن أحداً على الإطلاق لم يأتِ من بيته مسرعاً في شارعنا، - فقد كنت أقف عند البوابة

وأراقبه - ليتعامل مع هذا البائع الذاوي المتجول الذي يتاجر بكل ما هو بالٍ ومع هذا فهو يأتي ثلاث مرات كل عام صائحاً. ربما هذا الصراخ كان كافياً له، كما كانت طريقة صراخه ودفعه لعربة يده وتضاؤله وذبوله سنة بعد أخرى. لكن عند مراقبتي لجولته القصيرة لم أكن أشعر بالرضا تجاهه، ربما هذا ما كان يريد وربما أكثر من ذلك، ولهذا السبب كان يطاردني في الظلام وفي كل مكان سوى أحلامي.

نادراً ما كان يدفع عربته بالواقع إلى عالمي، لكن أحياناً وفي أوقات غريبة عندما كانت أمي تضع جانباً ورقة تكتب عليها ولم تنهها لأجل الذهاب إلى لعبة الكروكيت، وتتنهد لأنها لم تحرز ما كانت بصدده فتخرج إلى المروج الخضراء، عندها يأتي الرجل العتقي إلى شق الباب، فأسمع صريراً وأنتقل من مكاني.

ولم يتزامن أبداً، على ما أذكر، يوم مجيء الرجل العتقي مع أيام مجيء الآنسة غريفيث إلينا، فصيحاته لم تقطع درسنا مطلقاً، فقد كانت تنقر بقلمها الأحمر الثخين على حافة البيانو وتغمض عينيها الخضراوين وترسم بيديها النغمات فتدخل إلى داخل جسدها المتصلب وكأنها تستنزف هذه الآلة. لكن أقولها وأنا آسف إن هذه الآلة لن تجف أبداً، ويخطر ببالي الآن أن مجيئها مرتين في الأسبوع يُحضرُ لذاكرتي دائماً رجل العربة. فجأة أدركت أنها تبكي لسبب

ما، صحيح أن عينيها دائماً كانتا مبللتين وترشحان قليلاً، فكانت تبقيهما نصف مغلقتين وكأنها تحتفظ بأسرارها، ولكن أمي كانت تعرف كل تلك الأسرار وتخبر عنها.

لقد كانت أمي تناديها «بسن» المسكينة. فكل شيء كان محرجاً في جسدها ليصبح مشكلة، تتعذَّب على ما تبقى من حياتها، إن لم يتحقق شيء مما كانت تتوق إليه، ولكن نشاطها الكثير أخفى ما كانت تتوق إليه، ولقد شمل نشاطها من وقت لآخر التمريض، والكثلكة وجمع الطوابع البريدية، والحب، وصنع المجوهرات وحبك دوائر لأشرعة الأسطول التجاري، والكتابة في مجلة «كريستشان ساينس» وترجمة سيرة مختصرة لبول غروغر، ووسيط لجلب الأرواح، وفي السفر وصداقة مع عضو من جمعية فابيان[1]، وفي الإيقاع والرسم المائي وفي مهرجان أدينبرغ الذي يقام مرتين وفي تبادل رسائل مع ناقد إنكليزي قليل الشأن، وشرح موجز لتعاليم موسى، واليوغا وتعليم العزف على البيانو لقد كانت هناك أشياء امتلكتها إما بالوراثة أو بالاكتساب من خلال مشاريعها، وبطريقة ما فقد اختزلت هذه الأشياء، (عدا البيانو الذي لم يكن من الممكن

(١) وهي جمعية إنكليزية أنشئت عام ١٨٨٤، سعى أعضاؤها إلى نشر المبادئ الاشتراكية بالوسائل السلمية. المترجم.

اختزاله) إلى أشياء لا قيمة لها وبالية، مثل: بقايا صوف عوض عن الشالات التي كانت هدايا لبحارة، أو قطع زجاج يذكرها بالتمريض، وخرز وأحجار وأسلاك لمجوهرات تذكرها بأيام الكثلكة، وورقة طابع، لوحة، حروف للطباعة، وبحث في التاريخ. وربما كان هناك أيضاً قطعة من العظم لتذكرها بالحب. لقد كان لديها حطام وأنقاض كثيرة لتتخلص منها إذا شاءت ذلك، لكنها حشرتها في مكان ما داخل سلة صفراء رقيقة في حياتها، وهي دائماً وفي كل لحظة على حافة القيام بأعجوبة، ففي غرفة الجلوس الأنيقة التي كنت أودعها منها عند مغادرة منزلنا، والتي يمكن أن تكون لكل من أعرفه، تصورت أنها كانت مجهزة بطابة من البللور للسحر، ورزم من ورق اللعب السحرية أيضاً، وكتل من المخطوطات التي تحرض على الحب ضد إرادة الله، وتدفع يسوع مع موسى إلى الغضب الشديد.

كانت هذه الغرفة، كما تصورتها، تقع في شارع ضيق، في أعلى البرج، وكانت هي تصرخ مثل جرس كنيسة سنة بعد سنة دون أن تحقق أهدافها، إلا من بعض رزم من ورق اللعب، ومن المؤكد أنه لشيء محزن أن تتكئ على النوافذ وتلوح منادية؛ وكأن هدير الرعد ليس جواباً لندائها؛ لشخص يمر على الطريق أو على الجسر، لكن هذا الشخص لا يلتفت إليها أو يلوح لها أو يفرغ عبر الهواء الذي في عالمها. مع ذلك، تبقى متكئة وتصرخ

متعبة من نافذة الغرفة، ففي تلك الغرفة الخلفية أسرّة مغطاة ومرايا وجميع تذكاراتها.

انحنيت وأنا أنزل الدرج لأقرأ من لوحة«هل لديك كراسٍ للتصليح؟».

فيما تتنهد الآنسة غريفيث وتغلق النافذة، ثم تمسك بأوراق اللعب وتبدأ بتقليبها، وتذهل لرؤية ورقة لم ترها من قبل، فتتوقف عندها متعجبة.

«بحق الأرض ما هذه؟ رجل بأسمال بالية..».

عندما وصلتُ إلى أسفل الدرج إذ بها هناك عند الباب، فأسرعت إلى البيانو وفتحت الغطاء وأسندت أوراق الموسيقا إلى الوراء، وقبل أن تدخل الآنسة غريفيث الغرفة كان كرسيها قد أصبح جانب مقعدي الذي أجلس عليه وهو دون ظهر أو ذراعين فزقزقت مبتهجة«صباح الخير»، وأومأت برأسها استحساناً، في هذه المرة نظرت إليها مطولاً أكثر من قبل، لأرسم لها في خيالي فستان عرسها، لكنني أرجأت قصتها لأركز بضجر على السلم الموسيقي من الأعلى إلى الأسفل، وبالرغم من شهرة المقطوعة التي أعزفها إلا أنني كنت أكرهها، لذا عدت إلى إكمال تصوراتي للقصة الرومانسية على النحو التالي:

واحد – اثنان - ثلاثة	واحد - اثنان - ثلاثة
أتمنى - أنه - أنه	القذرة - أنت - العجوز
مُسِن - و - عظام	رجل - اثنان - يمكن
يأخذ - ها - و	يحتفظ - بها - و
يحنط - ها - بـ	طريقة - اثنتين - ثلاث

إلى أين وصلنا؟ هي في برجها، وهو الرجل العتقي يستدير نحو زاوية الشارع الضيق ويصرخ صرخته المعتادة، فتجيب، أيمكن أن تترك شعرها منسدلاً؟ في هذه الأثناء كنت أعزف التنزل(١) والإيقاع ب ب ب، وبينما هي توبخني نظرت إلى عقصات شعرها الصغيرة المشدودة على رأسها، لقد قررت أن لا تترك شعرها منسدلاً، لمن تتركه ينسدل؟ ثم تخطيت المغازلة في تصوراتي لما فيها من صعوبات غير متوقعة لأرسم الزفاف بخيالي.

قَلَبَت الآنسة غريفيث أوراق كتاب الموسيقا إلى مقطوعة جديدة، فعزفت أول فاصلة موسيقية من دون إتقان،«من جديد»، كما قالت لي. فعزفت المقطع الأول والثاني.«من جديد»، قالت. ثم عزفت الأولى والثانية والثالثة. ولقد كان عزفي مثل قصة جاك العبيط الذي بنى بيته بالمقلوب.

(١) مقطع موسيقي يتسم بتدرج الصوت.

وأثناء عزفي تصوّرت أني ألبستها الفستان الأبيض وأعطيتها باقة من الزنابق لتحملها، بينما تركته يرتدي أسماله البالية السوداء. إنه الرجل ذو الأسمال والخرق الذي قبّلَ الحسناء البائسة، ثم جعلتهما يقفان عند الكاهن المهزول ليعلنا نذورهما الزوجية.

أن تحبيه!! لقد جرّبت الآنسة غريفيث مرة قبل هذا، ثم من جديد ومن جديد، ولكن عليك أن تحاولي من جديد، قال لها الكاهن المهزول.

أن تحترميه! لقد احترمت كثيراً ولمرات عديدة، إلى أن أثبتوا عدم كفاءتهم كما قال الكاهن.

أن تطيعيه! أيمكن للآنسة غريفيث أن تطيع بغير رغبتها؟ سألتُ الكاهن، أهذا هو ما تتوق إليه؟ فقال مؤكداً، لا إنه الرجل الذي يستجيب لما تتوق إليه».

ثم علا صوت الأورغن، وكنت أنا عند الأورغن أعزف درسي مخطئاً، فتؤلم أصوات عزفي الآنسة غريفيث فتنقلها إلى أبواق زهور الزنبق.

ثم خرجا يداً بيد، واحد - اثنان، واحد - اثنان.

ولكن الرجل الآن أضاع عربته وعوضاً عنها أصبح لديه قفص لامرأة معلقة من ذراعه.

عندما بـدأت مراسـم القـول، بـأن يعيـشا معـاً وأبـداً ختمـت الآنسة غريفيث محاضرتها ومناشدتها لي للقيـام بـالتمارين بجهـد أكبر فتركتهما يذهبان في شهر العسل لحين خروج العـروس مـن الباب الأمامي لمنزلنا.

الآن، نعود إلى شقة الآنسة غريفيـث في أعـلى الـبرج حيـث لم توضب الحقائب بعد ليبدأ مشوار الأبدية، فالآنسة غريفيـث أو الـسيدة العتقـي هـي التـي تجهـز وجبـات الطعـام وتغـسل عنـد صباح كل اثنين القمصان التي بـدأ بارتـدائها، ولقـد عاشـا عـلى مـدخراتها، فهـو بعـد الآن لـن يـدفع عربتـه، وهـي لـن تعلمنـي الموسيقا، لقد زاد وزنهما وتحسنت طباعهما، هـو أيـضاً تحسنت طباعـه فلـم يعـد يخـرج لـيلاً بنيـة شريـرة فيـأوي كالأشـباح في مـداخل سـلالم الـدرج ويطلـق تنهـدات وهمهـمات في شـقوق الأبواب، أما الآنسة غريفيث فلم تعد تتوق لشيء.

«أترغب بمزيد من البطاطا والكرنب المقليين يا عزيزي؟».

«شكراً عزيزتي».

معاً وأبداً ودائماً.

وهكذا، لم يعد هنـاك الرجـل العتقـي، ولا الآنـسة غريفيـث، تغير كل ما كان هـو عليـه وكـل مـا كانـت هـي عليـه بعيـداً عـن

حياتي في الليل والنهار حيث كانا يطّوقان نفسيهما في عالم لا يتغير. وهكذا قصصت لكم حكايات كتب الأطفال ودقات أجراس زفاف.

عندما وصلت بتصوراتي إلى هنا كنت قد صرت في أعلى الدرج فتمهلت وأنا ألهث قليلاً واقتربت كثيراً من اللوحة وقرأت ثانية،«هل تشتري زنابقي؟» وللغرابة فقد ذهب خيالي إلى مقبرة محفورة، فتملكني خوف الأبدية.

«كلا»، صرخت بصمت.

«كلا، كلا، كلا».

لقد ولِدَتْ القصة ميتة، ودَفَنْتُ عظامها وغطيتها حتى لا يراها أحد، حتى أشعر بيومي هذا وبالأيام المقبلة وأحيا بسلام. وللإنصاف لقد تنبهت إلى أن الأشد روعاً لا يزال أمامنا مثل الألم والسعادة والعكس.

وكان دعائي أن يأتي يومٌ آخر ليرجع للرجل العتقي صياحه البالي والهزيل، وأن تعود الآنسة غريفيث سنة بعد سنة لتقرع جرس الباب وتطرق بقلمها الأحمر الطويل وتقلب أوراق اللعب وتعقص شعرها، وتتوق كاللهب دون أن تتوقف. فما تتوق له الآنسة غريفيث هو الآنسة غريفيث - ودعائي أيضاً

أن لا يزيد وزنهما. فيأكلان ويقضمان مقادير صغيرة حتى لا ترتاح عظامهما في ثيابهما.

آه! شخص يتسلق الدرج، دع الصباح يأتي بسرعة، دع الصباح يأتي وصراخ الصباح يأتي من جديد[1].

---

(١) مثل هذه الأقصوصة لا تكتب إلا في عالم يسوده الحقد والغضب وتسلُّط التقاليد، التي تجبر الأطفال على معارف لا يريدونها، مثل الموسيقا مثلاً. - المترجم -.

بـوي- بــوي

كايسي موتسيسي

بوي - بوي هو ابن«إسثير» العاهرة والقيِّمة على الحانة، وقد ولد معاقاً في رجله اليسرى، وبدأ بكسبِ عيشه وهو في سن العاشرة. كان يبيع الصحف في المدينة، ومن شدة شحه ادّخر ما كسبه، فبعد سنة استطاع أن يشتري بنطلوناً طويلاً وسترة قصيرة ملونة، وأحس وكأنه رجل وهو يتجول ويعرج على عكاز واحد، مرتدياً بنطاله وسترته الملونة.

لقد كانت إسثير فخورة بولدها، بالرغم من أن بوي - بوي كان قد ترك المدرسة وهو في سن التاسعة فقط، وأحست إسثير أنه لا داع لقلقها فابنها قد أنجز ما يقوم به الرجال، واستطاع أن ينجح في حياته دون أن يرهق نفسه بالعلم.

لكن وبمرور السنين وتقدم بوي - بوي بالسن، تضاءل فخر إسثير بولدها، بل إنها أصبحت قلقة بشأنه.

«أوه، ماسيللو، هذا الولد أصبح يزعجني بأسئلته الكثيرة والسخيفة، لا أدري ما أصابه»، قالت إسثير لجارتها، ثم ظهر عليها الاهتياج عندما حاولت ماسيللو تبديد مخاوفها فقالت بكل طيبة:

«جميع الأولاد يشبهونه في عمره. أولادي كانوا هكذا أيضاً».

لقد سأل بوي - بوي - أمه:

«ماما؟».

«نعم، بني؟».

«أتعرفين تلك الأدراج التي تتحرك في جوهانسبورغ؟».

«نعم، يسمونها السلالم الميكانيكية»، قالت إسثير وهي في حيرة تتذكر من قال لها تلك الكلمة من عشاقها الكثر، ربما ذلك الطالب الذي يملأ الشعر صدره كما فكرت في نفسها.

«تلك الأدراج تصعد دائماً إلى الأعلى، لِمَ لا تنزل أيضاً؟».

«هناك أدراج أخرى تنزل».

«لكن تلك تصعد دائماً باتجاه الأعلى، ألا يمكنني النزول عليها وهي تصعد؟».

«لا أعلم».

«هل جربت ذلك؟».

«هل جربها أحد ما؟».

«لا أدري، من فضلك، اسكت!».

«أنا سأجربها».

وبالفعل، قام بوي - بوي بتجريبها، وقد كان سعيداً جداً عندما أدرك أن باستطاعته النزول على تلك السلالم الميكانيكية بينما هي تصعد إلى الأعلى، إنها بنفس الإثارة التي يشعر بها سائق الدراجة عندما يسلك طريقاً مختصراً باتجاه معاكس لطريق باتجاه واحد.

«ماما، لماذا هناك رجال شرطة؟».

«يوجد أيضاً نساء في الشرطة»، قالت إستير وهي تتوقع سؤال ابنها التالي.

-«لماذا لدينا شرطة؟».

-«ليعتقلوا الناس».

-«سأصبح شرطياً».

- ستحتاج لقيود؟

كيف، ومن أين أحضرها، سيظل هذا سراً، ولكن بوي - بوي استطاع الحصول على زوج من الكلبشات وصفارة

شرطي، وكم أحب النفخ في تلك الصفارة، وكم استثار هذا أعصاب إسثير.

«أنا شرطي. سأعتقل هؤلاء الذين يشربون الكحول في المطبخ»، قال بوي - بوي لإسثير وعيناه تشعان لطلب العدالة.

«سأعتقلك»، قالها بوي - بوي لرجل أشيب وهو يرتشف من علبة للمشروب.

«لا بأس، اعتقلني»، قال الرجل الأشيب فمد يديه مسايراً الصبي للدعابة.

كرانك، كرانك! وأُقفلت الكلبشات.

مضت ساعتان ومازال الرجل ذو الشعر الرمادي يناشد الصبي لإزالة الكلبشات. لكن بوي - بوي طالبه أولاً بمبلغ خمسة شيلينغ.

«خمسة شيلينغ»، قالها له للمرة العاشرة.

فغضب الرجل الأشيب غضباً شديداً.

«إذا لم تفكها فسأرفس..».

فضربه بوي - بوي - على رأسه بعكازته قبل أن يتلفظ بكلمة أخرى.«إسثير!» قال راجياً وهو على حافة البكاء، وقطرات دم تجري على وجهه.

رمقت إسثير الرجل بنظرة«حسناً» ومن ثم أزيلت الكلبشات.

«أنا شرطي»، صاح بوي - بوي وهو يعرج خارجاً من البيت إلى الشارع.

«لن أشرب مرة أخرى في هذه الحانة»، قال الرجل الأشيب، وهكذا تناقص زبائن إسثير واحداً بعد الآخر.

وحتى عشاقها تضاءلوا، وكل هذا بفعل بوي - بوي. فقد كان يندفع إلى غرفة نوم أمه عند منتصف الليل ويهجم بالضرب بعكازته على رأس من كان في الغرفة مع إسثير.

«هناك ذباب كثير في البيت»، قال بوي - بوي لأمه يوماً. فلم تجبه إسثير، لقد هزت رأسها فقط بحزن وهي تراقب ابنها يعرج خارج المنزل.

وبعد دقائق قليلة عاد حاملاً دزينة علب كبريت، فجلس على المقعد وفتح علبة وأخرج منها عود ثقاب.

أشعله فظهرت عليه السعادة عندما تصاعد اللهب، ومازال يقوم بهذا حتى فرغت العلبة، فتناول علبة ثانية، ولم يمض وقت طويل حتى فرغت العلب الاثنتا عشرة.

«الآن أصبح لدي اثنا عشر تابوتاً»، قال بوي - بوي وهو ينظر بمرح إلى علب الكبريت الفارغة،«سأقتل اليوم وأدفن اثنتي عشرة ذبابة».

وتم دفن اثنتي عشرة ذبابة في ذلك النهار.

في اليوم التالي وجدت إسثير ابنها منشغلاً بقطع من الخشب والمسامير، وكان يبدو سعيداً، وبالرغم من أن إسثير لم تكن تتوق أبداً لمشاركة ابنها الحديث فلم تتمالك نفسها وسألته عما يفعل.

«أبني تابوتاً لتوبسي».

وتوبسي هذا كان كلب العائلة المدلل.

«لكن توبسي لم يمت بعد!» وقد صُدمت إسثير بهذا لأبعد الحدود.

«لقد حلمت ليلة أمس أنه مات».

فأحست بالراحة،«حسناً لقد كان مناماً سيئاً، فهو لم يمت».

تاب، تاب، تاب، أكملت المطرقة عملها.

«إذاً سأقتله، يجب أن أدفنه في هذا التابوت».

وخرجت إسثير تبحث عن الكلب.«توبسي، توبسي، توبسي!».

عندما أمسكت بالكلب أخذته في سيارة أجرة إلى منزل عمها الآمن في أليكساندرا.

لقد كان الوقت قرابة التاسعة ليلاً عندما عادت، وكان الباب مقفلاً، فطرقت الباب.

«هذا منزلي. ارحلي من هنا»، صرخ بوي - بوي من النافذة.

«بوي - بوي - أنا أمك».

«أمي لم تولد بعد. ارحلي! ارحلي!» [1].

(١) يحاول الكاتب أن يثبت هنا؛ أن النخوة للعرض فطرية غير مكتسبة.

وردة الصخرة[1]

جان رابي

حيث ينتهي الطريق الترابي بتقاطع رباعي توجد إشارة متصالبة الأذرع، لتدل على أقرب قرية تستأهل ذكرها مثل: كيتهانشوب... كاراس... سبرينغبوك... بوفارد، وعلى كل واحدة منها الأميال المتبقية للوصول إليها مثل... ١٢٥...٨١...١٩٥... ١٧٤ ميلاً، وكان طالب الركوب المجاني ذو الجعبة المحمولة على كتفيه يقرأ تلك الإشارات المهجورة ويتقفى أثر السيارات المسرعة على الطريق الرملية الحمراء غرباً عبر أرض الصحراء غير المرحبة بزوارها، عبر شرخ «كوكريك» في مقاطعة «أورانج» التي يمرّ فيها أول نهر يتدفق ماؤه ويمكن رؤيته من خمسمئة ميل.

---

(١) هذه الأقصوصة تريد أن تؤكد أن الإبداع والأخلاق الجيدة والأمانة ليسا حكراً على عرق معين.

سار عبر قرية صغيرة وتبدو كلها كما لو أنها ترتجف من الحر تحت جبل من الشوك، وأعمدة الهاتف والطواحين تبدو بشجرات قليلة غريبة في هذه الأرض القاحلة، لتبدو كأنها بقعة موضوعة مؤقتاً للثمار الشوكية - الصبار - مع الخيار البري الذي ترعاه قطعان الظباء بقدر ما يسمح الرعد بالمطر في الأفق البعيد، وبعد أن اجتاز دزينة من البيوت اختفى الطريق بكثيف الشجر الصحراوي والرمال، فوضع الجعبة - العبء - المحمول على كتفيه بظل شجرة لبان منتظراً أية سيارة تأتي من الشمال، بينما الصوت الوحيد المسموع هو صوت الطاحونة الهوائية الصدئة وهي تضخ الماء. لم تسرَّ عيناه برؤية أثر غبار يقترب لسيارات قادمة فجلس على حمولته ليدخن سيجارة ثم يقف ثانية ليمشي إلى مسافة ليست ببعيدة، فعلى طالب الركوب المجاني أن يكون دوماً مستعداً، لأن قانون التجول البدوي يستدعي منه الوقوف مثل السلحفاة البرية ببيتها على ظهرها عندما تقترب أية سيارة منه، وبهذا يرق قلب الكثير من التجار المسافرين على الطريق الطويل من«ويندهوك» إلى«كيب تاون»، لكن لم يمر خلال ساعتين سوى ثلاثة أضواء«لفانات» محلية من تلك المنطقة، واحدة منها كان يمكن أن تأخذه لو لم يكن رجال ملونون جالسن في الخلف، فالغلام السائق ربما لم

يرد أن يهين رجلاً أبيض بوضعه بجانب ملون، وربما خطر له أن مزرعة الرجل ليست بعيدة لذا؛ الانتظار هنا أفضل.

مع منتصف اليوم عرف صاحبنا المكان جيداً بدكانه الوحيدة وما يشبه الفندق ومحطة للحديد المغضن ومرآب جديد ومكتب بريد صغير، فلا تسمى قرية إلا بصعوبة في نحو الساعة الحادية عشرة يظهر الأطفال من وراء هذا الفندق عبر الطريق الرملي، فأدرك أن في القرية مدرسة أيضاً، بل مدرستن لأن خلف خط الحديد بناءً صغيراً حيث يقف بيت ضمن بيوت عارية تحت السماء البيضاء.

أما«سُمْر» البشرة من الناس فيحيونه باللغة الأفريقانية للمستوطنين البيض عندما يمرون أمامه، وحين يتكلمون بين بعضهم تظهر نبرة«نامه» التي تشبه تكسير الجوز، وهي اللغة المقرقعة للسكان«الهوتنتو» الأصليين التي تسمع الآن في المناطق المعزولة لجنوب أفريقيا فقط.

وكان عابر السبيل من طلاب الركوب المجاني تعلم أن تكون احتكاكاته بالناس سريعة ومقتصرة على إرادة حسنة بتفهم تعابير وجوههم، إذ كانت دوماً ما تظهر الدهشة عليهم إما بسبب حركة السير النادرة بالمكان الذي يقف فيه أو للمسافة الكبيرة بين البشر، أو لأنهم لم يعتادوا رؤية رجل أبيض دون سيارة في هذه الصحراء.

في الساعة الثانية عشرة والنصف عندما خرج طلاب المدرسة البيض لفرصة الغداء، كان الأطفال يسيرون ببطء لينظروا إليه، وقد جاء أحدهم في الحادية عشرة أو الثانية عشرة إلى المكان الذي يجلس فيه قرب شجرة«اللبان» وراح يطوف من حول الحديقة الصحراوية بطاحونتها الهوائية، وحين اقترب من الخزان الإسمنتي قرب السور، ظهرت امرأة ضخمة في المكان ونادت:«داوي، تعال لتأكل!».

بعد قليل أدرك طالب الركوب المجاني أنه لن تكون هناك سيارة في ساعة طعام الغذاء، فأفرغ مؤونته وهي عبارة عن قديد اللحم مع خبز، وعلبة من معقود الدراق عليها صورة جبل ووادٍ غني في غرب«الكايب»، فأفرغ العلبة وراح يدفنها فيما ظنه كومة أحجار، لكنها كانت شيئاً آخر أكثر جمالاً.

ففي الحوض الإسمنتي القديم للشرب صنع الأطفال بلاطة ضمن حديقة من الحصى وقطع الزجاج المكسر ومن الفخار وغزلات القطن القديمة ومن علب الصفيح وقطع من أجنحة الطواحين وزجاجة خضراء بلا عنق بها زهرة ذابلة من القرنفل وحصى من الفيروز الأبيض والأحمر لصنع زهرة تدوم، فتساءل عن الذي أنبت هذه الحديقة المثيرة بكثير من الحب، ليجد أنهم أولاد ملونون - سُمر - لم تقتل إبداعاتهم ألعاب المحلات التجارية، وقد بدت الحديقة أكثر جمالاً حين تعصف الرياح

الرملية بجانب حوض الشرب القديم. هنا لم يعد يجرؤ على الابتعاد عن حقيبته فعاد إلى الرقعة الظليلة، وما كاد يفعل حتى وصل الصبي من البيت مع صينية قهوة بها علبة السكر وإبريق الحليب معاً زيادة في الكرم، فالمرأة التي أرسلتها كما يبدو لا تعتبره أفّاقاً متجولاً، وإدراك هذا جعله عاجزاً عن الشكر، بينما كان الصبي الصغير يحمل الصينية دون أية كلمة:

هل هذه لي؟»، سأل«الجائل المجاني» دون حاجة لجواب!

أمي قالت يجب أن أحضرها لعمو.

شكراً جزيلاً لم يكن الأمر ضرورياً لأعذبكما بها.

كان الصبي لايزال يحمل الصينية، وعليه صبّ الحليب وتحريك السكر.

«قل لأمك شكراً جزيلاً».

نكس الولد رأسه وأصابع رجليه تنغمس في الرمال وهو ينظر بعيداً قبل أن تتسلل عيناه ثانية لتعودا، فجسده كان يدل وحده على الخجل، بينما عيناه حيّتان وصافيتان موضوعياً - لا شخصياً - مثل حبات سبحة حية. ضحك«الجائل المجاني» من وضع الصبي هذا، وقال في نفسه: ماذا يتوقع مني - هذا الطفل - أن أخرج الدخان من أذني أم ماذا، ثم قال له:«ما اسمك؟» فعرف الطفل أن هذا سؤال غير ضروري، لكنه أجاب:

«داوي يا عمو».

فأجابه اسمي: «ليون»، وأضاف ما يمكن أن يلائم هذا الاجتماع من حديث، فأخبر الطفل كيف أنه بطريقه من «إلفيس باي» إلى «كيب تاون» حيث يعيش، وأنه كان يتجول بالركوب المجاني على هذا الطريق لأنه أراد أن يرى «البوشمان لاند» وشبيهتها «نامايكو لاند»، وأنه نزل إلى «أورانج ريفر» لعدم وجود قطار أو باص إلى حيث يتجه.

ثم أرجع «ليون» فنجان القهوة الفارغ إلى الصينية بطريقة من يمرُّ بامتحان غير مرئي.

أوصل الصبي الصغير «داوي» الصينية إلى البيت وعاد فوراً، لكنه بقي داخل السور هذه المرة، وظل واقفاً ينظر بشكل مؤدب بينما جلس الجوال القرفصاء حيث يمكنه الحديث بشكل أفضل وهو على مستوى الطفل.

بأي صف في المدرسة أنت اليوم يا «داوي»؟

في المستوى الثالث يا عمو.

وكاد الجائل أن يسأل أسئلة كثيرة عن أحوال «داوي» وعالمه، قبل أن يقدم الصبي المعلومات من تلقاء نفسه.

لا تمر الكثير من السيارات من هنا، فقط في بعض الأيام.

أجاب«ليون» :«أنت تخبرني»، وضحك، فواحدنا قد يفقد صبره إذا لم أتمكن من الحصول على توصيلة الليلة. عندها سآخذ القطار إلى«يوبنغتون»، ونظر إلى الأرض الواسعة الممتدة إلى اللانهاية الفارغة مثل السماء، ثم ملأ الصمت بقوله:

«داوي، هل ذهبت قبل الآن إلى كيب تاون؟».

«لا عمو، فقط ذهبت إلى كيتمانشوب»، ثم بكل أدب لم يخبره بالمزيد، ومرة ثانية أحس«ليون» بتوجه الصبي المتحفظ فتساءل في نفسه: هل ينتظر منّي أن أخبره عن العالم الخارجي، أَمَّ أنه نادراً ما يتحدث إلى غريب؟ وهل توافق أمه على ذلك؟ وتساءل عما إذا كان قد رأى أم الصبي وقد ظهرت مرة أخرى على حافة المنزل، أكان بسبب قلقها حقيقة أم أنها أتت فقط لإعطاء أوامرها لـ«أوفاهامبو» الشديد السواد في الحديقة؟ وبطريقة جافة. أمَا الجائل المجاني فأصبح الآن منشغلاً باكتشاف والد الصبي الصغير«داوي» هل هو الرجل الذي يمتلك ذلك الدكان؟ لذلك سأله، كما لو أنه يذكر كلبه بأدب، فابتعدت عينا«ليون» نحو الأرض وراح بالعصا التي يحملها يرسم خطوطاً لا على التعيين على الرمال، وبعد صمت استجمع نفسه ليسأل ثانية أليس له اسم يخصه؟ نعم عمو نحن نسميه«بايت كافير»، فترك«الجائل» العصا في يده، ثم بشعور من الارتباك التقطها ثانية، وبصوت يدل على عدم اليقين سأل

عن رجل «الأوفامبو» الذي يعيش في الكوخ المصنوع من القصب وبعيداً عن الناس الملونين.

هل لديك أصدقاء تلعب معهم؟ وبينما كان يسأله مرَّ صِبْية صغار يختلسون النظر من بعيد وهم من الملونين، ومن رؤيته لهم نبع سؤاله.

أوه، نعم يوجد عشرون صبياً في مضافة المدرسة أيضاً، وهم غائبون إبان العطل، فمع من تلعب حينها يا «داوي»؟

لا يا عمو، عندها أضطر للعب فقط مع أولاد السود... نذهب لصيد السحالي بالنبلة... ونحن... فقاطعه صوت أمه التي خرجت تناديه: «داوي» سيدق جرس المدرسة!

بقي «الجائل المجاني» بعد ذهاب الصبي مع حدوسه، وبعد مدة راح بالعصا يحفر لرمال بعنف، وحين توقف بعد نصف ساعة مرَّ ضوء شاحنة صغيرة بها مزارعون سُمْر البشرة كعمال يجلسون خلف الفان، بينما في الأمام عند السائق ثلاثة وجوه بيضاء، لذلك لم يتوقف السائق لهذا الراكب المجاني. بعد مدة قصيرة ظهر حول البيت صوت جرس برقبة معزاة أعقبه مجموعة هزيلة من غنم «كاركول» مع راع وكلبيه، وجاء على الطريق بقية الرحل بعربة منخفضة على عجلات مطاطية منقولة بوضاعة عن العربات التي تجرها الثيران، وفوقها خيمة

يبدو من داخلها قطعة فرش ووجه منهك لامرأة، وحزمة من الأطفال ينظرون إلى الأمام ويصرخون على الحمير الستة التي تجرُّ العربة لكي تهرول، وخلفهم رجل بعينين بليدتين لا ينطق، جالس فوق مروحة وطبل، ثم اختفت هذه كلها نحو الجنوب في غمامة من الغبار.

بتأثر، شعر به«الجائل» تجاه صورة المئات من هؤلاء المهجّرين اللاجئين بوجوههم الشاحبة وهم ينسحبون من كل أفريقيا ليعودوا إلى الجنوب حيث كان أجدادهم يعرفون المطر والثقة بالنفس، لقد سمع في الطريق أناساً يتذمرون من الجفاف فأخذ الآن صورة عن مدى سوء الوضع، وأخذ يفكر في مدى أهمية قيمة الماء، وكيف أن الجفاف حلَّ بكل أفريقيا وسكانها، والناس الطيبون في هذه البقاع لا يمكنهم إلا أن يكونوا أجلافاً حين يرفضون أخذ الغرباء للمرعى والماء منهم لأن عليهم التفكير بحال حيواناتهم أيضاً.

الماء.

هو ما فكر به وتذكره في مكان ولادته«بالكايب» - رأس الرجاء - في نهر جبل«بيربراون» المتدفق، وعادت إليه الذكريات فجأة عندما كان في الثانية عشرة من عمره طفلاً يسبح مع رفاقه في أعماق بحيرة«هيبوبول» الباردة، وعلى

شطآن«ريدكفر» المغطاة بالقصب، فشعر برجليه تحركان قدميه، خاصة عندما كان يلحق صديقه«هانسي»، الذي يدفعه ويلاحقه في النهر. كذلك تذكر السنة التي ظهر فيها«هانسي» بشعره المجعد في المدرسة، وكيف راح بعض الطلاب يتهامسون بأنه منبوذ... لكن جسديهما في الماء كانا متساويين بالشحوب البني في العمق الداكن، فكان يقول له: أيها المنبوذ!، أنت لا تنتمي إلى هنا! وفي كل مرة يمسكه ليغرقه تحت المياه الضحلة وهو يصارع ليطفو ثانية، فيطارده بعد الشلال نحو البركة المنخفضة حيث يسبح المتنزهون السود عراة، ثم يعودان بعد موافقة الجميع على الاستلقاء، ويصبح صوته واضحاً وقوياً ويقول:«لقد أريت هذا اللعين!!» لكن بعد أسبوع اختفى «هانسي» الصغير من مدرسة البيض كما لو أنه غرق فعلاً.

الماء، مرآة الذكريات الرطبة، بوجوه متشنجة تسيل منها الدموع المرة التي يفسد ماؤها المالح الصادر من العيون ماءَ البحيرة التي يقطر فيها.

عندها، سمع جرس المدرسة يقرع ليجد نفسه واقفاً بجانب طريق قاحل، والأطفال يتدفقون حوله من مثلث بناء عبر الطريق، فرأى«داوي» مع جمع من أصدقائه يبحث عن مخرج بينهم وهو متعب مثل من عليه السباحة مسافة طويلة بصعوبة، ففكر أن لا يلومه لأنه لم يكن أحسن منه في الماضي.

وبنفاد صبر بانتظار سيارة تعبر لأخذه بعيداً راح يمشي جيئة وذهاباً حـول مكـان جعبـة ظهـره، ولا يتوقـف إلا لـيحطم ويـدوس العـشب اليـابس لـشوك الـشيطان بكعـب حذائـه، فالأفـضل الإسراع في مغـادرة هـذا المكـان الآن مـن تلـك المساحات الواسعة غير المنتهية من السهوب الحمراء. لقد ملَّ إلى حد القرف من هذه الشجرة حديدية اللون التي تضخُّ مياهاً مالحة، لكن عندما عاد إليه الصبي الصغير بكل توجهاته المؤدبة نادرة التوقع، وضع يده ثانية على العصا وأخذها ليرسم بسرور أشكالاً على الرمال تساعد الطفل في فهم كلماته.

ولأنه يتوقع منه ذلك، بدأ يخبره عن الجنوب بمدنه الكبيرة والبحر والجبال الأروع من أية حديقة، إذ قد مضى وقت طويل منذ أن حصل على مثل هذا الانتباه من جمهور لما يقول، فينال ابتسامة أو إشارة موافقة من هذا الوجه الصغير الجدّي، فكتب اسمه على الرمال بالحرف العريض: «DAWE».

وقال له: يا«داوي»، في هذا المكان الذي كتبت فيه اسمك بالحرف العريض سيحصل لك شيء جميل في يوم من الأيام.

ثم نظر إلى البعيد متوقعاً قدوم سيارة، وعندما نظر الصبي مثله أيضاً دفع بسرعة العصا تحت الاسم المكتوب بالرمال ليمحوه فظهرت قطعة فضة تتلألأ بضوء الشمس، فقال الراكب المجاني، وهو يتعجب: هي لك، ألم أقل لك!!

أخذ«داوي» قطعة النقود وبدا على وجهه السرور لكنه ظل مؤدباً وجدياً، وبينما ظل«ليون» يكتب على الرمال قال: لقد غششت، والآن أريد شيئاً واحداً وهو أن تأتي سيارة وتأخذني، وكتب اسمه بالخط العريض«LEON»، وبعد أن توقفت يده عن الكتابة نظر الصبي إلى ما كتب، ولم يسأله لماذا لم يحفر عميقاً الكلمات كما سبق وفعل، فهو يعرف أنه كان يغش، ثم رفع رأسه نحو الطريق، فكانت دوامة من الغبار تسرع نحوه كصدفةٍ جعلته لا يتحرك، بينما كانت السيارة تقترب على الطريق نحو الجنوب، وكان طرازها أميركياً كبيراً وليس فيها ركاب غير السائق وحده في الأمام، وحين رأى بوضوح لوحته التابعة«للكايب تاون» وكيف لمحه المسافر التجاري منها مع جعبته، لم يقفز ولم يرفع يده، فمرت السيارة رامية بمزيد من الغبار على حشائش«البوشمان» وعلى الأكمات الأعلى.

سأل نفسه بكل إهمال: لماذا لم أوقفه؟ ورأى أيضاً على وجه الصبي تعجباً كمن ينظر إلى عدسة مكبرة ليستوضح، فسمع نفسه تقول: لم يسأل.

تلك السيارة ذاهبة إلى«الكايب».

لماذا؟ لماذا؟ فأطرق ثم نجح بوضع ابتسامة وقال للصبي: إنه لم يقف! وهو ينظر إليه كما لو أن التفسير في هذه الكلمات،

لكن«داوي» كان لا يبذر بالكلمات، فهو لم يسأل ولا مرة عن شيء لا يخصه بل فقط قال لنفسه: إنه ينتظرني، وبشعور من اليأس قال: عليك أن تكبر، ثم انتبه إلى العصا بيده وقد استمر في خربشة وجه الأرض القاحلة وهو يقوم بعمل خطوط صغيرة تبحث في الرمال عن المطمورة التي دخلت فيها في الحال.

هل عليّ أن أبقى هنا؟

راح يتساءل فجأة كيف سيفهم«داوي» بأن الاحترام واجب على كل شخص، لكن ما فائدة الوعظ دون غش، أي دون فرض المواقف بصورة غير طبيعية، ثم أي حق له كعابر سبيل أن يتدخل بطرق حياة الناس بالعيش، ولكي يبتعد عن هذا التفكير وقف منتصباً وقطب جبينه، ثم نظر إلى الألق الناعم الأبيض الدافئ الذي يظلل المساء وقال لنفسه: إنها الساعة الثالثة والنصف فحسب، والوقت طويل قبل حلول الظلام، وامتناع الناس عن السفر بعد ذلك. أثناءها وقع نظره في الحديقة الحجرية على مكان حوض الشرب القديم بجانب الطريق فاتجه نحوه لا شعورياً، وحين لحقه الصبي قال له: ماذا هنا. فأجابه إنه مجرد مكان لألعاب«الهوتنتوز». إنه لهم.

سار«الجائل المجاني» وظهره للطريق وبجعبته التي لم تعد تهمه ولمئات من علامات أظلاف الغنم ذات الشكل الدائري

هناك كانت حديقة صغيرة من القشور الصخرية والكوارتز والزجاج تعكس بشكل عجائبي تألق الماء، مصنوعة بأيدٍ سمراء صغيرة إنها تلمع مثل «سحلية الصخر» في الشمس وفي منتصفها حجر شبه ثمين على شكل وردة من حجر الكوارتز أو عين النمر أو حجر القمر أو أي اسم تشاء بشكل شجي رائع.

إنها أجمل من أية حديقة حقيقية... أو حتى الحديقة الكبرى في «كايب تاون» إنها أجمل من أية سيارة أو منزل، كما قال فجأة أدخل يده بجيب بنطاله. ثم قال «لداوي» ألا تعلم أن الأولاد الذي صنعوا «وردة الصخرة» هذه أيضاً يستأهلون أن يحصل لهم هنا شيء لطيف، فهم كمن يكتب اسمه هنا أيضاً، وتردد وهو يهزُّ قطعاً في يده، نحو بضعة قروش وستة بنسات وشيلينغ واحد.

تعال وساعدني بدفنها تحت الحجارة، ووقف ينتظر حتى أخذ الصبي بعض القطع ليساعده في دفنها خلف «وردة الصخرة»، وبشعور من الراحة فكر «ليون» بأن خداع الإرادة لابد منه عند كل إنسان، ولابد للإرادة من التحقق، ثم خطرت له فكرة جديدة فقال «لداوي»: عليك أن لا تخبر الأطفال السمر، ألا توافق وتعدني؟ عليهم أن يجدوها بأنفسهم دون توقع عندما يأتون للعب هنا أليس كذلك؟ فهزَّ الصبي الأبيض رأسه ولم يعد ينظر «للجائل المجاني» الذي قال: الآن يجب أن

نضع كل شيء في مكانه كما كان ونمهّد الرمال بلطف كما كانت. حين انتهيا تألّقت«وردة الصخرة» ثانية ببراءة فوق الرمال فوقف«داوي» وتراجع ليقف«ليون» بدوره أيضاً على قدميه.

ستكون مفاجأة رائعة لهم يا«داوي» أليس كذلك؟ هزَّ الصبي رأسه ثانية ببطء، فأدرك«ليون» الآن أنه لم يعد يوجد له أي مطلب وهو ينظر إلى سياق أفكاره.

ثم داهمته فكرة أخرى مؤلمة؟ يجب ألا أعَرِّض الصبي لمحنة سيئة وشعور بالذنب إذا أخذ المال لنفسه؟

ثم عاد إلى حيث كانت جعبته متروكة على حافة الطريق وراح يفكر في انطباع الطفل عنه، فبعد أن أنهيا كل شيء ممكن بينهما يجب أن لا يعود الطفل مهتماً به.

أما بعد الظهيرة المملوء بالضوء والسكون فلم تعد هناك أية سيارة حتى الأفق. عندها لم يعد«داوي» ينظر إلى حجر الحديقة بل توجّه بنظره إلى سور حديقة منزله بينما أدار الراكب المجاني حقيبته على ظهره وهو يقول: لا يبدو هناك من قادم يا«داوي» وقد تأخر الوقت فمن الأفضل أن أودعك لأذهب إلى المحطة وأحجز قطار المساء، الوداع يا رجل؟! وكأنما كان حين مد يده يريد أن يستسمحه عن كل ما حصل. نعم عمو، مع السلامة عمو.

رأى«ليون» كيف كان الطفل يمشي كما لو أن لديه ثقلاً إضافياً على وظائفه البيتية، ثم نظر إلى الأمام كمن يريد أن يبتعد عن مكان الرجاء هذا، وفي محطة«رام شاكل» وعلى مكتب البطاقات حصل«ليون» على جواب: نعم يوجد مقعد على قطار الساعة التاسعة، وبإمكانه الانتظار في الفندق أو في البار.

بعد كأس البيرة المثلجة الثانية قال لنفسه؛ سيئ الأخلاق من يحاول أن يعلم الآخرين فماذا تعلمت من«داوي» ؟ ليأتيه الجواب من فقاعات كأس البيرة: إن على الإنسان أن يقبل كل شيء، لأنه عاجز بقدر ما هو مخادع، لا يؤمن إلا بقدر ما يأمل، فحتى كأس البيرة أو خط القطار يجب أن نطلق عليهما: مجرد وسيلة هروب؟

وبينما كان يضحك طلب كأس بيرة ثالثة، وتحدث مع «النادل» وإلى فلاح يداه حمراوان وعيناه مثل دائرتين زرقاوين منهكتين في قعر بئر عميقة، بعد ذلك تحدّث إلى مهندس جاء بالسيارة من الجنوب ليبني بكل جرأة في هذه البلاد الجافة سداً كبيراً، فاحتفظ«الجائل المجاني» ببقايا العملة من ثمن الكؤوس ولم يتركها للنادل ثم راح يرسم مجسمات وردية على طاولة البار.

بعدها، وقف فجأة وترك حمل ظهره بالمحطة، وأسرع عائداً إلى شجرة اللبّان متخطياً آخر منزل، لتتعثر قدماه بالصخور

والرمـال وكتـل الأعـشاب التـي لا تظهـر إلا بـصعوبة بـسبب العتمة، وفي البعيد تتنـاثر نجـوم لامعـة في ظلمـة الـسماء، ليلـوم نفـسه كـسكير لعـين وفـضولي وقليـل الـصبر، عـرّض«داوي» الـصغير لمحنـة المـال، لـذا عليـه أن يـستعيد المـال قبـل أن يـأتي القطار.

انحنى لاهثاً فوق حوض الحديقة المخصص للشرب محاولاً أن يتـذكر موضـع العملـة التـي سـبق لـه أن وضـعها، عـلى أن لا يحطم«وردة الصخرة» فأدخل إصبعيه في كومـة الرمـل ليلـتقط حين يضغط على شيء بارد ناعم. لا.. المـال لايـزال هنـا، شـكراً لله لم يفعلها«داوي»..

فجأة أخرج أصابعه ومال إلى الأمام وفتح عينيه ليرى ضوءاً يخرج مـن«وردة الـصخرة» ويتـالق بإشـعاع فوقهـا بمـزيج مـن ضوء القمر الباهت والكوارتز وقطع الزجاج المكسرة الورديـة، كـما لـو أن الحيـاة تخـرج مـن الكـوارتز الزهـري عـين النمـر، ثـم أصبح هذا التألّق أكثر توقداً فجعله التطـير الخـرافي فرحـاً يظـن أن«وردة الصخرة» تستيقظ، وأن«وردة الصخرة» حيّة.

ثم لاحظ أن الضوء يلمع أيضاً عـلى حافـة حـوض الـشرب، وحين رفع عينيه نحـو اليـسار رأى عينـي القطـار النـاريتين مـن بعيد بعـدة أميـال فـوق الأرض الخاليـة مـن الـشجر في الـسهل،

والقطار يقترب بخط مستقيم لكنه لا يزال غير مسموع بسبب بعده لدرجة تصعب رؤيته المتزايدة بتزايد ضوئه، وهكذا ترك «الراكب المجاني»«وردة الصخرة» وجذورها الفضية ونهض ببطء على قدميه عائداً إلى المحطة.

هكذا عرف أن مصدر الضوء ليس من«وردة الصخرة» بل من القطار، لكن هذا لا يهم لأنه لا يزال مسروراً وعليه أن يضع صدمة الفرح بعيدة عن التفكير،«فداوي» بأيدٍ أمينة الآن، والصخرة أصبحت وردة، و«العلاقات بين الناس في الحياة أقدم وأهم من قرابة الدم بينهم»[1].

---

(١) وهنا بيت القصيد . (المترجم)

من المؤكد سيكون يوم اثنين

نادين غوردايمر

كان زوج أختي«جوسياس» يعمل بالسكة الحديدية ثم انتقل لصنع المتفجرات للمناجم. وظيفته أن يجلس على كرسي حديدي مثبت خلف شاحنة حمراء ضخمة وبيده علم أحمر، لكي يحركه فينذر كل من يقترب إلى حد الاصطدام بالشاحنة، وأنت ربما تستطيع أن ترى هذه الشاحنات غالباً على الطريق الرئيسية بين«جوهانسبورغ» وقرى التعدين حيث يحملون بضائعهم فيها وقد كتب عليها: خطر الانفجار»، بينما كرسيه محزوم بسلسلة حديدية تمنعه من السقوط في الطريق أثناء تحريك علمه مثل طفل يلعب ببالون. كذلك كان حال «جوسياس»، لأنك إذا لم تنتبه واستمررت بالاقتراب إلى حد الصدام مع الشاحنة فستنطلق منها النيران كالجحيم، لكنه كان يجلس دوماً هكذا كما لو أنه يجهل يوم ولادته أو أنه لن يموت

قبل أن يتجاوز الثمانين في بيته هرماً، وكما لو أن الغبار على عينيه من السيارة واهتزازاتها ستظل كذلك للأبد.

وكانت أختي تعرف أن زوجها رجل جيد لكنها لم تقل شيئاً تعبر به عن خوفها من هذه الوظيفة، وكانت تتذمر فقط في الشتاء عندما كانوا يعلقونه هناك في الشاحنة في البرد وينال نزلة صدرية - فهي ممرضة -، وكذلك في أيام الصيف حين تمطر طوال النهار، كانت تقول: إنه سينتهي بالإصابة بالروماتيزم معاقاً، وعندها من سوف يوظفه؟ هل هم جماعة الديناميت؟ وتجيب: لا أظن ذلك، وهي على الأقل لم تهتم عندما أخبرنا عن عمله هذا.

أما أنا فكنت أعمل في مرآب المدينة في الوقت عينه على مضخة بنزين، وكنت أتعشى قبل قدومه في تلك الليلة لأنني كنت بصدد المناوبة المسائية في العمل، وكانت«إيما» تعد الماء لأجله لأن عليه أن يغتسل دون قول أي شيء مثل عادتها. بعدها، لم يتكلم عندما جلس إلى الطعام وراحت أصابعه نحو الطبق ليضع لقمة في فمه، فظنت«إيما» أن اللقمة جافة لذلك ذهبت لتحضر له كأس البيرة الكبيرة التي أعدتها ليوم السبت، فشربها ثم نظر إليَّ فقالت«إيما» : لماذا لا تأكل؟ فبدأ ببطء يأكل، لتقول له: ماذا حلَّ بك؟ فوقف يتثاءب مظهراً أسنانه البنية الممسوحة التي ذكرتني بقرد كبير في حديقة حيوانات

«جوهانسبورغ» رأيته مرة أثناء ذهابي مع تلاميذ المدرسة إلى هناك ثم ذهب إلى غرفة نومه مع «إيما» لكنه عاد يحمل غليونه ليملأه بدقة مثلما يفعل الفقراء الذين كنت أراهم عندما أملأ البنزين، وكيف يملأ البيض غلايينهم بتنقيتها، بعد حشوها بالتبغ، من القطع التي لا يريدونها... فقالت «إيما» سأذهب إلى «سيلا»، ويمكنني الذهاب مع ويلي في طريقه إلى عمله إذا لم تشأ «سيلا» المجيء.

لا، لا، ليس اليوم ابقي هنا، قال «جوسياس» بعبارات ناظر مدرسة أو رئيس عمل، لكن في صوته ما يوحي بأنه لا يأمر بل يسأل بهذه الطريقة الفجة.

أجابت «إيما» : لا، لقد أخبرتها بقدومي، بصوت امرأة تملك زمامها لكن بالأشياء البسيطة، غداً، أجاب «جوسياس» وهو يعترض ويتثاءب ثانية وعيناه الدامعتان من التثاؤب تنظران إلينا، فقالت «إيما»، اذهب للنوم، لن أتأخر.

لا، لا، لا أريد ذلك، وحرّك غليونه تجاهي... فضحكت «إيما» قائلة: ماذا كنت ستخبرنا، ولا يمكن «لويلي» سماعه؟ كنت قد عشت معهما منذ تزوجا، و«إيما» كانت تهتم بي حتى قبل ذلك عندما كنت طفلاً، وكل ما كان يحصل يحصل لنا جميعاً، ومن نظراته إليَّ رأى أنني أصبحت رجلاً الآن فكنت ألبس بزة عملي «أفارولي» مع شعار «شل» على جيبه الأمامي.

لقد كان«جوسياس» يحضر اجتماعات سياسية منتظمة وكان يسهم ببعض المظاهرات الاحتجاجية، قبل التحول للعمل السري دون أن يكون أكثر من مجرد واحد بحشد. فقط كان لدينا صور«مانديلا» التي قطعناها من الجرائد على الحائط مع بعض القادة الآخرين، لكن صهري لم يكن يعرف أياً منهم شخصياً، وطبعاً كان هناك أصدقاؤه«نادلوفو» و«ماسيندي» اللذان كانا بعد العمل السري يأتيان في وقت متأخر من الليل ليأكلا ويناما في سريري لعدة ساعات.

قال«جوسياس» : يريدون إيقاف الشاحنة على الطريق...

يوقفونها؟ هكذا أجابت«إيما» مثل شخص داس على ماء بارد تغوص مع كل كلمة تقولها.. لكن كيف سيفعلون هذا ومتى؟ أين سيفعلونها؟ وصارت«إيما» هوجاء كأن عليها أن تذهب وتمنع هذا من الحدوث الآن.

أما أنا، فقد شعرت بالماء البارد«لإيما» لأننا نشترك بالعواطف ذاتها، ورأيت«جوسياس» ينظر إليَّ بإشارة لا تعرفها«إيما» فقفز حدسي مثل جبل معلق يهتز وقلت، يريدون ملأها بالداخل، وعندما لم يقل أحد شيئاً قلت: ستقومون بانفجار ضخم يا رجل، ثم سكت قبل أن يقول«جوسياس» : ماذا ستفعلين يا«إيما» ؟ فيما إيما ظل فمها مفتوحاً وشفتاها منسحبتين إلى الوراء. فتابع

«جوسياس» : سوف يخبرونني بكل شيء، وما عليَّ سوى أن أعطيهم أفضل مكان على الطريق الذي سيكون على«فري ستيت رود». عند مرورنا، الكلُّ سيكون مشغولاً، فأجابته«إيما» : ستكون ميتاً حينها! كانت ترتجف لأنها تعرف أنه ميت من الآن كما رأته بعينيها، لكن كل حركاتها العصبية وصراخها كان من أجل أن تجعله يرى الأمر كما تراه، فبدت كما لو أنها تريد قتل«جوسياس» بيديها، فهي متأكدة أن لديه سلاحاً، والرجل الأبيض بالأمام أليس كذلك؟ والذين معه سيقتلونك وستذهب للسجن وسيأخذونك لـ«بريتوريا» ويشنقونك هناك بالحبل والتفتت إلي لتقول: نعم معه سَلاح أنت أخبرتني... أليس كذلك... لقد أخبرتني عن هذا مراراً... والآخر معهم أسلحة أيضاً... من الذي سينقذنا؟ لقد حصلوا على أسلحة معهم أسلحة أيضاً... من الذي سينقذنا؟ لقد حصلوا على أسلحة وسيأتون ويطوقونه، كل شيء مخطط.

الواقف بالأمام سيطلق النار عليك، أنا أعرف، لا تخبرني لأنني أعرف ما أقول، وهكذا راحت«إيما» تتحرك بكل الاتجاهات حتى ظننت أنها ستدفع الحائط نحو الأرض لأن الحيطان لا تحتاج إلى جهد لدفعها للسقوط في ذاك البيت في منطقة«تمبكلي»، فكنت خائفاً عليها، لا بمعنى ما ستفعله معي إذا وقفت في طريقها، أو«لجوسياس» لكن ما يحصل لها الآن بعد أن مضت قدماً في الصراخ الذي لن ينساه أي واحد منا.

أنا لم أكن أظن أن«جوسياس» قد اتخذ قراراً مسبقاً بالقيام بهذا العمل، لكنه يريد أن يقوم به الآن لأنه قال: عدم إطلاق النار على أحد يعني أنهم سيطلقون عليَّ ولا يعرف أحد أني أعرف أو أخبرتهم بأي شيء، فأنا متورط مثل الآخرين، مثل الرجل الأبيض أمامي الذي بإمكانه إطلاق النار عليَّ؟ سيقتلونني لأجل هذا، أجابت إيما، لابد من موت أحد. أنا لا أريد هذا أن يحصل. هل تسمع، ستبقى بالمنزل، وسأخبرنهم أنك مريض... ستموت. سوف يقتلونك، بينما كنت أنتظر فرصتي لأتكلم شعرت أن«جوسياس» يريد أن يكلم أحداً من الذين تلقوا الإشارة في مقاطعته فقلت بسرعة: حتى في الطريق توجد بعض السيارات. فأجاب وهو ينظر إلى الأرض: حاجز في الطريق، لقد حصلوا على الإشارة من ذاك الذي كنت تراه يحفر في الطريق وسيظهر بعض الرجال بمعاولهم، وبعد أن تمر السيارة سيقطعون الطريق لكي تنعطف باقي السيارات في التحويلة نحو«كالمانسدريف»، والشيء ذاته بعد ميلين على الجهة الثانية حيث الطريق الريفي الذي يذهب نحو«نك هولت».

اللعنة يا رجل هل من الضروري بالنسبة اختيار هذا الطريق يا رجل... أنا أعرفه خطوة خطوة... أليس كذلك.

وهكذا، وقفت«إيما» بيننا حين كنا نناقش كل الأمر في المطبخ الذي أُغلِقت نوافذه فلا يسمع كلامنا أحد، وكذلك لأننا كنا في

مقاطعة«تمبكلي» المليئة بالأطفال الذين يصرخون والناس تتصايح ليل نهار، عدا عن«الترافزستورات» التي تصدح في كل البيوت على مدار الساعات و«إيما» تحدق بنا كل الوقت، ومن زاوية عيني كنت أرى مقدمتها الضخمة ترتفع وتهبط بسرعة على ياقة ثوبها... إذا سوف يقيدونك مثل غيرك؟ فأخذ غليونه لكي يجيبني، وحدثنا بعضنا لدقيقة... وبدأت«إيما» بجمع الصحون من أمامنا، ثم سحبت مغسلة اليدين الصغيرة عن المدفأة وبدأت بالغسل، فقلت: سوف آخذ إجازة الأربعاء في الأسبوع القادم على الأغلب. فجأة وكأنها تتابع الحديث السابق من حيث انتهى. كانت قد تغيرت كثيراً: لست أدري... يجب أن أعلم لأنني أفترض أنني سأكون في البيت.

فقال«جوسياس» : من أجل ماذا ستكونين في البيت؟

فأجابت لأنني إذا جاءت الشرطة فلا أريدهم أن يكلموه.. وهي تنظر إلينا دون رؤيتنا.

الشرطة! قال«جوسياس» وحرّك رأسه.. لكي تجعلهم يهربون، فضحكت لأريها ماذا أريد قوله.

ماذا ستقول؟ إنهم سيأخذون الاعتراف مني عندما يجدوننا مفيدين، وفي المساء سأعود إلى هنا بنفسي. فأجابت: آه، صحيح! وهي تدفع ما في الصحون التي لم يؤكل منها نحو

القـدر، وتقـوم بكـل شيء كالعـادة لتظهـر لنـا كـأن شيئاً لم يكـن بسبب هذا الحادث الكبير إذ عليها تنظيف الصحون ووضع القـش في النـار، فسوف تعـود، آه، آه، نعـم فهـل ستجلس هنـا طوال الليل يا«ويلي» ؟ سوف تعود، آه، نعم، عندها فكرت أن «جوسياس» ميت حتماً لأنه لم يجب. حين أخذت معطفي وقلت وداعاً وأنا على الباب.

لابد أنه يوم الاثنين، لأن تلك المرأة لا تتذكر هذه الأشياء العادية معظم الأحيان، وأنا لا أعلم بماذا تفكر، فـ«إيـما» لا تلتقط كون اليوم اثنين أو ما بعده. فالاثنين بالنسبة لنا هو الاثنين الذي يذهب فيه«جوسياس» مع الشاحنة إلى مناجم «فري ستيت»، وقد كان يوم الجمعة حين أخبرنا، لذلك ظللت يوم السبت أشعر شعوراً سيئاً بما سيحصل الاثنين القادم، وقد ينتهي الأمر قبل أن أكون قد - ماذا -؟ لا أعرف. فعلى الأقل يا رجل متى سيحصل ذلك ولأنني يوم الأحد كنت لا أعمل أخذت دراجتي واتجهت صوب المدينة التي كانت خاوية. ذهبت إلى المحطة الكبرى ووجدت أن لا قطارات يوم الأحد أيضاً يمكنها أخذي بعيداً نحو ثلاثين ميلاً فأدفع بطاقتي وأضع الدراجة في مكان الحقائب وأدفع التذكرتين. لكنني لم أكن آخذ أجري في يوم الجمعة، فنزلت في أقرب موقف «بكالمانسدريك» لأسأل عن أفضل طريق أسلكه، فعلمت أنه

سيكون علي على الأقل سفر ركوب ساعتين على الدراجة. خرجت من الطريق الرئيسي إلى الطريق الرملي تماماً عند المنعطف الذي حدده«جوسياس»، فكان كما قال ثمة إشارة صغيرة عليها عبارة«كالمنسدريك» تشير إلى الطريق الذي جئت منه، وإلى الطريق المعبد بشكل ما إلى الأمام: كنت سعيداً بوصولي إليه، ولم ألاحظ كثيراً الريف بينما كنت أنطلق، لكنني بعدها تنبهت وصرت أرى الأشياء التي كنت أفكر بها، وها هي أمامي فالسهول مفتوحة هناك، والوقت نهاية فصل الشتاء، والحشيش يابس. هناك بعيداً وبعيداً جداً هضبة ثم أخرى تنتصبان وسط مكان ذي لون زهري ورأوسها مقطوعان مثل رأس زجاجة، وكلما كنت أسير بالدراجة كانت التلال لا تقترب، كما لا يوجد شيء بجانب الطريق التي يبدو كل شيء فيها فارغاً والسماء أكبر من الأرض كثيراً، مع وجود بعض الناس الذين لم ألاحظهم كما في المدينة، كان هناك سياج شائك، لذلك لابد أنها كانت مزرعة لرجال بيض، لأن الماء لهم، وبيوتهم بعيدة عن الطريق، تراها فقط من خلال الأشجار الكبيرة التي تحيط بها وتخفيها، بينما لشعبنا بيوت طينية يوجد منها ثلاثة أو أربعة في مكان واحد، جرداء بسبب الماعز وأقدام الرجال. الأكواخ كانت قرب فسخ في الأرض، حيث يلعب الأطفال وحيث من المفروض أن يكون في الصيف هناك ماء،

وحتى الآن تدبر النساء الغسيل ببعض الأماكن، وقد رأيت الأولاد يتسابقون نحو الطريق الذي تمر منه السيارات دون اهتمام من أهلهم، ومن المضحك أنني مثل هؤلاء مشغول بذاتي دائماً بعملي ومخططاتي وتفكيري بالطريقة التي سأحصل على المال، أو كيف سأتحدث مع أحد عن شيء معهم، بدلاً من أن أكون مثل هؤلاء الأطفال، كما كنت منذ عدة سنوات مضت، أتلقى الأشياء كما هي حاصلة بصغائرها.

ومع ذلك لا يزال هناك أناس يعيشون قرب الطريق، فماذا سيفعلون لو رأوا شاحنة«الديناميت» تتوقف ويبدأ القتال (لا أستطيع التفكير بالأمر، بغير الطريقة التي رأيت فيها قطع طرق في الغرب. لقد رأيت أيضاً الكثير من المعارك طوال حياتي بين العصابات المحلية والسكارى، وكنت أخجل من عدم قدرتي على نسيان ذلك الصنف من الشباب الصغار بالغرب في أوقات كهذه)، هل سيهربون صوب المزارعين البيض؟ هل سيقفز أحدهم على دراجته ويذهب للشرطة، وإذا لم يكن هناك دراجة سيارة شحن ماذا عن الحصان؟ رأيت أحدهم يركب حصاناً، فسرت ببطء نحو المنعطف الثاني حيث يقود الطريق الزراعي إلى«نيكماليت». هناك، كما وصفها«جوسياس» سيكون الحاجز الآخر موجوداً، لكنه عند ذكره لم يذكر وجود شيء بينهما؟ لا بشر ولا بيوت ولا مروج فوقها هضاب، إنها من

الأشياء التي تتضخم برؤوس البالغين بينما هي هنا موجودة في كل وقت في مكان حقيقي به أشخاص لديهم مواقد طبخ، ويمكنني أن أسمع صراخ صبي على ماشيته، وها هو طائر كبير لم أرَ مثله في المدينة يتوازن على شريط شائك أمامي مباشرة، وحين نزلت عن عجلتي طار بعيداً.

جلست لدقائق بجانب الطريق أتناول مشروباً بارداً كنت قد أخذته من دكان هندي في المنطقة التي نزلت من القطار فيها، فكان فمي جافاً ثانية داخل حلقي وأنا أتعرق بشدة، ثم ركبت ظهر الطريق ثانية باحثاً عن مكان محدد سأختاره لو أن «جوسياس» كان بمكاني، هناك امتداد لقرية واحدة بها بيتان خلف الطريق، كما يوجد منخفض ينتهي الطريق عنده بخندق واسع يشبه الاستحكام وصفّ من الأشجار، ولا شيء سوى الأبقار، وبها يمكن للرجال الاختباء، نزلت عن الدراجة وتمعنت جيداً بالمكان.

لكنني تساءلت عن الناس في القرى العليا كما لو أنني سأذهب وأعيش معهم أو شيء من هذا القبيل؟ فتركت الدراجة في الاستحكام وقطعت الطريق وراء سيارة« كاديلاك» مسرعة وراءها يتلاطم الهواء، وسرت باتجاه المنزل الذي أعرف أن معظم شعبنا يعيش في أمثاله، فقد ولدت في مكان« لا أستطيع تحديده» وعنه يجب أن أسأل« إيما» يوماً ما، فقد كنا

نعيش في«جوهفيل لوكيشن» مع جدتنا، وأمنا كانت تعمل في المدينة، وكانت تزورنا أحياناً، لكننا لم نعرف أبانا وتظن«إيما» أنه ربما لدينا أكثر من أب واحد لأنها تتذكر رجلاً قبل ولادتي وبعدها لم تره ثانية، أما أنا فلا أذكر أحداً منذ طفولتي المبكرة عدا«إيما» فقد كانت تجرني بسرعة من يدي لدرجة انتزاعها من جسدي تقريباً عندما كنا نهرب من محل هندي حين نسرق الخوخ من شاحنته كل يوم.

لقد عشنا في غرفة واحدة مع جدتنا ببيت صغير من الصفيح عليه رقم ووضع أمامه بعد ذلك ضوء شارع في الزاوية. هذه البيوت التي مررت بها كانت وفق نموذج واحد مصنوع من الطين، وكان يوجد به طعام جاف للبقر مكدس حسب نموذج معين أيضاً وبارتفاعي، ثم أذكر الخردة المعتادة من علب تنك قديمة وأشياء محطمة يمكنك أن تجدها في أكوام زبالة البيض، كما كان الدجاج يطير من جانب الطريق بعيداً عن قدمي عندما كنت أمرُّ وأظهر، ورجلان كبيران في السن تركا حديثهما عندما ظهرت، فحييتهما بطريقة لائقة كما أنحني لكبار السن عادة. فهزا رأسيهما وأطلقا همهمة لإظهار أنهما أجابا بطريقة لائقة. أحدهما يلبس بنطالاً مربوطاً بحبل ويجلس على الأرض والثاني يجلس على سطل مقلوب، لابد أنه أحضره من مجمع قطع سيارات مستعملة، ويلبس بطريقة لم أرَ مثلها في الماضي، وأظن

أنه يلبس بدلة سوداء مع بنطال واسع وجزمة واسعة، وقبة بيضاء متيبسة فوقها ربطة عنق سوداء وفوق كل هذا قبعة قديمة مكسورة، ولأن اليوم يوم أحد أفترض أنه كان متأنقاً، فقد سمعت عن الذين يعملون بالمزارع أنهم يلبسون معظم الأحيان الجوارب! ولم يسألني الشيخان عما أريد هناك، بل فقط حدّقا بأعينهما التي صار لونها صابونياً مائياً بسبب التقدم بالسن، ولم أعرف ماذا سأقول، لأنني لم أفكر بذلك، فسرت فقط. فجأة خرج من مدخل منزل معتم ولد بسرعة الصرصار، فظننت أن كل الآخرين خارج منازلهم لأن اليوم أحد، لكن ظهر صوت من داخل البيت الثاني ينادي، والولد لا يجيب، وبعد نداء آخر خرجت امرأة من الباب.

فقلت: لقد ضرب دولاب عجلتي وهل بإمكاني الحصول على ماء؟ فنادت صوب المنزل بعد دقيقة خرجت فتاة يجب أن يكون عمرها في الخامسة عشرة تحمل تنكة بنزين فارغة وذهبت لإحضار الماء، ومثل كل الفتيات بهذا العمر لا ينظرن إليك، وبجسد يهتز تحت رداء مربوط بقماش خشن متدل لحدود عينيها كما كانت عليه الأزياء القديمة، وعدا عن كل هذا كانت جميلة جداً مثل كل البنات، وما إن ابتعدت حتى لحقها الولد قفزاً وهو يصرخ ويفتح ساقيه النحيلتين مثل المقص فوق الصخور ومجموعات الزهور بينها، فلحق أخيراً بها لترى فوراً كيف

تغيرت. لقد صرخت بوجهه وطاردته بعلبة الصفيح - التي بيدها - وأنت تسمعها تضحك وهو يدفعها حوله وتتصارع معه، فكانا مثلي عندما كنت مع «إيما» التي كانت تجسِّد الأمهات وهن صغيرات، ربما بسبب هذه القوة ونتيجة حمل الصغار على ظهورهن. من خلف المرأة في البيت خرج رجل ودود، شعره مغبرٌّ كما لو أنه كان نائماً بسبب كثرة الشرب، وفي الواقع كان لا يزال متأثراً بتثاقله.

أنت من «جوبورغ»؟

لم أكن أريد أن أبدو عديم الاهتمام بشكل كلي «فجوسياس» يمكنه الاعتماد عليَّ في هذا.

«فريبمينغ»...

ظنَّ أن جوابي مضحك إذ لا أحد يعرف نفسه «بجوبرغ» ونحن بعيدون عنها ميلاً.. لكنه كان لا يستطيع المتابعة بسبب شربه، فجلس يمدد أجفانه ثم فاجأني كما يفعل البعض من الناس بقوله: هل يمكنك أن تجد عملاً لي حيث أنت؟

أي عمل؟

فحرك يديه وكأنه يصفني - يصفني - لديك عمل جيد... أليس كذلك؟

أين تعمل الآن؟

«صبي حديقة».

وتأتأ قائلاً: كأنك كما يبدو تعمل في المدينة وهز رأسه!!

فوجئت بالمرأة تضع في يدي علبة بيرة. رميت رغوتها بينما أحاول شربها وكانت متلهفة لقول أنه يمكن للبيوت الطينية أن تكون جميلة، وأن هذه النماذج المصنوعة من الطين تبدو لطيفة، فلابد أنها صنعت من حجارة حادة أو عصي عندما كان الطين ناعماً ورطباً، وشكلها مثل ورقة نباتية كبيرة وأقمار مملوءة بخطوط كلها ذات اتجاه واحد على هذا النحو، وغيرها باتجاه آخر، فإذا نظرت إلى شكلها تحت الشمس يظهر بعضها غامقاً وبعضها مضيئاً. وإذا تحركت يصبح المضيء متحولاً للغامق، والغامق يتبدل مضيئاً، عادت الفتاة بتنكة الماء الثقيلة على الرأس فبدت رقبتها سميكة، فنظفت الإبريق الذي به البيرة وملأته بالماء، وعندما شكرتهم حدّق الرجل الكبير إلى الأمام الأمام ثانية، ثم مشى بضع خطوات معي، وكنت محظوظاً أنها لم تزد عن عدة ياردات. لا فائدة، قال: كل يوم الساعة الخامسة صباحاً، والأجر... قليل جداً.

كرهت أن أكون بوضعه كرجل متزوج وعنده أولاد كبار، يعمل طوال حياته يحمل الأكياس من الحقول، فإذا فكرت بمثل هذا فسيبدو شيئاً محالاً أن يكون، كما لو أنه يحمل تبعة

أخطائه، لا صدفة أين وُلِد، وفي الوقت ذاته كان لدي شعور مجنون، كنت أريد إخباره به، لأني أردت إخبار بشيء رائع، شيء لا يحلم بأنه سيكون، شيء سيجعله يركع لي شكراً، أردت أن أقول: قريباً ستصبح صاحب مزرعة وسيكون لك حذاء مثلي، وستأخذ ابنتك الماء من الطاحونة، لأن يوم اثنين أو يوم اثنين آخر، ستقف الشاحنة هناك، وستؤخذ كل البضاعة بعيداً. و«جوسياس» وأنا وحتى أنت سوف نربح للأبد، ولكني بدلاً من قول هذا كل ما قلته كان: من فعل هذا ببيتك؟ فلم يفهم فرسمت رسماً بالفضاء بيدي. أجاب بلا اهتمام: المرأة.

في أسفل المتراس جلست لفترة ثم رميت الصفيحة، وركبت دون أن أنظر عالياً لمكان القرية أو الكفر - كلمة هولندية krool - ومكانه.

لم يكن هذا يوم«الاثنين» ذهب«جوسياس وإيما» إلى الفراش باكراً، وطبعاً كانا نائمين في الوقت الذي وصلت فيه إلى البيت آخر ليلة الأحد، فظنتني«إيما» أنني كنت مع الشباب الذين أتمشى معهم في نهاية الأسبوع، لكن«جوسياس» كان سيستيقظ الساعة الرابعة والنصف صباحاً كل يوم، إذ كانت هناك مسافة طويلة ليصل إلى مصنع الديناميت، وبالعادة لا أسمعه عندما كان يوقد النار في المطبخ حيث كنت أنام دوماً. في ذاك الصباح كنت صاحياً للحظة التي خرج فيها من السرير

في الغرفـة المجـاورة، ثـم دخـل المطـبخ وأنـا جـالس ببطـانيتي، فهمست لـه قـائلاً: ذهبت البارحـة ورأيـت التحويلـة وكـل مـا هناك، بما فيه الخندق المتراس، أهـذا هـو المكـان؟ فنظـر إليّ شـبه محدّق وهزّ رأسه وقال: ماذا؟ تعني ذهبت إلى هناك؟

أستطيع أن أرى أنه المكان الجيد الوحيد، ذهبـت إلى البيـوت مباشرة أيضاً فقط لكي أرى... الناس بخير وهـم ليسوا كثـراً، وعندما لا يكون يوم أحـد قـد لا يكـون هنـاك سـوى عجـوز أو عجوزين، وأظن أن الثاني كان زائراً فقط، أمـا الرجـل وزوجتـه ففي الحقـول في مكـان مـا بعيـد جـداً، لأنـك لا تـستطيع الرؤيـة بسب قصب الذرة المنتصب في الطريق، فشعرت بأنه يـستمع لي باهتمام ويفهمني... بينما أنا أتكلم وأعـرف بالـضبط مـاذا أقـول بشكل واضح جداً، تماماً مـثلما كنـت أعـرف مـاذا كنـت أفعـل، فبدأ يسألني كما لو كنت أكبر سناً وأمهـر، ولم يعـرف مـاذا عليـه أن يقول، فشرب الشاي وأنا أخبره عن كل الأمر وهو يفكر ثـم قال وهو يغادر: ما كان لي أن أخبرك. ومـشى. فأسرعـت خلفـه نحو الحديقة وكان الليل مطبقـاً وقتهـا فتكلمـت همـساً وقلـت: ليس اليوم أليس كذلك؟ ولأنني لم أكن أرى وجهه عرفـت أنـه لا يدري بماذا يجيـب. وقـال: لـيس اليـوم. كنـت سـعيداً لدرجـة أنني لم أستطع النوم ثانية، وفي المساء نجح «جوسياس» بـبعض الأعـذار ليـذهب معـي خـارج المنـزل، ولمـا أصـبحنا معـاً قـال:

أخبرتهم أنك تعرف ما أعرف مئة بالمئة، وطبيعي أنه لم يكن لدي أية فرصة لعمل أي شيء.. فلم أذهب... ولأنك كنت صغيراً لا نريد إدخال«إيما» بالأمر، وعلى كل حال لا أحد سوى الأطفال الصغار يبحثون عن التخريب، لكن هل ألقي القبض على أي منهم أو كلهم؟ ثم رفع كتفيه وكنت أعرف أنه لم يكن يريدهم أن يعرفوا أنني أعرف ما يعرفون فهم سيتحمسون لاستخدامي لكنني لم أحضر اجتماعاتهم أو أي مخطط مسبق ومعد لهم. لم أقابل سوى اثنين من الذين سيكونون معي حيث أخبرونا بما يجب أن نعمله بالضبط «بماسيندي»، وطبعاً لم يقل«شيئاً لإيما»، فيوم الاثنين يوم العملية بعيد ثلاثة أسابيع، ويمكنني أن أقول إن أشياء كثيرة ستحصل لي إلى حينه، لكن لن أنسى اللحظة التي وضعنا فيها إشارة على الشاحنة التي كان«جوسياس» جالساً فيها بالخلف على مقعده الصغير فكرة أن هناك أرضاً تمرح فيها الدواب جعلتني أريد أن أضحك، ولم أشعر بالخوف، فمن أي شيء يجب أن نخاف وهو يجلس على حمولات من الديناميت كل يوم طوال حياته.

لا غريب في هذا اليوم ومعنا قدحات النار وسطل من القطران وإشارة لإغلاق الطريق ليست مزورة وبتوقيع مدير الشركة. مرَّ كل شيء بهدوء لطيف نحو هدفنا، لكن عند نهاية«فيكهولت»

بدأت المتاعب عندما ظهرت إحدى دوريات«أ. أ. بترول» فقال «جوسياس» : هذا شيء جديد، فهم لم يلتقوا بدورية على هذا الطريق في مثل هذا الوقت قبل ذلك. ثم أظهر الارتياب من حاجزهم هناك. أثناء ذلك ومع إيقاف شاحنتنا أصيب أحدنا فحاول«جوسياس» انتزاع السلاح من الرجل الأبيض بالشاحنة وبدأ صراع جهنمي، كان عليه الهروب بالبضاعة من الشاحنة بسيارة خلفها إنما العودة عبر الحاجز، بدلاً من أخذ الشاحنة إلى مكان الاختباء بجانب«أوفلوه»، فحسب هذا سيبقى نصف الجماعة متروكين في الشاحنة، ومع كل هذا فروا ولم تجد الشرطة الشاحنة. بعدها، كلما كنت أقرأ عن انفجار حصل في ديارنا كنت أظن أنه قد يكون واحداً من تفجيراتنا.

ألقي القبض على اثنين من جماعتنا فوراً والبعض بعد ذلك، والحادث كان في كل الصحف مع حديث من رئيس الفرع الخاص - المخابراتي - عن مؤامرة رئيسية في كل شيء. لكن «جوسياس» استطاع الفرار بحالة جيدة، أما نحن الفتيان الثلاثة فركضنا من عند الحاجز حيث خبأت عجلتي، وفررنا إلى مكان سبق وأخبرونا عنه في مقاطعة«روستنبورغ» لمدة أسبوع ثم طلب منا الذهاب إلى«بوشوانا لاند» ولم يكن الأمر سيئاً لأنه كان بإمكاننا في«روستنبورغ» سرقة البرتقال من

المزارع، وإرسال رسالة إلى«إيما» أخبرها أني بخير، وقد بدا جلياً كأمر واقع أني لن أستطيع الذهاب إلى البيت مرة ثانية.

لكن في«بوشوانا لاند» كان الأمر مختلفاً بلا مال، ولن تجد الطعام على الشجر في مكان جاف كما قالوا لنا أنهم سيرسلون مالاً دون أن يفعلوا، هناك التقينا«بجوسياس» فتلاحمنا مع الناس الذين كانوا يخفوننا ونحن ننتقل، وحين جاءت الطائرات لأخذ المهجرين البيض أخبرنا بأنهم سوف يأخذوننا ولم يحصل. بلا مال ننفقه على أنفسنا شأن كثيرين مثلنا أيضاً كنا نسير نحو«بشوانا لاند» عبر شمال«روديسيا» إلى«ميبيا» كأول مكان نتجه له نحو «تانزانيا»، بمسيرات طويلة أخذت مني ومن«جوسياس» أشهراً إلى أن التقينا بصديق معه بعض المال ومن هناك صرنا ننتقل بالباص دون أن نُسأل من نحن لأننا كنا نكرات نمشي مثل باقي الأفارقة أو نركب الباصات التي لا يستعملها البيض أبداً، أما إذا كان لديك المال لتركب سيارة أو حين تصل إلى المطار فكل هذه الأمور تستدعي تفقد هويتك لإرسالك خارج الحدود ورفض دخولك إلى حدود أخرى. على هذه الحال وصلنا إلى تانزانيا. أخيراً إلى مدينة«دار السلام» كما حددوها جهة أخيرة لنا، فهنا يوجد مخيم للاجئين يعطونك شلناً أو اثنين يومياً إلى أن تجد عملاً. لكن خارج المدينة كشريد أولاً، ذهبنا إلى هناك لنجد غرفة في قرية وطنية، وكانت هناك أبنية جيدة في البلد لا تشبه«جوهانسبورغ»

ولا «دوربان»، تلك كانت قرية البيض الذين تركوا الكي يسكنوها شريطة أن يكون للأفارقة المراكز الرئيسية في الحكومة، وأن يعيشوا هنا أيضاً. بعض قادتنا اللاجئين مثلنا كانوا يعيشون في تلك البيوت ويمتلكون سيارات فخمة، والكل يعرف أنهم رجال مهمون هنا لا في بلادنا حيث نكون قمامة المنطقة، أما حيث نعيش فالناس فقراء جداً ومن الصعب الحصول على عمل، وهناك اكتفاء بالإعانة، لكنني حصلت على عمل كخازن، أما «جوسياس» فلم يستطع الحصول على عمل دائم. هذا لم يكن مهماً لأن «إيما» استطاعت القدوم لعندنا بعد خمسة أشهر، وهي وأنا كنا نكسب المال، فهي ممرضة، وكما تعلم فالأفرقة بدأت بالمستشفيات، ولم يكن عند الحكومة فائض من الممرضات، وهكذا صارت «لإيما» «روديسيا»، وكنا محظوظين لأنه محال للناس إحضار عائلاتهم إلى هنا. جاءت «إيما» بالطائرة مدفوعة الأجر من قبل الحكومة وكانت مع سواها من البنات تصورهن الجرائد فور نزولهن من الطائرة، ويوم وصولها أخذناها إلى الشاطئ حيث تمكن الكل من أخذ حمام دون محظورات، وتناولنا شراباً بارداً بأحد الفنادق (فهي لم تكن بفندق أبداً قبل ذلك) ثم تمشينا في الشارع حول الخليج حيث كان كل الناس يتمشون، وبإمكانك أن ترى البواخر تدخل وتخرج قريباً منك لدرجة يغدو بإمكان من عليها التلويح لك. وبمجرد أن نصادف أحداً من

بلـدنا، كـان يتوقـف ليـسأل عـن أحوالهـا، و«جوسـياس» وأنـا لا نتوقف عن التجهم ليسمعنا الجميع مثل ما في صلب طريقة كلام«دار» في لغتنا، عن الأشياء التي نعرفها عن ذاك اليوم وكأنه حدث الآن، زمن كنا بوطننا وعبر طرقنا في السرد.

لقد مضت ثلاث سنوات منذ قدوم«إيما» ولقد أرسل «جوسياس» بعيداً ولم يبق سوى«إيما» وأنا تلك كانت الفكرة من إرسالنا للتدريب، حيث يذهب البعض إلى«الحبشة» والبعض إلى«الجزائر»، وحين يعودون لن يبقى أحد من جماعة «فيرورده» لا يعرف الآن كيفية استخدام السلاح. هذه كانت البوابة، فمن المفروض أن أذهب أنا أيضاً، ولكن البعض منا كان عليه أن ينتظر طويلاً. أثناء ذلك كنت أذهب للعمل وأتمشى حول هذا المكان مساء لأبتاع لنفسي كأس بيرة من البار عندما أنال أجري.

بقيت الشقة التي أخذناها، بعد أن أرسل«جوسياس» لي ولـ«إيما»، ولممرضتين تدفعان لنا أجرة غرفة النوم الأخرى، و«إيما» ظلت تعمل في المستشفى دون أن أعرف إلى متى؟؟ وفي معظم الأيام منذ سفر«جوسياس» كانت تريدني أن أذهب لإحضارها من المستشفى عندما تنتهي نوبتها، وعندما كنت أقف بظل الأشجار أنتظرها، أراها تبحث عني بنظرها وهي تحدق كما لو أنني لن أظهر ثانية أبداً. وكذلك الأمر كان كل

يوم، وعندما أظهر كانت تبتسم كعادتها لدقيقة، لكننا حين نبتعد عشر ياردات عن الطريق كانت تهز رأسها وهي تقول: لقد انتهى الأمر والدموع في عينيها، لا أحد يمكن تحمّل هذا، فالمشافي هنا ليست مثل تلك ببلدنا كما كانت تقول، فعلى الممرضات معرفة عملهن، وتستعمل كل عبارات الهجوم عليهن لتقول أنهن الأسوأ ولا يمكنها أن تثق بأحد ليفعل شيئاً من أجلها، فالطاقم – الطبي - لا يحب أي غريب يعمل معه، وهذا ما تخبرني إياه كل يوم وكأنها تخبرني به لأول مرة، وطبيعي أن بعض الناس لا يحبوننا هنا، فكما تعلم الحال، الناس ليس معروضاً عليهم وظائف كافية، وهذا لا يهمني كثيراً، سوف أُرسَل في أحد الأيام، وإلى أن يحين ذلك اليوم عليّ أن آكل، وأشرب، وهذا هو الواقع.

الشقة لطيفة مع حمام، ونحن ندفع زيادة عليها أجرة الطاولة وستة كراس تحبها«إيها» كثيراً. لكننا حين ندخلها يصير وجهها مرعباً، وتظل تردد بأن المكان ليس على ما يرام، فلا يوجد سوى مغسلة واحدة لكل البيت في المدخل، ولا نجلس أكثر من دقيقة دون أن تقف فوراً ثانية. ولا تستطيع إقناعها بالخروج للخارج، حتى في تلك الأمسيات الحارة لدرجة امتناع التنفس. فأنا أذهب إلى السوق لأبتاع الدجاج للطعام، هي تدّعي أنها لا تتحمل ذلك، وعندما أتساءل عن تعلّقها السابق بالسوق

حيث كانت تنتقي دجاجة لنفسها رخيصة، تقول هذه البندورة المعفنة لا زالت تنمو هنا، والناس القذرون دوماً في صياح دون فهم سبب ذلك. إنها لا تنام حتى منتصف الليل. وأخيراً، صارت توقظني، وكما حصل الليلة الماضية فقد كانت واقفة في العتمة وقالت: أنا أشعر بالسوء، فقلت: سأصنع لك بعض الشاي... وماذا سيصنع الشاي، لابد من أن شيئاً سيئاً يحصل لي، أجابت. يجب أن أذهب إلى الطبيب غداً.

هل هو الألم ثانية أم ماذا؟

هزَّت رأسها ببطء، فعلمت أنها سوف تبكي ثانية، بمكان ليس فيه أحد، نهضت ونظرت من الشباك كما لو أنني لم أصحَ بعد، ففي كل يوم لا أستطيع أن أخرج، أنا دوماً لأرى هذه المدينة؟

طبعاً، من الصعب عليها التقاط اللهجة«السواحيلية»، لكن بإمكاني الحديث لمن أريد إذا شعرت برغبة لذلك، لكنها لم تتعلم أكثر من كلمة:«أحسنت». كان بإمكانها التقاطها بسرعة لكنها لم تقدر على تحمل اللغة، التي كانت مجرد أصوات ضجيج بالنسبة لها، مثل عواء الكلاب أو صوت الغربان على شجر البلح.

عندما كان يأتي أحد إلى هنا ليراها من البلد عادة، أو حين أحضر معي«روديسياً» يعمل معي، تجلس دون أن تسمع

الحوار إلى أن تتنهد بحسرة وتقول: ثقيل، ثقيل نعم؛ للمرأة الوحيدة دون صديق ودون أحد، امرأة وحيدة، هذا ما أستطيع إخبارك به.

قلت لها في الليلة الماضية: لقد كان الأمر أسوأ عندما كنت لا ترينني ولا ترين«جوسياس» لمدة طويلة، لكنها أجابت: لمَ كان الأمر سيئاً؟ كانت هناك«سيلا» والآخرون أما الحشد القديم في المستشفى فكان أيضاً سيئاً، هل تذكر كيف كنا نذهب إلى المدينة يوم عطلة السبت؟

الناس، نعم، حتى عندما كنت في الثانية عشرة كانت تجزع من فكرة فقداني.

لم أكن جزعاً، أنت التي كنت تجذعين من هروبي يوماً ما، لكن في المنطقة التي كنا نسرق منها الفواكه والحلويات بدكاكينها، كانت«إيما» دوماً تخرجني من المشاكل،«إيما» دوماً تنتقدني، هذه«إيما» نفسها، ومع ذلك هي الآن ليست كتلك، فماذا أستطيع أن أفعل من أجلها؟!

أظنها تريد العودة إلى هناك، مع ذلك لن تكون كما كانت، لا أظنها قادرة على الشعور بما أفكر أنا فيه كما كانت، أو أنني أعرف ما تفكر هي فيه، لكنها قالت: أنت وهو تذهبان وتعودان، وربما لن تعودا، فأنت تعرف ماذا تريد، لكن بالنسبة

لامرأة ماذا سأفعل في حياتي، ماذا سأفعل هنا، أي زمن هذا للنساء!

الأمر صعب عليها. إنها تستعيد كل هذا أحياناً، وكما أعلم ستخبرني كل شيء عدة مرات. لا أمانع عندما آخذها من المستشفى، ولا أمانع في الذهاب إلى السوق، لكن بعد العشاء مساءً الآن مباشرة، تركتها تخوض به ثانية ثم بلغ السيل الربى، ورغم الطقس البارد والمعتم في الشارع ظللت أفكر بلعنة الخروج للشارع بقوة. لذلك أبعدت طعامي عني بأسرع ما يمكن دون أن أجعلها تلاحظ نيتي بالذهاب، بعد أن تعكّر مزاجي بشكل ضاغط ومثير فقط لأخرج، ولا أمانع في تجاوز الطعام، ففي الشارع عند المساء كل الناس هناك، فوق الحشيش، بالخليج، الهنود المترهلون بلباسهم الأبيض مع زوجاتهم بتلك الأثواب الأنيقة الملوّنة، الرجال وصاحباتهم متشابكو الأيدي، والحراس الكبار السن كالشحاذين ينامون على أبواب المحلات المغلقة، الناس يمشون ذهاباً وإياباً يريدون متسعاً في موضع خال مثل من يحمل بطانية، فالهواء من البحر عليل.

كان عليها الخروج لاستنشاقة هواء المساء - يا رجل -، هذا مكان قديم كما يقولون، ولا أعني أبنية بل المكان ككل، فهم

يقولون إن السفن كانت تأتيه قبل وجود «لندن» وسواها وقد كانت هناك قرى. كان التفكير بالخليج جيداً منذ اليوم الأول، فأضواء السفن تتلألأ، وبه يظهر النخيل منتصباً حتى بعد حلول الظلام، وهناك رائحة شممتها منذ كنا هنا قبل ثلاث سنوات، ولا أعني رائحة المدينة المحلية. إنه نوع من الرائحة الليلية الخاصة، كما يمكنك شمها الساعة الثالثة قبل الفجر، شممتها عندما كنت واقفاً مع «إيما» بجانب النافذة؛ فالحرارة مرتفعة في منتصف الليل مثل ارتفاعها في منتصف النهار، فمن المضحك أنها[1] تشبه الحرارة حيث النظر إلى النجوم في عتمة الليل. وعلى كل حال!! سوف أغادر قريباً ولن تطول المدة الآن بعد أن رحل «جوسياس»، عليك انتظار وقتك، فهم لن ينسوك، في «دار السلام» أو أي «دار» سوف أسير مع شاب آخر من بلدنا يقول شيئاً يجعلك تضحك، سيقول: إن الحراس الليليين المسنين الذين ينامون على أعتاب المحلات يحضرون زوجاتهم إلى هناك معهم، وهذا ما لم أره! وسيقول إن قرعتنا قد جاءت، فنحن سنذهب معهم، «دار السلام» دار أظن يوماً ما

(١) أي الحرارة المسببة للرائحة وتشبه النظر الحاد المؤذي للعين مثل الأنف معاً.

أني سأتذكرها لأخبر زوجتي بوقوفي هناك، أسير وأسير على خليجها ماراً بالدكاكين والفنادق، والكنائس «الجرمانية» والبنك الكبير، عبر الطرق الطينية بين أكواخها وأكشاكها. عتمة كانت هناك لكنها مليئة بمتمشين آخرين وظلالهم، وبينما أنا أتجول يأتيني من شرخ حائط ضوء حيث هناك أناس في بيوتهم.

البذلة [1]

كان ثيمبا

الساعة الخامسة والنصف صباحاً، كان غطاء السرير المطرز عبوساً مثل الرجل المتحرك تحته والذي لا يريد إيقاظ زوجته النائمة بجانبه حتى الآن. لذلك خرج على رؤوس أصابعه بحذر متقلصاً كالدودة، وقبل أن يدوس خارج غرفته وحذاؤه وجراباته تحت إبطه انحنى واختلس النظر إلى زوجته النائمة بسكون والتي هي بالنسبة له المعجزة اليومية لصباحه.

كان يقطب ويتثاءب بصورة متتابعة من دون كلام مقدماً لإلهه إله الخير في حياته، وللجمال الصافي لزوجته وللقوة في

---

(١) أقصوصة تنقد التمسك بزواج فاشل«الحب فيه من طرف واحد! ليتحول إلى كره وانتقام دائم وقاتل دون أن يصل إلى حدود «اللامبالاة» التي هي النقيض الحقيقي للحب، والتي تقود حتماً إلى حل مثل هذا الإشكال بالطلاق، لا بتطلبات الانتقامات السيئة الملتبسة.

جسده بالإرادة وحتى إلى رتابة عدم المزعجات في مقاطع أيامه وأشهره وسنيِّه، الابتهالات التي يجب أن تستمر نحو الجنة.

بعدها يتسلل بلا صوت إلى المطبخ ويزيح ستارة النافذة ليرى في الخارج مطراً خفيفاً، يمكن أن يظل لأيام طويلة مع السحاب، فتساءل: لماذا المطر في«صوفيا تاون» يأتي دائماً في الصباح حين يذهب العمال لأعمالهم – مكاتبهم - لتعقبه موجات حرّ لاذعة عندما يتراكض المراسلون إلى كل مكان أثناء النهار، ثم كيف يعود المطر عندما ينتهي العمال ويريدون العودة إلى ديارهم.

وببسمة سخرية من الشذوذ القديم في فهم السماء أدار رأسه متذمراً من طفولته المشاكسة لعدم الموافقة بأن:«أي إله» هو إله محلي كما يظنون.

من خلف باب المطبخ سحب غطاء المطر القديم وأداره فوق رأسه ثم اندفع خارجاً نحو المغسلة بعد أن كاد يتزحلق ببركة ماء طينية، لكنه وصل إلى الباب يتأوه من الذي حفرها له، وعلى كل حال هذا هو ما يحصل في فسحة يتشارك فيها عشرون أو ثلاثون إنساناً بنفس المنحنى، ثم بدا كما لو أنه يرقص مهتاجاً من هذا الطقس الذي يطيّر الثياب، فدار حول المغسلة يراقب تدفق المطر ويغسل التوتر الذي التصق به ليعطيه لا نهائية ما بعد الخلاص،

عندها اندفع نحو المطبخ والتقط بقوة حوض استحمام الأطفال القديم المعلّق على مسمار في الحائط تحت غطاء مكشوف جانبه وفتح علبة خشبية واسعة ليملأ الطشت بسرعة بالفحم منها، ثم عاد كمن يقيس خطواته نحو باب المطبخ للداخل.

كان يترنم بأنغام الملاحقين من الدولة التي لا يمكن إخفاء نغمها، والتي تأتي عادة - مثل إجبار التكرار - الذي يلح في رأسه، بعدئذ بدأت النار تشتعل بابتهاج مع مزاجه المصاحب لها.

مع هذه الأعمال المنزلية كان يقوم بتحرك صباحي بينما النار في المدفأة القديمة تدفئ المكان، والإبريق على النار يطقطق، كان يجمع الأشياء التي كان يحتاجها في يومه من حقيبة وملفات توضع فيها، مع الكتاب الذي كان يقرؤه دائماً، ورسائل المحامين لرئيسه التي يوصلها قبل أن يصل مكتبه، مع «شحاطة» زوجته التي ينظفها بستين دقيقة، ثم غذائه المعدّ في الليلة السابقة من قبل زوجته المهتمة به، واليوم يضاف لكل هذا معطفه ضد المطر، ومع بداية صفير الإبريق على النار قبل الغليان صبَّ منه ماء بحوض المغسلة ثم أعاد ملأه ووضعه على المدفأة، ثم نظف نفسه باهتمام وعينيه وتحت إبطيه نزولاً لأصابع قدميه وبين ساقيه، تلك الطقوس يقوم بها مع أنه لم يشتكِ أيّ رجل أبيض منه بسبب رائحة «وغز»[1] لا يعرف عنه

(١) نعت عامي مهين.

شيئاً، بعدئذ لبس حسب الموضة فأصبح جاهزاً لتحضير الفطور. وكم كان يستمتع بأخذ الفطور الساخن إلى زوجته المتمدّدة في السرير ليظهر هناك بأقصى عدم رجولة، وبيده الصينية لتستيقظ زوجته أو تعانقه، ومثل هذه الأشياء نحب أن نصنعها بأنفسنا نحن الزنوج لا بشكل زائف لأبيض نجهد لكي نصنعها له؟ بينما هو كان يشعر بذلك وينكر أنه واحد من الذين يضعون زوجاتهم عند حدودهن.

كانت «ماتيلا» تقدر لطف زوجها فور وضعها رجليها خارج السرير ويعرض عليها غسلهما لها أيضاً: كفاك من هذا، كانت تؤنبه بينما يحاول.

في موقف الباص كان يندم حين يرى «جوفيال العجوز مافيكيلا» واقفاً في الطابور للصعود في الباص قبله وقد سبقه هذا الخشن بضحكاته ما جعله متوتراً، لقد ظنّ أنه لاحظ تردداً من الرجل المسن وغموضاً في سروره، لكن المسن صرخ له بأعلى صوته بأنه سيراه في نهاية المحطة بالمدينة - بدل السلام الصباحي - ذلك أن – صاحبنا -«فليمون» هذا كان يقوم بهذه الرحلة الصباحية مع الثرثار «عجوز مافيكيلا» كل يوم. وكل أهل الضاحية يعرفون ما تتداوله كل الأفواه الكبيرة بسخاء وصوت عالٍ وما يناقشه همساً كل من في الحافلة بشكل عام، بما في ذلك طبعاً الآراء بذيئة، حول حكومتي «غانا» و«روسيا»

القاسيتين، والأمريكان والغرب الذين يسخرون بدعوى الشفقة ربما يكون ذلك مفهوماً خلال رحلة قصيرة مثل هذه الرحلات، لأنه لا يوجد قانون ضد الطعن البذيء، إذ يظلُّ «مافيكيلا» يقف عند علب النقود في مواقف الباص المغطاة دون اهتمام بتجنب المطر أو الريح أو حرارة الشمس، حيث يراه «فليمون» دوماً بسبب الضجيج مع أحد صبيان الشرطة في بذلاتهم الخاكية، وكانا يمشيان معاً نحو المدينة لكن حين «مافيكيلا» تغيّر سلوكه، كان«فليمون» يستجمع قواه عندها لشيء هام سيحصل؟! ربما سيطلب ديناً، وعادة هذا ما يفعله «مافيكيلا»!! قال بحزن: لو كنت أستطيع تجنب هذا صدقني لو كنت، ولكن زوجتي تنقُّ عليَّ لعدم إخبارك بالأمر!! أنا لا أريد أن أكون متبجحاً وبدا«العجوز مافيكيلا» مهتماً، والتقط «فليمون» تعاطفه معه فقال:

أنت تعرف أن بإمكانك إخباري بكل شيء فأعطاه الرجل ابتسامة شفقة... حسناً ليس ذلك من اهتمامنا حقيقة... لكن زوجتي شعرت... كما ترى. اللعنة على كل هذا، أتمنى لو أن هؤلاء النساء لا يتطفلن كثيراً؛ ثم استعجل الأمر وقال:

على كل حال هناك شاب وقد حلفت زوجتي«بإله الصحة» - الوثني - بأنك لا تعرف شيئاً عن هذا.

لم يكن الأمر مثل انفجار قنبلة مهلكة، بل مثل عطل في آلة دقيقة لا يمكن إصلاحه للأبد، لتبدو الآلة من الخارج ميتة، لكن في عمق آليتها تهديد بالانفجارات المتتابعة من محوّل لآخر فيها. أحسّ «فليمون» كما لو أن محول السرعة بآلة دماغه يجرش، فقال بصوت أجش: دادا...أنا... يجب أن أرجع إلى البيت، ثم التفت ولم يعد يسمع «مافيكيلا» وهو يقول: خلِّك ثابت الجأش خلِّك يا ابني...

كانت رحلة عودته في الباص إلى بيته مليئة بعذابات الترقب وخدران الأطراف واختناقات اليأس، ومع أن الحافلة كانت فارغة الآن شعر «فليمون» برهاب الأماكن المغلقة، كما لو أن قوى تتأرجح لتخنقه ولتنزل هذا الجو الخانق في أحشائه. صارت اهتزازات الحافلة تدفعه بسرعة ممرضة من جانب إلى جانب، وصار تحريك عجلة القيادة الذي يجعل الحافلة تتمايل يسبب ثقباً عضوياً بأحشائه، الأمر الذي سيجعله حين يخرج من هنا يضرب بمرفقه كل من يقف في طريقه، متمنياً نهاية هذه الرحلة المجنونة، ثم لا يلبث أن يعود إلى التفكير بالعودة إلى المنزل وهو يرتد عليه بكل ما يثق بأنه مؤلمٍ يشبه انتزاع خيوط أعصابه ليلوي كل خاماتها، لكن وبأعجوبة من قوة الإرادة سيطر على ذلك وهو يخرج من الباص نحو «شارع فكتوريه» نحو «صوفيا تاون».

على أن هدوءه الذي حصل عليه الآن كان ممزوجاً بالتوتر... ليفكر الآن... بالقرار الذي عليه اتخاذه، باستعجال بريء طفولي اندفع من المطبخ نحو غرفة النوم بسرعة الضوء التي لا تقدر العين ملاحظتها ليقف أمام المشهد كاملاً... رجل بجانب زوجته يطوّق عنقها بيده الكستنائية... وفتيل الشمعة يميل بجانب السرير... والحلوة تبدو من الكرسي وآثر أن لا يرى وهو يفتح باب الخزانة، وبينما كان ينبش فيها قال لزوجته بسرور: رائع يا«تلي» - تصغير تحبب لماتيلدا - نسيت آخذ جوازي، بعد أن وصلت إلى المدينة بينما كنت أتجه نحو المكتب ولولا«السيد مافيكيلا». بهذا جفّ أنف العنف وتراجع، لتوقعه صفقة شباك غرفة النوم، خرج من وراء باب الخزانة ونظر من خلال النافذة المفتوحة للخارج فرأى الرجل لابساً صدريته فقط ولباسه الداخلي يركض عبر الشارع. فالتفت ببطء. هنا البذلة؟؟!

ثم رفعها بنشاط من تحت ذراعها ونظر إلى الرعب الذي أصاب«ماتيلدا» وتخشّب عينيها، هي التي جلست على السرير وفمها يرتجف، دون أن يخرج من حلقها بأية عبارة.

ها؟! قال: أرى أن عندنا زائراً مشيراً إلى البذلة الزرقاء، علينا إظهار بعض من كرمنا، ولكن قبل هذا سأتصل برئيسي وأخبره بأنني لن آتي إلى العمل اليوم«فزوووو زوجتي

مريضة»، وسأعود بعد دقيقة لترتيب بعض الأمور، ولما عاد وجد ماتيلدا تنتحب فوق السرير، فرمى بالبذلة التي أخذها من الخزانة على السرير وسحب كرسياً وجلس عليه بشكل معاكس، ووضع ذقنه على ظهر الكرسي منتظراً أن حتى تشبع بكاءً.

بعد فترة توقف تشنج كتفيها، ثم نظرت إلى الرجل الأنيق وهو يبتسم ابتسامة غريبة وفي عينيه عدم ارتياب غير مفسّر، يتحدث معها بقليل من العواطف في صوته الأقرب إلى مزاح متوتر:

لدينا ضيف يا«تلي» ومع انحناء بسيط في فمه قال: أريد معاملته بكل اهتمام سوف يتناول كل وجباته ويشاركنا بكل ما لدينا، ولأنه ليس لدينا غرفة إضافية من الأفضل أن ينام هنا، المهم أنك يا«تلي» ؟ ستهتمين به بصورة فائقة - موسوسة - حتى لا يختفي أو يصير له شيء... ومع لمحة شرٍّ خرجت من عينيه... قال:«ماتيلدا» سوف أقتلك.

ثم وقف على كرسيه ونظر نظرة متنافرة لها طالباً منها وضع الأخ[1] في الخزانة الآن مؤقتاً. وحين تجاوزته لتأخذ«بذلة

(١) أي البذلة التي يعاملها اليوم ككائن حي، ليذكر زوجته بخيانتها له دوماً، كعذاب وعقاب لها لا نهاية له.

الهارب»، التفت لكي يذهب فانتفضت بهياج، هنا توقف وقال: لا يبدو أنك فهمتِني يا«ماتيلدا» لن يحصل أي عنف في هذه الغرفة، إذا تعاونا أنا وأنت على ذلك. لذلك عليك الاعتناء فقط بهذه«البذلة» ثم خرج.

خرج ليذهب إلى«صوفيا تاون» إلى مركز البريد فيها الموجود على خط الاتصال بين«صوفيا تاون» ومناطق البيض التي هي في مدينة«وسدين»، هناك أودع رسالة إلى مديره، ثم سار إلى«قاعة البيرة» الموجودة بنهاية«وسترن ناتيف تاونيشيب» التي لم يزرها سابقاً، لكن بطريقة أو بأخرى غادر الضجيج الملحاح، وروحه جريحة، ثم أمضى نهاره كله هناك.

عاد إلى البيت من أجل العشاء... والمفاجآت، فبيته الصغير قد تغير والعبوس والرصانة التي كان يتلقاها مسحت واستبدلت بلمسة أنثوية هنا وهناك، إذ كانت حتى ستارة مطبخ ملوّنة تمتد على شباك المطبخ، والمدفأة القديمة تلمع بسوادها، وعلى طاولة الطعام غطاء على شكل شطرنج نظيف. ثم ظهرت على باب غرفة النوم المرأة التي كانت يوم تزوّجها شابة نضرة بلون«الكاكاو»، أرسلت دفقة عاطفة إليه، فيما كان الثوب الذي تلبسه يظهر كل صباها وغنجها الذي كان مخفياً مدة طويلة وراء لوحة رسم ألمانية - جافة - هناك وقفت في

المدخل واضعة يدها على مزلاجه مع إمالة برأسها نحو كتفها وهي تبتسم بضعف.

فتساءل بينه وبين نفسه: ما الذي يجعل امرأة كهذه تجرّب الزنا؟! وهكذا أغلق«فليمون» عينيه وأمسك كرسياً من جانبه كما لو أنه أراد جعله مقذوفاً يوجّهه نحوها فكرة عابرة أجبرته على ذلك. لدقيقة كان جوهر الرعب في داخله ضدها ثم عبرت هذه الحالة بداخله وتلاشت.

أنا جائع يا«تيلي» قال مع نظرة حزينة.

نجح السحر فتحركت بتوهج لتحضير عشاء رائع فقط ارتجفت يداها قليلاً ثمّ بتردد حضّرت الطاولة، آخذة مكانها مقابله وهي تلحظه بلهفة، ضامة كفيها بانتظار قراءته لتبريك الطعام، لكن بينها وبين نفسها كانت تتمتم صلاة أخرى أكثر استعجالاً لوضعها الذي هي فيه.

قطع عليها أفكارها:«ماتيلد»، ضيفنا!! قال بوحشية من بشاشة تجاهها جعلتها تقفز، لكن عندما رأت القسوة الطاغية في وجهه ركضت إلى خارج الغرفة موقعة الكرسي خلفها، وعادت بالبذلة معلقة ووقفت ترتجف كريشة تهتز، ونظرت إليه بنظرة اعتراض ضعيفة، فخفّ غضبه وتبخر دون أخذه لأنفاس عميقة لاتزال تطرق حلقه فوق الطاولة جيئة وذهاباً.

ضعي كرسياً هناك، وحدد المكان بإشارة من يده، فتحركت وكأنها شبح بينما كانت تجر الكرسي إلى الطاولة، الآن أجلسي صاحبك على الطاولة... لا، لا ليس كذلك ضعيه على مقدمة الكرسي وثبّتيه حتى يصبح شخصاً آخر - ثالثاً - على الطاولة.

ثم تابع «فليمون» بلا انقطاع... صبّي صحناً له بكرم لأني أتصور أن هذا الشيطان البائس لم ينل طعاماً طوال اليوم.

والآن، بعد أن عاد لها الوعي والعقل، أصبحت حركتها تدور حول هذا الرجل الذي تواجهه دوماً والذي تغير بشكل ملموس تماماً، لقد بدأ ذلك منذ أن فتح الشباك - وحصل ما حصل -.

صارت تخدم البذلة بشكل سخيف حين تحملها دوماً معها مع شعور مرير بالإهانة، بينما كان يأتي ليجلس ويأكل، دون أية صلاة شكر، كأول مرة في هذا البيت، وبفم مليء بالطعام يؤشر بهزة من رأسه لها بأنها يجب أن تجلس في مكانها، فتفعل محدقة بصحنها ويخطر لها كما لو أن شخصاً خارجاً من مجاعة تقدّم له العشاء، لكنها لحظة وصول اللقمة إلى فمها تتحول إلى فُتات مثل الخشب.

لم تعد «ماتيلدا» قادرة على الأكل لذلك صارت تنفجر باكية، ولا يأبه بها «فليمون». بعد العشاء يجمع الصحون بشكل عشوائي ويبدأ غسلها، ويرمي الثياب المبللة دون أن

يقـول كلمـة، لتقـوم وتقـف بجانبـه تجففهـا، لكـن كانـا بعـالمهما يبدوان كاثنين متعاطفين.

بعد غسل كل شيء كان يأخـذ البذلـة ويلتفـت إليهـا ليقـول: هذا ما أريده بعد كل وجبة ثم يمشي إلى غرفة النوم.

كذلك كان الأمر بعد تداعي حياتهما، فبدأت«ماتيلدا» تشعر بـأن عقوبتهـا ليـست قاسـية جـداً بالنـسبة لجريمتهـا الـشائنة، فقـررت أن تمـزح لكـن ببطء لا شـعوري إلا أن الـضغط ازداد عليهـا مـع أن«فليمـون» لم يعـد يـضايقها كثـيراً طالمـا أن شـعيرة البذلة تنفّذ باستمرار.

مرة واحدة فقط حين أملـت عليـه موجـات دماغـه مـا يـدعو للحقد، قرر أنه يجب علينا الخروج مع زائرنا، لذلك أخذ البذلة للكوّى خلال الأسبوع وعاد يوم الأحد الذي عليهما فيـه أخـذ البذلة للنزهـة، وكلاهمـا لـبس للمناسـبة إذ كـان عـلى«ماتيلـدا» حمـل البذلـة عـلى ظهرهـا مـع علاّقتهـا، فـيما مـشي الاثنـان بكـل سرور على طول:«راي ستريت» وتخطيا الزحام أمام الإرسـالية «الأنجيليكانيـة» للملـك يـسوع. مـع ذلـك لم يـرَ المتعبـدون أي شيء غير عادي فيهما، بينما شعرت ماتيلـدا» كـما لـو أن إبـراً محـمّاة تخزهـا مـن الإحـراج، وكـل إبـرة عبـارة عـن نظـرة مهانـة تخترقها.

لكن «فليمون» ظل يسير طبيعياً يقودها نحو «رايستريت» ثـم انعطـف نحـو «مـاين رود»، وكـان يقـف أحيانـاً لينظـر إلى واجهات المحلات، أو ليحيي صديقاً ماراً. بعدئذ ذهبا نحو «توبي ستريت» ليدورا داخل «إدوارد رود» باتجاه المنزل. لقد كـان الخروج خالياً مـن أي حـدث بالنسبة «لفليمـون»، لكـن بالنسبة «لماتيلدا» كان حدثاً طويلاً موجعاً.

وفي البيت التقط كتاباً عـن الشذوذ النفسي ورماه في الهـواء وهو يقول لها: أعطي هذا الهرم فرصة راحة إذا أردت «تيلي»؟.

في غرفة النوم قالت «ماتيلدا» لنفسها: لا يمكـن أن يـستمر الأمر هكذا، وراحت تفكر كيف تقنع «فليمون» بـذلك، إذ لـن تخـرج معـه ثانيـة، لكـن ذكـرى وجهـه عنـدما نـسيت أن تبجـل البذلة لأول مرة في اليوم الأول بقيت أمامها، ففكرت بالهروب إلى بيت أمها لكن ماذا ستخبر تلك المرأة المُحافظة بما حصل؟ حسناً سأهرب فأصبح نظيفة عندها! مفكرة بكثير مـن الفتيـات المطلّقات الآن من اللواتي ربحن حريتهن.

لكـن مـاذا حـصل للممرضـة «كـاكيلي» إنهـا سـكّيرة اليـوم يُعيّرها الأولاد في «صوفي تاون» بصفة «البلوعة؟!

ارتعدت «ماتيلدا»، وفاجأتها فكـرة أنـه لايـزال هنـاك نـساء شريفات متزوجات في «صوفي تاون». ثم تـذكّرت كيـف أنهـن

بعد المدرسة الخاصة أُجبرن على لبس «باتواديكوكيلسن» كما أن الأب «هارينبغي» الإنجيلي نظّم نادياً ثقافياً كما تذكر للمتزوجات، فإذا انخرطت بأي نشاط ثقافي فستجد مخرجاً لضميرها بفعل خير يثير بيتها المتفجر، فتستعيد احترامها لذاتها إذ بعد كل شيء لم يذع «فليمون» فعلها المشين علناً... ولا أحد يعلم في «صوفي تاون» رغم بعض الشكوك، لذلك عليها أن ترى السيدة «مانتوجين» من أجل الاشتراك في النادي الثقافي، ولذلك عليها أخذ الإذن من «فليمون»، وكذلك عليها أن تسأله بلطف، فنهضت لا تعرف كيف ستخاطبه... لقد باتت أحاديثهما قليلة جداً منذ مدة طويلة.

ذهبت لتقف أمامه تتأمل بصمت تركيزه العميق، فقد كان يظهر على وجهه التجهُّم، فتجرأت وقالت «فيل» أريد الالتحاق بواحدة من نشاطات النادي الثقافي للنساء المتزوجات، فهل تمانع؟!

تغضن أنفه ففركه بأصبعين من أصابعه وإبهامه وهو يفكر باحتمالات الطلب، بعد أن التقط نبرة القلق في صوتها، وظنّ أنه يعرف ما تعنيه.

«ميمي»، قال وهو يهز برأسه موافقاً: أظن أنها فكرة جيدة، فأنت لا يمكنك التنظيف هنا طوال اليوم، نعم يمكنك، وعاد لكتابه.

لقد كانت فكرة المركز الثقافي رائعة لأنها وجدت نساء مثلها مع الوقت، في وضع تراجيدي لينخرطن كليةً بنشاطات حيوية، كان الجو جو تثقيف بهيج، يهدف تعلُّمِهم أشياء وممارستهم أشياء مثل تنظيم أعياد وأسواق ونشاطات شباب كالرياضة والموسيقا ومساعدة الذات ومشاريع جماعية للمجتمع، فانخرطت في لجان واجتماعات ومناقشات ومؤتمرات، وكان ذلك بالنسبة لها مساهمة جديدة في النشاط الإنساني تفتحت لها شخصيتها، فأطلق لها«فليمون» العنان في كل ما تريد، بينما بدت ممارسة تلك الطقوس المنزلية سخيفة وسخيفة جداً.

مرة قررت إقامة حفلة صغيرة لصديقاتها وأزواجهن، فكان «فليمون» شهماً بالنسبة لذلك وقال لا بأس، حتى إنه أعطاها مالاً إضافياً للمناسبة، طبعاً هي لم تكن تقدِّر ما يعاني من توتر بمزاجه الانتقادي، فظهر أسبوع من جنون القلق، حين حاول «فليمون» الابتعاد عن فوضى الترتيبات بقدر ما يمكن، وبدت كثير من الأشياء تأخذ شكلها بتتابع، مثل ثياب جديدة تم صنعها، طبخ«التورتات» مع تحضير ثلاثة أصناف من اللحوم، لحم بقر لمن يحتمل أن تصلهم العزيمة، ولحم خروف. بدا الأمر وكأن«ماتيلدا» تريد إطعام كل الحشود في«ماونت» دون أي عون من معجزات - مسيحية؟ -

رأى «فليمون» ضيوف «ماتيلدا يوم الحفلة، وفوجئ بالبركة الجميلة التي استقبلت بها ضيوفها بطاولة طويلة عليها الطعام والزهور و«السرفيس» المغري. أجلست ضيوفها كلهم حول الطاولة وبدأت الحفلة بصيغة تحاكي تقاليد المدن، ثم خارج الأحاديث العادية ظهرت الأهداف والتناقضات البشرية كما تظهر في كل حفل في «صوفي تاون».

التقطت «ماتيلدا» نظرات الاستغراب على وجه «فليمون» حين حاول إخفاءها بقوله: أررر... على شرف الضيوف. عندها غامرت «ماتيلدا» بقولها له: أتوسل إليك فقط هذه المرة «فيل»، فصرخ بحماس: «ماتيلدا» أحضري ضيفك! قالها بشكل قاطع متهكم، «أم أنك تخجلين منه؟!».

ذهبت مزرقة لا حيلة لها سوى البحث عن قدرِها، ثم عادت وأدخلت كرسياً في إحدى الزوايا ووضعت البذلة عليه، وببطء وضعت صحن طعام أمام البذلة، فكاد الزوار للحظة أن يُصعقوا وراحوا يتكلمون بنفس الوقت ويوجهون حديثهم له:

ما الفكرة يا «فليمون» ؟ لماذا عليها تقديم الطعام لبذلة؟ ماذا حصل؟ هكذا ثرثر البعض بطريقة غبية، فأدار «فليمون» رأسه صوب «ماتيلدا» وقال: الأفضل أن توجهوا أسئلتكم لزوجتي فهي تعرف الأخ أفضل مني، وهكذا صبّ كل الاهتمام على «ماتيلدا»، لم تستطع المرأة الكلام لدقيقة، فتغلّف

الموقف بكثير من البؤس ثم قالت بشكل غير مقنع: إنها مجرد لعبة ألعبها أنا وزوجي وقت الطعام، فضجوا بالضحك، وتركها«فليمون» تنُقذّ من إحراجها بما قالت.

استمرت الحفلة وفي كل مرة كان«فليمون» يحدّق«بماتيلدا» لكي تؤمّن خدمة البذلة مع تغيير الوجبات كان الضيوف يتسلون كثيراً بهذا الإصرار الشديد الذي يلعب به الزوج وزوجته لعبتهما الصغيرة هذه. فقط لم تكن هذه مزحة بالنسبة «لماتيلدا»، بل كان مفجر حراري يغلي في حلقها. بعد الحفلة ذهب«فليمون» مع أحد الضيوف لكي يريه، كما وعده، ببضاعة أصلية، وعاد مخموراً بعد ليلة الإجازة هذه إلى باب مطبخه ثم فوراً إلى غرفة نومه حيث رآها.

عندهم في«صوفي تاون» عبارة عامية تصف مثل هذا الموقف بالقول: مطبوخ رأسه«cook out of head» وتعني أن الشخص واقع تحت صدمة عنيفة وكل رشفة كحول تدور في رأسه ثم تتبخر فوراً، فيقف بوقار قبل كلية الحقيقة الصاعقة.

هناك كانت مستلقية وهي تتمعّج كما لو أنها تطلب قبل أن تموت بعض الحب الذي تريد أن تلتمسه من عاشق لا يغفر لكي يعانقها قليلاً... مرة واحدة... فقط مرة واحدة؟ وبالرغم من ألم غضبه الشديد صاح فليمون: Tilly!! بينما كانت تلفظ أنفاسها.

الباب الثاني

مقالات لشهادات أدباء

جوهانسبورغ، جوهانسبورغ

ناثانييل ناكاسا

إن زوار جوهانسبورغ هم أكثر الناس الذين ينالون أفضل الأوقات. إنهم يأتون من المدن الصغيرة لشهر أو لشهرين ثم يسافرون إلى بيوتهم بسرعة عبر البحار، محتفظين بذكريات وحدها تربطهم بجوهانسبورغ. لقد رأيتهم يشمون الحشيش في الطرقات الضيقة الممتدة، وراقبتهم وهم مأخوذون بجو الوفرة التي يعيشها السكان البيض في الضواحي الشمالية للمدينة. وهؤلاء الغرباء هم عادة مراسلون لصحف خارجية حيث يجدون الدفء في قذارة أحياء السود الفقيرة. وينظرون إلى جوهانسبورغ من كل الزوايا بطريقة مشابهة لما يحدث عندما يحاصرون فيها رجل دولة مشهوراً في مؤتمر صحافي، لذلك يسألون أسئلة نقدية مهمة دون التورط باهتمامات المدينة.

وقد حاولت مراراً أن أفعل مثلهم، لكي أُقارب جوهانسبوغ بتوجه الزوار الذين لا علاقة لهم بها، ولسوء

حظي لم أكن أنجح بفعل هذا لأنني جزء من جوهانسبورغ، وأقصى ما يمكنني فعله رؤية حالي كشخص قليل الفهم متطوعاً كحقل تجارب في اختبار علمي مهم لعالم دجّال...

هذا ما شعرت به في السنين الأولى القليلة في جوهانسبورغ بعد أن سافرت من«توربان» التي تبعد نحو مئة ميل بالقطار لكي أبدأ العمل كصحافي. وبعد الانتهاء من العمل كنت أحياناً أنام على الطاولة في المكتب أو أبقى عند بعض الأصدقاء الذين يدعونني إلى العشاء لأنام ليلتي عندهم.

وهذا ليس لنزعة بوهيمية عندي، لكن وحسب القانون المحلي يتوجب على العازبين العيش بالفنادق في جوهانسبورغ وفيها يتشاركون بمنامة تحوي عشرة أشخاص أو أكثر، منهم من هو موظف بمكتب أو ساعٍ أو حارس ليلي أو أستاذ مدرسة أو حتى طبيب ساحر، وقد يكونُ لأحدنا الحق في أن يلعب بآلة موسيقية أو بأوتار غيتار بينما آخرون يقرؤون كتاباً أو يشربون البيرة في هذه المنامة.

وبدلاً من هذا قررت أن أعيش متجولاً إذ كان من الصعب عليَّ الحصول على سرير في بيت شباب، وأذكر أنني حاولت مرة حجز غرفة بطريقة سيئة حين التقطت الهاتف وتحدثت معهم بلهجة سكان أوكسفورد المزوّرة وقلت لهم:«أنا بروكين شو، هل يوجد عندكم سرير فارغ»؟.

«نعم لدينا أسرّة»، أجاب صاحب الصوت في نهاية الخط، الذي أظنه المسؤول عن الإقامة، وقال: «لكن يجب أن أشرح لك أننا لا نقبل إلا أولاداً مثقفين».

«أي نوع من الأولاد هؤلاء؟».

أولاد منتقون»، كان جوابه «موظفون في خدمات أساسية مثل الذين يوزعون الحليب أو عمال نظافة، أولاد يجب أن يكونوا على رأس عملهم في الصباح الباكر وحتى وقت متأخر من الليل».

«حسن جداً»، قلت، «فالصبي الذي سأرسله من نوع خاص، عليه أن يبقى في المدينة إلى وقت متأخر بين فترة وأخرى، هو صحافي».

«حسناً، أيها السيد بروكين شو، لا أستطيع أن أعدك بأي شيء، ولكن يمكنك إرساله إذا أردت لأن علينا التعامل مع كل حالة حسب مزاياها».

لم أذهب لأرى المسؤول لأنني لم أكن حقيقة أرغب ببيت الضيافة هذا ولا أرغب أيضاً أن أنتقل من الصحافة إلى خدمات أساسية. وهكذا، نحو ثمانية عشر شهراً تقريباً من الأخذ والعطاء ظللت أتجول من غير أن يكون لي عنوان بيت محاولاً أن أجعل من هذا الأمر أفضل ما يكون، والفكرة من

كل هذا هي إظهار علاقتي المعقّدة مع «جوهانسبورغ» كجزء من تجربة رائعة. وبهذه الطريقة أستطيع أن أعتاد مهنة العيش هذه دون أن أكون مكتئباً.

ولحسن الحظ، شأني شأن شاب صغير من بلدة صغيرة في جنوب أفريقيا كانت تثير ني ببساطة فكرة وجودي في «جوهانسبورغ». وبينما الآخرون يهرعون إلى بيوتهم في نهاية كل يوم كنت أستمتع بالسير من طرف إلى طرف في المدينة، وفي بعض الليالي أقضي وقتاً طويلاً بقراءة جرائد لندن في مكتبة «راند ديلي ميل». وبسرعة اعتاد أصدقائي الذين يدعونني إلى شققهم أن آخذ عندهم حمَّاماً بالإضافة إلى العشاء والمشروب.

وفي بعض الأوقات كنت أنام في غرفة حارس مجموعة مكاتبنا. كان هذا الحارس الليلي طويلاً وداكن اللون ويلبس دائماً بزة عمل زرقاء ويتكلم لغة الزولو. ويبدو أنه كان يرحب بوجودي ويتحدث كثيراً في السياسة معي، ومرة أراد أن يعرف المدة التي أظنّ أن البيض سيبقون فيها فوق رؤوسنا، وعما إذا كنت أفكر بأنه سيأتي الوقت الذي نكون نحن في الذروة، وماذا يقول البيض الآن.

بإجابتي على هذه الأسئلة شعرت أنني أكسب ترحيب هذا الحارس فقد رآني كمترجم لآراء البيض وطرقهم لأن بعض

أصدقائي بيضٌ،. أما في الضواحي وعلى كأس مشروب كان الناس يمطرونني بأسئلتهم عن الأفارقة من أصل أوروبي، وكانت هذه الأحاديث غالباً تتطور إلى حديث سقيم حول أثر السياسة العنصرية على بيض أفريقيا، وفي هذه الحوارات كنت أقدم صورة خاطئة عن التطورات الأخيرة فأنا أعرف قليلاً عن مدن الأفريقيين البيض مثل كل الناس، فقد عشت بطريقة غير قانونية في المدينة وأنا أريد أن أبقى فيها، وليس خارجها بعيداً أكثر من خمسة عشر ميلاً.

لقد كنت مأخوذاً بجوهانسبورغ وبالأخص ليلاً. وبسبب تعليمات حظر التجول كان الأفارقة يخرجون من المدينة نهاية كل يوم. فكانت عشرات من القطارات السود محملة بآلاف السود الذين يتوجهون إلى منازلهم خارج المدينة. وعند الساعة الحادية عشرة، وعندما تصبح تعليمات حظر التجول نافذة تتحول غالبية وجوه المدينة إلى بيضاء.

لكن في النهار تصبح المدينة خليطاً كئيباً. فتمتلئ بالأفارقة الذين يكدحون على دراجات شركاتهم أو يتسكعون على الأرصفة بحثاً عن عمل. وما يجعل هذه المدينة أكثر كآبة وجود «صبية المناجم» الذين تطوعوا حديثاً بالعشرات، وهم رجال سود من كل أنحاء أفريقيا. لقد كانوا يسيرون في المدينة

ويتدثرون ببطانيات على أكتافهم ويتأبطون أرغفة خبز وهم بطريقهم إلى سكنهم في فنادق خاصة بمناجم الذهب. لقد بدوا لي وكأنهم سجناء. وكان بعضهم بوجوه بريئة ومشدوهة يحدقون برغبة شديدة بالنساء من المارة. كما كان معظمهم، إن لم يكن جميعهم، أميين بل محكوم عليهم أن يظلوا كذلك بقية حياتهم. شعرت بالاستياء لإحساسي بالمسؤولية تجاههم دون قدرتي على القيام بشيء حيال هذا. لقد أفسدوا الصورة التي تخيلتها لجوهانسبورغ بأنها عملاق ينتفض ليعلي شأن من يتحدى سلطة البيض.

هذه الصورة التي تخيلتها لجوهانسبورغ تنطبق إلى حد بعيد عند الليل. لقد كانت لدينا نظرية نشترك بها أنا وصديقي الذي أمضى أيضاً معظم وقته متنقلاً في أماكن عدة من المدينة بسبب مشكلة السكن، إذ نعتقد أن أفضل طريقة للتعايش مع الفصل العنصري هي تجاهله.

ولقد نجحت نظريتنا هذه بشكل رائع في بعض الأوقات. ففي إحدى الليالي ذهبنا لشرب القهوة في«تكسان»، وهي حانة تقدم القهوة للبيض في شارع«كوميشينور». وكان يدير المكان رجل أميركي من ولاية تكساس، وضع العلم الأميركي في الحانة وكذلك صورة للرئيس أيزنهاور بابتسامته العريضة.

جلسنا أنا وصديقي على مقعدين عاليين عند مسند الشرب الطويل وطلبنا فنجانين من القهوة، فذهب ابن صاحب الحانة ليحضر لنا القهوة، ومن الواضح أنه كان يتوقع أننا سنشربها على الرصيف بمكان ما خارج الحانة، لكن في هذه الأثناء بدأنا أنا وصديقي الكلام بصوت مرتفع حول صورة الرئيس أيزنهاور.

بدأ صديقي القول وهو ينظر إلى الصورة:«انظر إلى كعكة شعره المعقودة في الخلف. هناك خطأ خطير في اختيار الأميركيين لأبطالهم. تخيل أن يكون طموح ملايين الأطفال الأميركيين أن يكبروا في ظل فراغ هذه الابتسامة العريضة التي يرمز إليها آيك! فهناك الكثير من المتعلمين الذين بإمكانهم بناء طموحهم عوضاً عن أشخاص كهؤلاء.

وإلى أن أحضر لنا الابن التكساسي القهوة، كان والده قد تورّط معنا في نقاش حاد يدور كله حول«آيك». اعترف الرجل من تكساس أنه لا يعرف الكثير عن السياسة لكنه يعرف جيداً عندما يرى رجلاً يحبه الله. وكان النقاش لا يزال محتدماً عندما انتهينا من شرب قهوتنا وغادرنا. ولا يبدو أن أحداً قد تذكر الفصل العنصري.

وبصرف النظر عن كايب تاون، فإن في جوهانسبورغ أكبر عدد من البيض الذين لا يريدون الفصل العنصري، ربما بعض

الناس يعزو سببه إلى درجة التقدم الصناعي والتجاري الذي حققته المدينة. ومهما كان تفسير ذلك، فمما لا شك فيه أن جامعة «ويتوتر سراند» تركت أثرها على توجه المدينة العرقي.

لكن جامعة«ويت» لم تكن منفتحة كما يوحي لك موظف العلاقات العامة فيها. فهي بأغلبيتها بيضاء، وفيها عدد محدود من الطلاب السود. ومع هذا فإن صفتها اللاعرقية سهلت العلاقات بين رجال سود وبيض، ومثل هؤلاء ربما لم يلتقوا من قبل إلا كسيد وخادم أو كعدو لدود.

وكصحافي فقد مُنحتُ إذناً لاستعارة الكتب من مكتبة الجامعة. هذه الفرصة، في تصفح كتب في المكتبة بين طلاب من جميع الأعراق وتفحُّص أكبر عدد من الكتب التي تصطف على جميع الحيطان، تحولت بالنسبة لي من نظرية عن شمولية الثقافة إلى حقيقة معيشة.

وبسبب خلفية الطلاب المشتركة في الفصل العنصري فقد كان لديهم فضول لاكتشاف مساحة في حياتهم خالية نسبياً من حاجز اللون. لقد كان هناك حماس عام وغالباً ما يصبح مطلباً واضحاً للاندفاع ومعانقة بعضهم. ومن بينهم أولئك الذين استطاعوا تجاوز سطحية وفجوة الأخوة ونجحوا في ترسيخ علاقات صادقة وحميمة.

مثـــل هـــؤلاء كـــانوا ينزلـــون إلى مطعـــم العـــم جـــو في «فوردسـبورغ»، وهـو حـي هنـدي يقـع في الجانـب الغـربي مـن المدينة. لقد كانوا يأتون ليأكلوا الكـاري ويـستمعوا إلى موسـيقا الجاز، فهو المطعم الوحيد الذي سمح بانعقاد سلـسلة حفـلات يحييهـا عـازفو موسـيقا الجـاز لمتعـتهم الشخـصية قبـل حـضور جمهور من أعراق مختلفة.

وبالرغم من وجـود مركـز قريـب للـشرطة مـن مطعـم العـم جو، فإن أحداً لم يتدخل لوقف هذه الحفلات. وقد استنتجنا أن سبب إحجام الشرطة عن التدخل كون العم جو كان يرسل لهم الطعام بالدين.

إن الأشـخاص الـذين يتكلمـون عـن انحـدار التواصـل في أوروبا وأميركا، عليهم القـدوم إلى جوهانـسبورغ للبحـث عـن هـذا الموضـوع. فـما نـراه هنـا هـو أكثـر مـن انحـدار إنـه تعطيـل للحـوار. إن حـاجز اللـون الـذي هـيمن عـلى كامـل الحيـاة في جنـوب أفريقيـا لازم وأثقـل أمـاكن الطعـام بـشكل ممـل في كـل أنحاء المدينة. وكنـت أفكـر مـراراً كـم هـي مزعجـة لأشـخاص متعلمين بشكل كاف أن يقوموا بحوار جيد دون التطرق لمسألة الفـصل العنـصري. يمكنني أنـا أن أنجـو لأنني لـست واحـداً منهم.

لقد كانت أحاديثي في جوهانسبورغ تتمحور دائماً حول حاجز اللون. ولحسن الحظ أحياناً تكون مثل هذه الحوارات غنية ولها أهداف. أتذكر مرة كنت أنا وصديقي نتناول العشاء في منزله الكائن في إحدى ضواحي البيض الأقل ازدهاراً. وكان من بين المدعوين في تلك الليلة رسام أبيض أفريقي موهوب. وجهه هزيل ونحيل يذكرني برسوم آرثر ميللر. حتى إنه يلبس نظارات فتكتمل تلك الصورة. كان مضيفي قد ألمح لي من قبل أن هذا الرسام يؤمن بالاستقلال القومي ويدعم سياسة الدكتور «فيروارد» في الفصل العنصري. وهذا الرجل نفسه كان قد أمضى ما بعد ظهر ذلك اليوم بأكمله محاولاً الحفاظ على حياة طفل أفريقي أسود حديث الولادة كان قد تُرِك على الرصيف فحضن الطفل وألبسه ثياباً دافئة واتصل هاتفياً بالمستشفيات والشرطة. وبما أننا كنا نتكلم عن الرسم والجاز كان لابد لنا من الانجذاب إلى المسألة العرقية. وكنت بالفعل أرغب بسؤاله إن كان حقاً مع الاستقلال القومي ويؤمن بالفصل العنصري، فأكد لي أنه كذلك، وكنا لحينه قد اطمأن أحدنا للآخر فتبادلنا السجائر وتشاركنا بآراء حول الطعام الذي على ما يبدو تأخر تحضيره وقتاً طويلاً.

سألته: «أي نوع من القوميين أنت؟».

«لكن لماذا؟».

«كيف يمكنك أن تقترع مع سيادة الفصل العنصري ثم تشرب البراندي معي؟».

«لكـن مـا الخطـأ في أن أشرب معـك. فأنـا أرغـب حقـاً في الشرب معك بأي مكان. في منزلي أو في منزلك من أجل هذا».

«وماذا لو أخبرتك أنه ليس لدي منزل؟».

«ماذا تقصد؟».

«كما قلت لك، ليس لدي منزل بسبب القوانين التـي صـوّتم أنتم لها».

«ماذا؟ أين ستنام الليلة مثلاً؟».

«لا أعلم. يمكن أن أنام هنا، أو بأي مكان أجد فيه سريراً».

تأثر الرسام، ولقد أحببت رؤية وجهه المرتبك.

«حسناً، إذا كنت حقاً تعني ما تقوله يمكنك القدوم والعيش معي. لدينا غرفة بأكملها خالية في المنزل».

لكن حينذاك توقفت عـن كـوني أتسلى، لوجـود خطـأ مـا في مكان ما.

فقلت له: «إن الحزب الذي انتخبته أصدر قوانين تقول إن هـذا غير قانوني».

فاحمرّ وجه الرسام، ونظر إلى الجهة الأخرى ثم تناول كأسه. وقد أصبحت أنا غاضباً أكثر وأكثر.

«لماذا أنت إذاً من الحزب القومي إذا كنت ترغب في الجلوس معي؟ ألا تريد فصل الأعراق عن بعضها؟».

فجأة، وضع كأسه جانباً ونظر نحوي وكأنه يحتكم إليَّ قائلاً: «كما ترى أنا أفريقي أبيض، والحزب القومي حزبٌ شعبي، ولهذا السبب انتخبته».

تسعون يوماً

روث فيرست

خلال الستة والخمسين يوماً الأولى لاحتجازي في الحبس الانفرادي تحولت من كائن منتصب إلى كائن منبطح. فقد أصبح كل عالمي عبارة عن هيكل سرير حديدي أسود لا يمكن الجلوس عليه لبرودته الشديدة. لذلك كنت أستلقي عليه مجهدة وأنا أحاول حساب الساعات والأيام والأسابيع متظاهرة بعكس ذلك. أما الفراش فقد كانت به تكتلات، وغطاء السرير الرمادي كان ثقيلاً مثل مشمعات بساط الأرض وذا رائحة تشبه رائحة البطاطا العفنة، فتعلمت إهمال هذه الرائحة والتملص من نتوءات الفراش. والناظر إلى الزنزانة من خلال الباب يراها كسرداب للموتى لمن لديه«رهاب» الأماكن المغلقة، فالحجارة باردة. ولولا المصباح الكهربائي على شكل عين صفراء مثبتة في منتصف سقف الغرفة لكانت الزنزانة

مظلمة كلياً. فالمصباح كان يلقي الضوء على قذارة الجدران التي طُليت بالسواد من الأعلى بحدود ثلثي المسافة. أما باقي جدران الزنزانة فقد طُليت يوماً ما بالأبيض، وكانت طبقة الغبار ملتصقة فوق سطحها الأساسي. أما الشباك في أعلى الحائط المرتفع عند رأس السرير فكانت تتكدس عليه ثلاث طبقات من السخام الأسود علقت ببعضها ليصبح الشباك تقريباً غير نافذ ولا يشبه الفتحة، وبعد ثلاث خطوات من الباب أُصبح في سريري.

لقد تُركت في هذه الزنزانة لمدة طويلة وكافية لأخاف من أن أصبح كحشرة لا لون لها تحت صخرة رمادية بعيداً عن السماء وضوء الشمس والعشب والناس.

كنت في السرير الحديدي كمن أُغلق عليه في علبة كبريت محكمة، إذ كان ضيقاً حين الاستلقاء فأجعل يدي مستقيمة على جانبي كطريقة نظام تقييد المحكومين. وبالرغم من هذا فقد كان سريري مكان عزلتي وملجئي وخصوصيتي وسرّ حياتي، فمنه أشعر أنني مسيطرة على الزنزانة فلا حاجة لي للتجوال فيها، ويمكنني تجاهلها لأجعل نفسي مرتاحة، فأنام أي وقت أشاء دون ترقب أية مقاطعة لنومي، وبإمكاني التفكير دون تشتيت، منتظرة الأحداث لتحصل وأنا مرتاحة في سريري.

مع ذلك لم تمضِ ساعة على رميي كالجذع في الزنزانة حتى وجدت نفسي مجبرة على فعل ما تحكيه القصص، وبما يقوم به السجناء بذرع الزنزانة طولاً وعرضاً. وحين حاولت لم أجد فسحة كافية لأن السرير يأخذ معظم مساحة الزنزانة. والمسافة المتبقية بينه وبين الحائط فيها رفٌّ ناتئ، لذلك لا أستطيع السير داخل الغرفة ولا حتى عبورها لقياس هذه الثمانية أقدام بستة، إذاً، عليَّ المشي بمحاذاة السرير والرف لأقيس الطول ومن ثم أحمل حذائي في يدي وأزحف تحت السرير لأقيس العرض. فمن الضروري أن أكون دقيقة فلربَّما أُسأل في يوم ما عن حجم زنزانتي.

حين انتهى القياس عدت إلى سريري. وكان بالإمكان أخذ أربع وضعيات للتمدد، إما على ظهري أو بطني أو على أحد الجانبين، ولكل وضعية شكلان مثل مدّ الأرجل أو ثنيها. وفي الليالي الطويلة يكون تغيير شكل الوضع خطراً كالمشي، وعند ثني رجليَّ أصبح بمستوى خربشات مسمار على الحائط: «أنا هنا لقتل طفلي. أنا في الرابعة عشرة من العمر». وأخبرتني السجّانة أنهم يتذكرون فتاة. ويلف الغموض باقي من كتب تلك الخربشات الأخرى: «ماجدة تحب فينسنت إلى الأبد». دلالة على هذا الإخلاص المثابر. وآخرون يقومون برسوم توضيحية بذيئة لإظهار العاطفة نفسها، ومن بين هذه الخربشات جميعاً تظهر سهام وقلوب كيوبيد - إله الحب -.

أيضاً سجينات «شارب فيلد» للطوارئ تحركت خربشاتها أيضاً: «دعوا أفريقيا تعود» بصيغة عامية بالكاد يمكن للناظر فهمها. لقد كان الأفضل عدم النظر إلى الجدران الإسمنتية، لكن حتى لو أغلقت عينيّ وغرقت في دفء السرير فهناك ما يذكرني دائماً بأنني في الزنزانة. فالأبواب في كل مكان في مركز الشرطة مصنوعة من الحديد المصفح عندما يجرونه يطلق رنيناً، لتطرق ترddاته رقبتي وكتفي، ومن أوتار رقبتي أشعر بما يحصل في الممر وفي كل الممرات في كل من طابقي مركز الشرطة هذا. كذلك الأبواب ليس لها مقابض من الداخل، وقد أصبحت هذه الأبواب الجرارة دون مقابض أكثر إذلالاً - لنتذكر أننا في الحجز - من النوافذ القذرة وأكثر من الجدران الإسمنتية لهذه الزنزانة وكأننا... داخل سترة ضيقة قادمون من لحظات مشرفة إلى عنف قيد الأمراض العقلية.

لقد مضى عليَّ الآن في سجن «بريتوريه» الرئيسي مدة ثمانية وعشرين يوماً، كمن أُطبِقَ عليه بزجاجة محكمة داخل حوض أسماك ميتة ليأتي الناس لمشاهدتي أحياناً ورمي ذرات من طعام السمك، فأراهم من خارج صندوقي الزجاجي بوضوح دون معرفة من هم ولا هوياتهم أو أي علاقة متبادلة معهم بالخارج. أما عندما كنت في سجن ساحة مارشال حيث كان الهباب حولي يملأ رائحة الهدوء في ظلمة مركز البوليس فقد كان هذا

مبرراً للاكتئاب ولكنني يومها كنت مبتهجة وجموحاً. أما هنا في «بريتوريا» حيث السجن يشع بالفولاذ المصقول، فقد أصبحت تدريجياً أتجه نحو الاستسلام، وسجني كان نتيجة هجران للوقت المرجأ. لقد فكرت ملياً بالمهارات الجديدة التي أوجدها فرع الأمن لإخضاع الناس بوساطة العزل المفروض بالقوة يفصلهم عن إنسانيتهم. لقد شعرت أنني مستبعدة غريبة عن نشاطاتي القليلة التي كنت أقوم بها، ومحرومة من تبادل العلاقات الإنسانية، جاهلة ما كان يحصل في العالم الخارجي، إذ لم يكن يصلني أي صدى منه، كنت منسية ومجهولة عن العالم ومحتجزة لا يمكن لأحد أن يصل إليَّ.

قرأت الكتاب المقدس، ومارست أحلام اليقظة، عسى أن يني ذلك إلى تفكير منظم، فوضعت حبكة لقصة شخصياتها أنا وأصدقائي مسبوكة من عالم بطولي مخطط ومنتظم به معارضة الحكومة، ننادي بالاضطرابات وقوانين العصيان المدني، لكن الشرطة قمعتنا وطاردتنا وأوقفتنا واعتقلتنا، وانتهى بنا الأمر في زنزانات السجون، وأنا هنا من جديد أتشبث بهذه الزنزانة. ولقد قمت بأكثر من ذلك، إذ أمضيت الساعات لاكتشاف المبادئ السياسية لشخصياتي في الرواية، كما حلّلت ميولهم الخاصة وفحصت سلوكهم في علاقاتهم الغرامية وزواجهم وأحاديثهم التي لا معنى لها أو تحررهم من الأوهام . لكن

عندما كان يتداعى خيالي كنت أتجه إلى الكتاب المقدس، وكنت أتوق لكل لقراءة أيَّة مادة، ففي أحد أيام إقامتي في«بريتوريا»، وبينما كنت في الحديقة في ساعات الرياضة الصباحية وجدت قطعة ورق مرمية في سلّة رماد من الأفران التي في الأعلى. فالتقطها بين إبهامي والسبابة لأقرأ الكلمات. لقد كانت بطاقة سجن مسجل عليها اسم السجين ورقمه وجريمته ومحكوميته. ولم تكن تزيد كلماتها عن«الدزينة»، ولكنها كانت بالنسبة لي اكتشافاً أثرياً، وبرهاناً على أن هناك أشخاصاً في هذا المجتمع يقدّرون اللغة المكتوبة ويَقدِرون على استعمالها. والأفضل من هذا الاكتشاف كان حصة السكر البني التي بدأت تصلنا كل بضعة أيام، وهذه الحصة من ست أو ثماني أونصات كانت ملفوفة داخل قمع من الورق؛ ورق مطبوع ومنتزع من مجلة قديمة. بهذه الطريقة كنت أحتفل بقراءة عدة فقرات ممزقة من مقال«صرخة الحرب» لعضو في جيش الإنقاذ، ومرة واحدة فقط حصلت على قطعة ورق مقروضة من جريدة«ساترداي إيفينيغ بوست». وحول هذه القطعة المنتزعة حاولت أن أقوم بارتجال رواية من سلسلة جيمس بوند، تمحورت كل أحداثها حول الهروب من سجن«بريتوريا» المركزي ومن زنزانتي. وعموماً كانت حصتي من السكر مغلفة بأوراق إعلانات.

ولم أكن محظوظة مثل شخصية «زويغ» في فيلم اللعبة الملكية الذي وجد بالصدفة كتيباً لتعليم الشطرنج عندما قام بزيارة مركز قيادة «الغوستابو». لكن حتى إن وجدتُ ذلك فقد كان لديَّ شك باستدعاء قدراتي التركيزية لتعلم هذه اللعبة دون رقعة أو أحجار. لقد كنت بفكري أقوم بطرق لعب تشبه ما يقوم به الأطفال؛ بأن أتذكر كيف تُكتَب بالأحرف الأبجدية أسماء الأدباء ومؤلفي الموسيقا والعلماء والبلدان والمدن والحيوانات والفاكهة والزهور والخضراوات. وبمرور الأيام تناقصت قدرتي للقيام بهذه اللعبة ولم أعد بارعة فيها. وخلال هذه الفترة كنت أتغذى على مخزون ذاكرتي، وكان دائماً لدي ذاكرة سيئة (بالرغم من أن فرع الأمن لم يصدق ذلك!) وقد اعتمدت دائماً على قلم ودفتر ملاحظاتي والقصاصات الورقية، ووضع علامات على هامش كتاب لأتذكر أية واقعة، فالقصائد الشعرية التي تعلمتها في المدرسة ضاعت. أما أفعال اللغة الفرنسية فقد كانت تتجنبني. وعشت من جديد أحداثاً وقعت لي في الماضي: كأحاديث ارتباطات مع أشخاص تبرز متألقة وتتوقد بنجاح لترتد ثانية بحياء في أوقات غير ملائمة. لقد أخضعت نفسي لتدقيق مكثف لكن بطريقة مشتتة وغير منظمة، ولم أرَ نفسي متمتعة ببصيرة نافذة وواضحة في وضعي غير السوي هذا، بل وجدت نفسي في عالم مبعثر من الماضي يحولني

عن بؤس الحاضر. كنت في حالة رعب بسبب غياب قدراتي المبدعة والتصورية، لكنني كنت مصممة على البقاء، بأن أتكيف وأصبح، السبات الشتوي (للدببة). هكذا كانت الحياة تتقدم ببطء، إنه مجرد انتظار لمرور الوقت والتحمل، وتخدير للذات لتقليص المصاعب وهزيمة الأيام التي تجري على مهل. فالحياة أثناء الاعتقال شرك مثالي للعقل كي يتوه، مثلي تماماً. وأحلام اليقظة حلت محل التفكير الهادف والحيوي. ويعود سبب جزء منه إلى احتجازي بهذا الفراغ والسبب الآخر إلى خضوعي لطبيعتي وهي الإحساس بالصعوبة الشديدة لعدم قدرتي على التفكير والتأليف الممنهج دون أدوات مساعدة، هي القلم والورقة.

النشاطات الروتينية التي استطعت تنظيمها كانت قليلة، مع هذا فقد كافحت كي أمدها لفترة طويلة لكنها وللخيبة كانت تنتهي بسرعة لأعود وأغرق في كسل ذاتي. كنت مثلاً أقوم بتوضيب سريري بعناية عدة مرات في النهار، ثم أطوي ثيابي وأعود لأطويها ثانية، أحزم حقيبتي عدة مرات، أمسح الغبار، ألمع كل ما يقع تحت ناظري، أنظف الجدران بقطعة قماش. أبرد أظافري بكل عناية، وأنتف حواجبي ثم شعر ساقي شعرة شعرة، بملاقطي الصغيرة (وعندما أخرج تحت الشمس أنتزع الشعرات البيضاء التي تنمو على صدغي). لقد قمت بسحب

خيـوط درزات أغطيـة المخـدة والمناشـف لأعـود وأخيطهـا ثـم أسحبها وأخيطها من جديد. إن التكـرار لهـذه النـشاطات التـي لا تهدف لشيء، والانعزال الطويل جعلني أسيرة الروتين لأجد نفسي استحواذية وأهـتم دائـماً بالتكهنـات. فأسـتمع إلى صـوت عجـلات الـسيارات عـلى حـصي الطرقـات مـن خـلال النافـدة وأحاول أن أخمّن نوع السيارة. ثم أتسلق عموداً مرتفعاً لأتحقـق من تخميني، فأضع علامة سوداء بحال أخطـأت. وقـد وصـلت إلى درجة أن أقوم برهـان مـع نفسي عـلى أي يـوم مـن الأسـبوع سيأتي فرع الأمن، ومن سيأتي منهم: الكولونيـل أو المـايجور، في مهمة التفتيش، وكـم سيـستغرق وقـت انقطـاع تنفـسي عـشر أو خمـس عـشرة ثانيـة قبـل نـزولي تحـت رشـاش المـاء البـارد عنـد الـصباح. كنـت أرمـي البـذور في كـيس ورق أسـتعمله كـسلة للمهملات، فإذا أخطأت سيربح«فورستر» (وزير العـدل) أمـا إذا أصبت الهدف لثلاث مرات متتابعـة فسيطلق سراحـي عنـد انتهاء التسعين يوماً.

تسعون يوماً. لقد قمت بحساب التاريخ مرات ومرات، ولم أثـق بحـسابي، فقمـت بـه مـن جديـد. كنـت يوميـاً أكـرر هـذه الـسجعة القـصيرة«ثلاثـون يومـاً شـهر أيلـول». وقـد حـسبت الأيام من التاسع مـن آب يـوم اعتقـالي، فروزنـامتي التـي تعلـق على الحائط تركتها في ساحة«مارشال»، أمـا هنـا في«بريتوريـا»

فقد كانت روزنامتي معلقة خلف طية صدر قميص النوم. عند هذه الطية وبإبرتي وخيطي، أقوم بخياطة قطبة عن كل يوم مضى من اعتقالي، فأخيط سبع قطب طويلة عمودية وتحتها واحدة أفقية للدلالة على أسبوع، وأقوم بين الحين والآخر بتفقد هذه القطب وأتخذ قراراً بأنها ليست مرتبة بقدر كافٍ فيمكن لهذه القطب أن تكون متساوية الحجم بشكل أفضل ولهذا أسحب الخيط وأعود لخياطة روزنامتي من البداية. هذا كله أعطاني شعوراً بأنني أمد الوقت وأصنع أياماً وأسابيع وحتى شهوراً. وأحياناً أفاجئ نفسي بعدم خياطة قطبة آخر النهار، بل أنتظر ثلاثة أيام لأعطي نفسي إثارة رائعة في التخلص من ثلاثة أيام من التسعين يوماً.

إن الدقائق والساعات والأيام والأسابيع قياس لوقت الحياة الطبيعية أما بالنسبة للسجين في العزل الانفرادي فإن الساعات والأيام تمرُّ عليه ببطء شديد فلا يعد هذا القياس للوقت مقبولاً. لهذا قررت أن أقيس الوقت كفترة تأمل قبل وبعد وجبات الطعام، قبل وبعد التمدد للنوم، قبل وبعد التمارين الرياضية، قبل وبعد الاستجواب.

لقد بقيت ساعة يدي معي. فألصقت عيني على العقرب الصغير وحاولت رؤية مرور الوقت. بالطبع إذا أمعنت النظر بقوة ودون أن يرف لي جفن فهل سأرى عقرب الدقائق

يتحـرك؟ وإذا اسـتطعت أن أرى مـرور الوقـت فهـل سـيمرُّ بـسرعة؟ وحملقـت في العقـرب؛ لقـد تحـرك حـين حـدقت بـه، ولكنني لم أرَ الحركة.

تسمّرت عيناي من خلال النافذة محاولة جعل الوقت يمر عـبر نشاط الآخرين لكن ما لبثت أن أدركت حالاً ما أحاول القيام، به، فالوقت، كما تعلمت الآن، لا يمر خلال مراقبتك له. مثل تـساقط الرمل بمقدار ضئيل من الساعة الرملية، فبها يصبح مرور الوقـت فِعْلُ نزول مادي من خلال إدراكي له. وعلى ما يبـدو كـان عـلي أن أدفع بالوقت كي يتحرك لأن الوقت في زنزانتي فقد قوته الدافعة.

لقـد كـان الوقـت يزحـف خـلال مـروره. مـع ذلـك، عنـدما يمضي يصبح خالياً من أي تذكر فحين أرجع بفكري إلى الـوراء لا أسـتطيع تـذكر كيفيـة مـروره في الأيـام الـسابقة، أو بـماذا انشغلت به في الأسابيع التي خلت في ساحة«مارشال» أو في «بريتوريه». كان هناك القليل لأميز يوماً عن الآخر. فالمشاعر والخبرات تتراكم دون أن تـرتبط بالأيـام أو الليـالي أو علامـات الوقت. إن القطب خلف طية صدر قميصي النوم هي شهادات التحمـل والثبـات. فـما تحملتـه الآن قـد دفـن بـسرعة في نـسيان جزئي مثل أية تجربة غير سارة أو مخزية.

ليس الألم وحده ما عانيته جراء الفراغ بل أيضاً لا محدوديته. لقـد كـان مفتـشو فـرع الأمـن يقولـون عنـد بدايـة كـل جلـسة

استجواب:«إنها الفترة الأولى للتسعين يوماً، ويحتمل أن يكون هناك فترة أخرى بعدها وأيضاً بعدها» لقد كنت على اقتناع بأنّ الجميع بمن فيهم أنا يستطيع التأقلم مع حالة لا يعلمها إلا الله، فأعداد لا تحصى، من بينهم أقرب أصدقائي والكثير منهم في جنوب أفريقيا محكومون لآجال طويلة، وقد تكيفوا بشكل رائع، لكن الجزء المهم في مسألة التكيف هو معرفة أي شيء عليه أن يتكيف معه، فحتى السجين المؤبد يجد الأمان عند توقف الخوف من المجهول.

قد استنبط فرع الأمن طريقة لتعذيب الضحية بالشك والخوف من شر مرتقب وبالانفراد، فكل يوم كان يمر بحالة من القلق المجهد نتيجة الاحتجاز ونتيجة سلسلة الاستجواب التي تجرد السجين من سكينته واتزانه وقدرته على التمييز، والتي هو بحاجة إليها جميعاً كأدوات مطلوبة ليتغلب على مصاعب العزلة المتواصلة والتوتر المجهد لسلسلة دورات الاستجواب.

قلت لنفسي إنَّي حتى الآن لم أتعرض للضرب أو الأذى الجسدي، طبعاً لقد كان قلقي بمرور الوقت مؤلماً، فقرحة معدتي كانت أداة تسجيل لانزعاجي. لكن نظرياً وبتخفيض نبضات القلب يستطيع المرء تحمل سنوات على هذا الحال في

مستودع بارد. لقد كنت مصممة على تحمل الفترة الأولى في التسعين يوماً، ومن ثم أقوم بتكيف إضافي لما سيحصل بعد ذلك. سيكون مخزياً لي أن أُهزَم من العزل الإجباري وهؤلاء المحققين الأجلاف من الحزب القومي. وأي ضعف تجاههم سيكون تبديداً للأيام التي لا تنتهي والتي أمضيتها ضدهم بشكل متواصل. أستطيع أن أتلاءم مع الحياة في زنزانة «بريتوريه» كما فعلت سابقاً في ساحة«مارشال».

الشعب المُبَدَّد

لورنس فان دير بوست

ولدت قرب النهر الكبير في قلب ما كان يسمى منذ آلاف السنين ببلاد رجل الحرش أو رجل الغابة العظيم - Bushman - و«البوشمان» هوية انتهت بحد ذاتها إلا أنني كنت محاطاً منذ ولادتي بالكثير من بقايا جنسه وعرقه وثقافته التي أشعر من خلالها بقربه مني بصورة غير عادية، إذ كنت أقابله أيضاً من جديد في أفواه الرجال الأحياء، حول مدفأة في بيت أمي في الليالي الباردة بمزرعتها«ولوكوب» في جبل«ورلفز» الذي يسميه أهل بلدنا بالضبع الكبير المخطط، وأقابله حول مخيم النار على صوت عواء ابن آوى الحزين وارتفاع ثغاء نعجة حديثة الولادة من قطيع قرية قريبة، أثناء نزول ستور الظلام على السهول السوداء التي تشبه قرون الثور البرّي. هناك يعيش «البوشمان» في قلب هذه المجموعات، بقوته وعنفوانه بصورة غير متوقعة فلا يندم على زواله. ورغم غيابه عن البلاد لا يزال

يشبه بوجوده ضخ الحياة في سيقان الشجر والنبات وفي دماء شعبه الخليط من الناس مثل كل الأخلاط العرقية في اللعبة الأفريقية، فهو حاضر في عيني أول امرأة ولَّدتني، عبر نظراتها المحدقة المشرقة الشبيهة بالضوء الأول الساطع كل يوم على أفريقيا العتيقة، هنا ستظهر دماء«البوشمان» المقدسة لتعطي وجه«بانتو» الجديد شكلاً مغولياً يحول منتصف أفريقيا السوداء إلى لون الدراق الأصفر وقد ظهر ثانية مثل ومضة كهرباء في نبضة ابداع فرضها«البوشمان» على كل لسان جهوري ضد الغزاة.

كلما تقدم بي العمر ندمت على عدم ظهوري على مسرحه من قبل لكي أتعرف عليه وجهاً لوجه بلحمه ودمه. فأنا لم أستطع قبول واقعة أن الباب قد أغلق على«البوشمان» إلى الأبد، لذلك رحت أبحث عن أي خبر أو معلومات جديدة عنه كما لو أنني أتحضر للحظة افتتاح الباب من جديد عسى أن يظهر في منتصفه، وقد حصل أن كان أول سؤال سألته في حياتي: من كان حقاً إنسان الحرش هذا؟ موجهاً هذا السؤال لكل الأعراق والألوان من الذين كانت لهم علاقات معه إلى درجة أن الكثيرين من أصحاب القلوب الصابرة وجدوا في أسئلتي أن من الصعب عليهم فهم إلحاحي هذا كطفل قليل الإدراك، ومع هذا أخبروني بالكثير، ما جعلني أتشوق للمزيد.

قالوا أنّه كان رجلاً ضئيلاً لكنه ليس قزماً دمياً فقط ضئيل الجسم بطول خمسة أقدام، ببنية جيدة ومستقيمة، كان ذا كتفين عريضين، لكن يديه وقدميه ضئيلة أكثر من المعتادة، لكن من رأى آثار أقدامه على الرمال كما أخبرني خادمنا لا ينساها، كاحل نحيف بحجم كاحل حصان سباق وساقان مطواعتان بعضلات مرنة تمكّنه من أن يركض بسرعة الريح مسافات طويلة. حين يتحرك فإنّه لا يمشي إلا كنابض أو مثل الكلب المتوحش لينتقل بخفة الخبب، ولا أحد يمكنه الركض مثله فوق المروج والصخور، أما من أراد أن يسبقه من قبيلة«الباستو» أو«ورانه» فقد ابيضت عظامهم تحت الشمس كإثبات على استحالة محاولة تخطيه. جلده الطري يتجعد بسرعة حين يضحك فيتقسّم وجهه إلى تجاويف صغيرة لتُضم إلى تقاطعات متصالبة أوضحها لي جدي التقي بأن سبب جلده المرن أنه من أعطيات الرب القوي، ليتمكن«البوشمان» من خزن أكبر كمية من الطعام بوليمة واحدة كما لم يقدر أحد قبله في التاريخ فعل هذا، لأن حياة«البوشمان» تستدعي كصياد ضرورة تخزين كميات كبيرة من الطعام في جسده فوق قدرة المعدة لأهميته الحيوية، لذلك يبدو الرجل كامرأة حامل في موسم الصيد الجيد. أما تشكل جسم«البوشمان» الصغير الأصلي فله مؤخرة تقوم مقام السنم عند الجمل لتمكنه الطبيعة من خزن احتياطي مهم من الدهون

والنشويات عند حاجته لها بعد ذلك في وقت المجاعة. وأظن أن أول مصطلح علمي تعلمته كان عبارة«Anatomist» أي عالم التشريح الذي يمكن أن يفسر ظاهرة جسم«البوشمان» بالسيلان الشحمي:«Steatopygia».

في إحدى الليالي قرب المدفأة ذكر جدي وأكبر عماتي أن في الأيام العجاف تتقلص مؤخرة«البوشمان» كأي مؤخرة أخرى عدا عن تغضنات ملساء في الأرداف وحتى ساقيه، أما في فصل الصيد الجيد فتزداد سماكتها لتبرز بقدر يمكّنك من وضع قنينة براندي مع كأس عليها، فضحكنا جميعاً لهذا التشبيه، لا ضحك امتهان بل ضحك فخار عاطفي متسائلين عن كيفية إنتاج بيئتنا لإنسان بهذا الشكل، وبطريقة ما تعلق قلبي وخيالي باهتمام عميق بهذه الأمور التي تخص إنسان الغابة.

أما أفراد«الهوتنتو» التي تشبهه ومع كل حبي لهم فلا يثيرون روحي بقدر«البوشمان» لأنهم ضخام أكثر من اللازم. أما «البوشمان» فكان أكثر ملاءمة وكأنه سحر ممزوج ببنيته، فكلما سردت أمي لنا قصة خيالية عن قزم يقوم بالأعاجيب تتحول القصة في مخيلتي مباشرة نحو«البوشمان».

ولربما حياتنا هذه التي نحاول فيها الوصول إلى الرجولة وننتهي بعودة إلى الطفولة نحتاج فيها لصورة تشبه الرجل الطفل واضحة في خيال الأطفال مثل«البوشمان» حيث يتحد الاثنان بشكل محبب فيلتحمان معاً بصورته.

لكـن شـهية رجـل الغابـة للطعـام هـي التـي حـددت شـكله التطوري المتميز، فشكل جسده الخاص والفريد ولونه المختلف عن ألوان الأفارقة الآخرين الدراقي المائـل إلى الـصفرة مـع أنـه كما قيل لي لم يكن يلبس أي ثياب لـذلك لم تحـرق الـشمس لونـه بالسواد فكان يتجول في أفريقيا كالمشعل المبرقع بالذهب وكأنـه مغولي من وسط سهوب منغوليا، وحتى رأسـا خديـه مـع عينيـه المتباعدتين، تجعله يشبه المغول إضـافة إلى اسـتقامة تعطيـه صـفة شخص صيني، ففـي أفريقيـا الجنوبيـة إلى اليـوم سـهول تحيطهـا هـضاب زرقــاء تــسمى«صــينية الــسكان» بعــد أن اســتوطنها صـيادو البوشـمان، ولـون عيـونهم البنيـة لا يـشبه لـون عيـون «الانتيلـوب»[1] التـي تـضيء مثـل سـماء بنيـة في غـيمات أفريقيـا الـصباحية الدقيقـة الممتـدة، لـذلك تـراه يبـصر الأشـياء مــن مـسافات بعيـدة، في حـين لا يمكـن لآخـرين تمييزهـا، لـذلك صارت حـدة بـصره جـزءاً مـن أسـاطير البطولـة الأفريقيـة. أمـا وجهه الشبيه بشكل القلب وتحته ذقن مدببة حساسة مـع أذنـين مصنوعتين بدقة ومـدببتين، وشـعر أجعـد أسـود كثيـف يـدعوه أهـل بلـدي بـشكل مجـازي«شـعر الفلفـل» عـلى رأس مـستدير تربطه بكتفيه العريضين رقبة رفيعة وحلق دقيق. وبوجهه أنـف

(١) الظبي أو بقر الوحش.

أفطس واسع وشفتان ممتلئتان وأسنان بيضاء بشكل مدهش، أما وركاه فنحيلان ضيقان، وكما قالت عمتي: والله كانت رؤيته وهو يمشي من الأشياء الجميلة رؤيتها وهي تتحرك.

ولعل أكثر ما يلاحظ على «البوشمان» أصوليته التي يكمن في عمقها كل ما يميزه عن باقي الشعوب فيظهر مختلفاً ومحبباً، فنساء «البوشمان» يولدن مع نتوء يخفي عورتهن مثل «الإوزة المصرية Tablien Egyptien»، والأولاد يولدون ويعيشون ويموتون وأعضاؤهم التناسلية بحال شبه انتصاب دائم، وهكذا يرى «البوشمان» بهذا الوضع تميزه. بكرامة له عن باقي الرجال، لذلك لم يحاول إلغاءها، وعلى أساس هذا التميز كان هناك مسمى عند شعب «البوشمان» بلغتهم يعلن هذه الواقعة هو «Qhwaixkhwe»، وحين يرددها كان يشعر بالفرح داخل قلبه فيقطع العبارة عروضياً إلى نبرات متتابعة حين يلفظها كشرارات تخرج من طلع الورد على جبالنا، الأمر الذي دفعه لحفر صورته هذه ورسمها على الصخور في كل أفريقيا بهذا الوضع العاري الذي يميز شكل عرقه، لا من أجل قصد خلاعي مثل الذي أضافه بعض الأنثروبولوجيين الأوروبيين وضخموه، بل ببساطة لأن إلهه وبعناية صياغته له في أفريقيا سكبه عارياً ولم يجعله يخجل من هذا.

لا قيمة لاثنتي عشرة سنة!

ماري بنسون
جوهانسبورغ
ماي - أيار ١٩٦٥م

عزيزي جيمس:

عندما تلاقينا قبل سنة من اليوم عام ١٩٦٥م في يوم ممطر في بارٍ يرتاده الشباب قرب مسرح «برودواي» قلت لي إنك وصلت إلى قناعة بضرورة العودة إلى جنوب أفريقيا، فأخبرتك أنني أتفهم شعورك كإنسان يعيش في أوروبا، وسوف أعود إلى أمريكا رغم حقيقة أنك خائف من ذلك لأنني بيضاء وأنت أسود، وأسباب خوفي من العودة على وجه التحديد تختلف عن أسبابك، فبلادي تختلف عن بلادك رغم أنه بإمكاننا إرجاع مخاوفنا نحن الاثنين لجذر واحد هو: إنكار صفة الإنسانية عن السود، كما تعلم ذلك جيداً، فلما كنت في الخارج هاجمت سياسة جنوب أفريقيا، إلى درجة الطلب من الولايات المتحدة

المساعدة، الأمر الذي جعلني عرضة للاستجواب من قبل الفروع المخابراتية الخاصة أو حتى السجن، مع أنه لم تتوفَّر فرصة لأي عمل ضدي، لأنني لست بذات أهمية، أو عندي أصدقاء مهمون.

هناك في إنكلترا فكرت باللجوء إلى بعض الأصدقاء من سياسيين وكتاب ومنفيين، لأجد ردة فعلهم تتراوح بين اليقين والشك.

والواضح أنني بسطت كثيراً في بار الشباب أفكاري بشأن رغبتي في العودة، وحين أعاود النظر إلى تلك الأفكار أراها تزداد تعقيداً كل شهر، فهي مجرد حديث تافه بالنسبة لليبراليين البيض واليساريين الملتزمين الذين غادروا جنوب أفريقيا، إضافة إلا أنني أصبحت مسألة خارجية غير حقيقية لما يحصل ببلدي في«لندن» التي تبدو حيادية بصورة متزايدة وقد سحبت نفسها من: جوهانسبورغ أوجاكسون، والميسيسبي، كذلك كنت مشتاقة لأسرتي وأصدقائي بقدر شوقي لبلدي وباقي الأشياء، وفي نهاية السنة أصبحت أحسب حساب مزيد من تمكن هذه الدوافع، حيث تلفني الرغبة بمعرفة الذات، على العكس من فكرك بلا شك الذي تلفه الأحداث اليومية المؤلمة بالرغبة في الحصول على الحرية النفسية، فأنا لم أكن مستعدة لقبول ذاتي، وجنوب أفريقيا

بحاجة لمبادرة عبر أفعال على النقيض من مواجهة الذات بالقياس لعدم السلوك والانسحابية في«لندن».

وأظن أنك لو تعرف هذا البطء الممل فستظل تقول انطلقي... ها أنا ذا في جنوب أفريقيا، ولحسن الحظ لا أحد يدرك مخاوفي دون بعض التنفيس عنها، فكم أتمنى لو أنك هنا لنتحدث عن الأشياء التي لا نكتب عنها لأن أحداً لم يتناولها كتابة حتى الآن؟! بكل وضوحها وتراجيديتها، وعنف بربريتها وبعدها عن نبوءاتك العملية بكل عمقها ومشاعرها، فإذا كان هناك مكان في العالم فيه خدمات الحب فهو هنا. ثم في هذه المقبرة صنعت الحواجز بين الأجيال التي تنكر عليها الحياة، بهؤلاء المرتزقة الباحثين عن مصالحهم الذاتية غير الآبهين بالحياة، مقابل قلة تناضل لتقول: نعم للحياة وللعدالة بحالة ذعر وتأمل، رغم أن فعلهم غير المؤثر هو الأجهل.

أما الرأي المطول من الخارج فيبسط الأمور بشكل مسرف، لكن ها أنا بالداخل أعيش منذ أشهر الأحداث اليومية بيومها عند البيض في جنوب أفريقيا، وأشعر بالأسى من هذه الأحادية بالرفاهية وبالكآبة من فقدان معظمهم للروحانية - الأخلاقية - كما خبرتَ أنت الأمر، وأنا شاهدته في خوف الرجل الأبيض من الأسود، خاصة إذا كان الأسود يائساً، وهكذا تبرز أمور مرعبة، مثل: لماذا يخاف الأبيض أيشعر بذنوبه

أم هو يخاف من الثأر؟ فمما لا شك فيه أن هذا الخوف يشبه «سبارطة» مقارنة بالمريضات فيها، حيث كان الغزاة يعبدون الخوف ويقيمون له بيوت عبادة، لأنهم كانوا يعرفون أن كل صيغ حكوماتهم تقوم وتبنى على الخوف، لكن خوف الرجل الأبيض أعمق، إذ بإمكانك السؤال الأكثر أساسية من سواه وهو: لماذا يحتاج الرجل الأبيضُ الأسودَ؟ وهنا يمكن طرح عمود الإرهاب وركيزته بشعور الإنسان بشبقه وعدم رحمته، لذلك هو بحاجة إلى أن يجأر بالكلمتين: نيغر أو كافير اللتين تعكسان حضارة تستدعي الشفقة على رجولة الرجل الأبيض في اعتمادها هذا على إنكار الرجل الأسود. (هل لك أن تقارن ركائز الهولنديين عندنا لإصلاح الكنيسة لتدخل إلى عمق ما يقولونه لنا جميعاً)؟

لقد حصلت أمور كريهة جداً، وتحصل هنا. فقبل عودتي قرأت كتاباً حول الإرهاب وغسل الأدمغة، لأن أصدقاء لي خضعوا لهذه التقنية المخبأة من قبل الفرع - المخابراتي - الخاص، كذلك لرغبتي في معرفة كيف يمكن للرجال والنساء حتى ولو قلة منهم تقديم أدلة تدين أصدقاءهم، وكيف ينهار الرجال الأقوياء، وها أنا هنا بكل مشاعري وعقلي لا أستطيع أن أحيط بموضوع هؤلاء الرجال الخيرين والشجعان جسدياً ونفسياً، يمكن لرجال آخرين كسرهم باسم النظام والقانون، أي نوع من المخلوقات هؤلاء،

ومعظمهم أرباب أسر يقدرون على تحطيم كائنات ذوات أرواح بشرية، ثم يديرون وجوههم الوقحة لمواجهة العالم.

مع ذلك نظل مسحورين بسحر الحكومة التي نجحت بتفجير العلاقات بين أبنائها، فهناك ما يشبه التمزق بعد القصف المدفعي، وصفته سابقاً بموت الحب هنا، وفق قرار حكومي بأن الحب قد قتل عن عمد، بطرق منهجية. الحب والتفاهم المعتمدان على تبادل الاتصال بين البشر، الذين ليس بينهم حواجز إسمنتية، مثل جدار «برلين»، لكن الجدران هنا بنيت على سوء الفهم، هي أداة تدمير العلاقات بين الناس دون هدنة لحواجزها في يوم الميلاد أو رأس السنة، وطبعاً هناك صلات تحصل أحياناً لكنها محقونة وأكثر جموحاً من أي وقت مضى، مع عناصر اختناق جديدة: بالريبة من الجميع وبعضها خارجة عن القانون.

كيف يمكن للتوتر العقلاني بمعنى المسؤول والمحسوس أن يعيش في جنوب أفريقيا، يسمح لأي إنسان بالإبداع؟ ففي أحد الإمكانات هناك إغراء للمرء بأن يعبِّر سلبياً، يجادل عن ردود الفعل الحكومية العدوانية.

أنا شخصياً تخلصت من مثل هذا الأسلوب الدفاعي، سواء في مواقف خطرة أساساً، أو أثناء تلك الحوادث التي لا تحصى حيث يهان الأفارقة، وأن تأخذ موقفاً عاماً في -حينه - يجعلك تُحتقر من قبل البيض أو يعتبرك الأفارقة عميلاً، ففي المرات

التي تصرفت فيها تصرفت لأنني أقول ربما للحياة – حياتي - وداعاً.

يقول«كامو» : أن تبدع اليوم يعني أن تبدع دوماً بالخطر، وفي جنوب أفريقيا هذه تظهر يومياً حتى لو كان دماغي مرضوضاً كانت روحي مبتهجة بفعل صغير يحلق وراء سيادة الدولة.

هناك بعض الهنود من الذين بُهروا أو اشتُروا للإقرار بسيادة الدولة وتلقوا دلائل لتكون الدولة ضد أصدقائهم بشكل مقنع، حين يأتون إلى المحكمة بمجموعات عفنة، يقفون دون اهتزاز، بحضرة وهج الشرطة ليقولوا: لا، ليذهبوا فوراً إلى السجن لسنين بدل التضحية بزملائهم أو باحترامهم لأنفسهم.

مئات من الاعتقالات في مدن جنوب أفريقيا مدفونة، تحت توجيهات«آتول فوغارد» كرد على لعبة الحقوق - الإنسانية - التي يجوع لها الناس دون تحديد لمعظمهم في مجال صياغة الأفكار، مثلما يرون مساهمتهم في التسلية من خلال مسؤوليته الاجتماعية، عند تقدم الفكر والمشاعر حول المشاكل التي يواجهونها. ففي افتتاحية ليلية لمسرحية تبييض«الحلقة القوقازية» - أي البيض - كان بطل الرواية الذي سيلعب دور «أزداك» قد ألقي القبض عليه وأدين مع اثني عشر آخرين بأحكام جنح سياسية.

وحين حكم على زوج «جانيت نوغبيني» باثنتي عشرة سنة في السجن بسبب التخريب، وقفت في المحكمة وصرخت له، أنا فخورة بك يا زوجي: لا قيمة لاثنتي عشرة سنة. مثل هذا السلوك أكد قيماً معينة وربما تلقائية لكنها معطاءة دائماً، فأن تعطي للكل كما كتب «باسترناك» يعني الإبداع... ربما من امرأة واحدة، لتأخذ عمراً بكامله، وعلى مثل هذا الفعل كتب «لويس ممفورد» تتراكم العطاءات إلى أن يتغير المجتمع، أو كما وصفها «سيمون ويل» : إن كل نظام يتعالى على آخر يدخل فيه من خلال صيغ قد تكون صغيرة جداً، تحول الكيفيات إلى الكميات كما تزرع بذرة خردل صغيرة، وقد قيل هذا القول قبل ألف وثمانمئة سنة من تبني ماركسية ماركس وينطبق هذا أيضاً على الأفعال المبدعة التي تملأ جوهر ما قاله «بهاغافاد غيته» : بأن علينا أن نتصرف من أجل كل فعل خير دون أن نهدف إلى أية ثمرة من ثمراته.

لقد حكم بالسجن المؤبد دون أي تأكيد نصر - أو نفيه - على القائدين - «مانديلا» و«ماك دايه» - وهما يتحدثان مع بعضهما بفرح ممزوج باللامبالاة - بعد الحكم - كما لاحظ محاميهما بدهشة؛ عبَّر بها عن خلل الهزيمة في «حركتنا التحررية» كهروب من الواقع، ربما! لكني أريد أن أرى بهجتهما على ضوء نصيحة «كامو» أن علينا أن نقول في وسط الأصوات الغاضبة

في تاريخنا: لنبتهج، لأن تحدي الواقع من الأبطال الوطنيين يجب أن لا يكون بأيَّة من الصور كئيباً.

كثير من الإبداعات لم يكن بالإمكان كتابتها من دون التحامل على استمراريتها، لكن هناك حالة واحدة يمكن ذكرها، وهي تمرد«برام فيشر» - الأفريكاني - المحامي الذي واجه السجن لكونه شيوعياً. ألم يتحدث«كامو -و- كويستاكمور»، عن كم كان سيكون عالمنا مملاً دون مساجين سياسيين ودون ضحايا، وعندنا هنا الآلاف منهم، فهل ذهب «فيشر» إلى هدفه ليستقيل - ممكن بالنسبة لوزير العدل المختار للمنصب مدى الحياة؟ كما لو أننا نرفض قوانيننا البربرية، لقد حصل على قرض مكلف ليتصرف بثورية مخفية، وسلوكه الذي سوف يلهم على الأقل من يسجل واحدة بحق مسجوني السياسة.

ألم تقل أنت إن كل من يدين يدان، ثم أردفت لاحقاً المطالبة بأن على كل من يطلب مرونة روحية عظيمة عليه أن لا يكره مبغضيه حين تكون جزمته فوق رقبتهم. فهذه المرونة الرائعة التي تجسدت الآن بالأفارقة في صراعهم الآني، وحرمانهم من التعليم الحقيقي والمشاركة التجارية المتحدة، وحتى القوانين الرقيقة لنساء البيض التي لا تتوقف عن حماية الأفارقة من القوانين الجائرة، لذا كما في بلادك هنا؛ تجد أن على

الإنسان الذي ينتزع إنسانيته كل يوم، وهويته من أن تحرقها القسوة الإنسانية لتدميرها أن يعلم أنه إذا نجا بجهوده يتعلم أن شيئاً لا يمكن أن تعلمه المدرسة عن الحياة ولا تفعل ذلك أية كنيسة أيضاً: عليه أن يحصل على سلطته بنفسه، وهذا غير قابل للحوار، فكيف يمكن لأحد اليوم أن ينظر إلى جنوب أفريقيا من دون أن يقترب من اليأس، وحين يعكس - صورة - الذين حصلوا على سلطاتهم بأنفسهم هم في السجن مدى الحياة، لكنك كما أخبرتني في تلك الليلة باعتقاد «الجزويت» الوحيد: بأن اليأس خطيئة.

فماذا يجب أن نفعل؟

هناك تورط سياسي مباشر في هذه المعضلة المستمرة، وعمل خلاق مطلق، مثل ما قلت حول شعورك بالمسؤولية عن الحقوق المدنية والصراع من أجلها، تلك التي تريد أن تكتب عنها، لكن «شؤون الحياة تقاطع مجهودك دائماً»، وأنا لا كفنانة بل ككاتبة يهتم أدبها بالموضوعات المعيشة لا عذر لدي مثلك لكي أدير ظهري للحياة، فقد كتبت قصة بأربعة صفحات عندما شُجِعتُ للذهاب إلى هيئة الأمم المتحدة لأحكي عن أصدقائي؛ «مانديلا» و«سيسولو» و«مبيكي»، الذين عندما كانوا أمام المحكمة كانوا يواجهون احتمال حكم بالإعدام، وبعد عدة أشهر عدت إلى لندن لكي أكتب مقدمة جديدة

لقصتهم (أظن أنك ستسامحني عن النقل من«ويتمان» كنت قد اقتبسته أنت من قصة«غرفة جيوفاني» وهو ما كنت قد رأيت امرأة شهدت آلام المخاض مع ذلك كنت هناك) عندها دق جرس الهاتف وطلب مني الذهاب إلى«واشنطن» في اليوم التالي لأحاضر بمؤتمر القيادات الزنجية حول أفريقيا، لذلك ستبقى القصة متروكة، لكنها سوف تلح عليَّ حتى أتشبع بها، فأقدمها. المعضلة تتعمق لأن المقالة تعني بالنسبة لي أكثر من قصة اعتراضات يومية فأن تكتب الحقيقة التي تتطلب تكريساً للإنسانية دون اختلاط وخلط مع التكريس للإنسانية التي يمكن التقاطها بسهولة بالتكريس للقضية، والقضية كما نعرف تشتهر بالتعطش للدماء.

هذا الإنسان كما قلت ليس مجرد عضو في مجتمع، بل شيء لا يمكن تعريفه حقاً، ولا يمكن التنبؤ به، والدخول في تعقيداته - التي هي تعقيداتنا - يتخفى ويختفي في سياج عنكبوتي من الغموض والتناقض، الجوع والخطر والظلام الذي نجد أنفسنا فيه فوراً وبتلك القوة التي تحررنا من أنفسنا.

في تلك الأيام التي شفيت فيها من التعصب العرقي، قررت تكريس نفسي للقضية، من أجل عمل موضوعي وزرع الريادة في كل جنوب أفريقيا، وتحديداً في المعرفة التي يمكن للأعراق المختلفة التصالح معها، لكنني أصبحت أحذر بصورة متزايدة من تبسيط

هـذا الـسياق الـذي سيوصـل إلى نـوع مـن الـدين والأيـديولوجيا والحزبيـات الـشبيهة، وحـين تأكـدنا مـن الـشعور اليقينـي بـالروح الإنسانية الذي يمكن أن يصنف بخرق أوهام الكهولـة، قلـت لا، لا أظن ذلك. هل تتذكر حين سألتك عن زنـوج «هـارلم» الـذين لم يدفعوا بعد إلى الانتحار (وهنا نتساءل لماذا نحـن الـذين نهـتم بهـم لا ندفع للانتحار أو الجريمة)؟ فقلت: المسألة مثل السير على سكة الحديد التي تأخذنا برحلة ليلية في الوديان بين جبال معتمـة، ليـبرز هنا وهناك قبس ضوء ضئيل يشجعنا على الاستمرار. هـو بـصورة خاصة لامع في جنوب أفريقيا عندهم، بما يشبه القلة من النازيين في ألمانيا ممن أصبحوا بشراً عـدولاً ومحبين ليقفـوا عمـداً في مواجهـة «هتلـر» مـع كـل الأخطـار التـي يعرفـون أنهـا سـتواجههم مـن إعدامات، ولقصر نظر التاريخ لدينا بعض الإضاءات الخاصة التي يمكن بها أن تتحسن الروح الإنسانية بشكل ملحـوظ، والمطلـوب تغذيتها بـالملح وتـسخينها وتقويتهـا، مـع تلـك المقـاطع المتنـاثرة في مقالتك، لقد وجدت أني أتأرجح بين الاستمرار الذي لا مفـر منـه بالتورط السياسي الفعال مع أني لم أفعل شيئاً عملياً مع مقاومة قلبي في مواجهة تعقيداتي الذاتية من الجوع والخطـر والظـلام المغـروس بـأعماقي وبالتـالي مواجهـة تعقيـدات الآخـرين بعـد ذلـك، كـما لا أحتاج إلى مثل هذا التنقيب المرعب أو المحبـوب أو عـديم الطعـم، لكي أتمكن من أن أكون منهارة لو تركت الأمر على حاله.

إن الحصول على قبول الذات التي تطلب التسليم لها بكل التناقضات الذاتية، يقود إلى قبول الناس بالواقع كما هو وسخف العالم كما هو، أما أن تقاتل كما أنت: بدءاً من قلب الذات، يعني إبقاء القلب خاوياً من الكره واليأس، عندها يأتي السؤال الفائق عن الحب، مستعملاً عباراتك، لا الشخصية بل لحالة تواجد واقعية، أو حالة رحمة، لا بمعناها الأمريكي اللامحدد بأن تشعر بالسعادة بصنع وجودك، لكن بالمعنى العام الكوني القاسي الذي ينشد الجرأة والنمو، ضمن ذاك السياق الذي قبلت فيه بأنه يجب عليَّ محبة أعدائي، لكن كيف ذلك مع أعداء الضعفاء والمساكين، فمعاناتي ليست كهنوتية، فقط في المشاعر الرقيقة التي أعكسها بشكل غير دقيق على من أتصورهم تحت العذاب في السجون يهانون ويجوعون ويتحملون. أليس عليَّ كره من يسببون مثل هذه الآلام؟ (طبعاً أريد أن أبذل كل جهدي لاستبدالهم بأناس متميزين) أم علي أن أرى تعذيب الحكّام لجيراني كامتداد لذاتي؟ أم عليَّ أن أكره الأفعال فقط؟ وهي بيد رجال السلطة المدعين أنهم نصارى من الذين ارتكبوا أقسى أنواع القهر، بحرمان الآباء والأمهات من حاجاتهم الأساسية بالحلم لمستقبل أولادهم، وهنا كما في بلادك قال ليبرالي غير ملتزم: لا تكن عجولاً الأشياء تتغير، فقط أعطها الوقت.

الوقت؟ ألا يرون أن كل دقيقة تمر تدفع بالأفارقة الشباب ليصيروا مثل «تسوتسيز» في جوار مدننا: أمهاتهم مهووسات وأبناؤهم فاشلون مثل زنوج شارع «هارلم» ومن فيه من أولاد، وأمهات متطرفات؟ هل هذه هي الحياة الوحيدة المتاحة الآن هنا، في هذا العالم الذي نعيشه. الزمن؟ به حياة واحدة هنا والآن في عالمك هذا، وماذا يعني هذا؟ هل يعني ترك الأطفال يموتون من الجوع في تلك البلاد المتفجرة بالسعادة: أطفال تحدق أعينهم بي من وجوه بريئة؟

بينما أنا بخير وذات امتيازات بأي حق أحب نوع المخابرات الخاص الذي يستخدم تقنية الاستجواب التي تدفع الأفارقة والهنود الصغار للانتحار؟!

ومع ذلك أتحمل طالما يستطيع من يعانون تصعيد معاناتهم ومراراتهم نحو قوة الحب، إن بقي من مزيد.

ربما في عمق كل هذا لم يبق سوى ضميري بأنني مجرد شاهدة، ففي جنوب أفريقيا حتى أولئك البيض الذي ضحوا بحريتهم وعذبوا. لن يمكنهم أن يتساووا مع السود، لأن حالتهم النفسية تظل بهذا المقياس أفضل، فقط حين تحقق بالموت وحده تتحقق المساواة المطلقة بين البيض والسود، سواء بالمعاناة أو بالمراكز الاجتماعية، أو بالفرص.

إن ما سأعرب به عن شعوري حول ما في جنوب أفريقيا اليوم ناتج عن الحاجة الإنسانية لتبادل الآراء. وهذا ما لا آمله، لأني آمل ما هو أكثر من ذاك. إذ يبدو لي أن في عمق الجواب عن السؤال حول ما يجب فعله هو: الاعتراف بالألم المبرح في صعوبات حب هذا العالم كما هو عليه، مع كل آلامه، ومعاناته التي لا تطاق. ربما الخبرة والمعرفة هما ما يجلب المرارة التي لا تطاق مع الغضب من عالم كهذا، مع أن العالم بذاته هو الذي يجذبنا نحو محاولات قبوله وحبه، لأننا جزء منه ومن الحياة نستقي إمكانية الاستمرار بالقوة للفعل، وكما قلت أنت يجب ألا نعجب بأنفسنا، طالما هناك قلة يقولون نعم للحياة في جنوب أفريقيا، ويحافظون على ومضات الضوء الصغيرة بين الجبال السوداء. إننا نتنبأ بهذا الإمكان لنتصرف، وعلى الأقل لنحاول، بصلواتنا، دائماً التي تعلمنا دوماً تعظيم أعطيات الحياة، لنتعلم تبادل الحب بيننا كي نمشي على الأرض كالرجال.

المخلصة لكم
ماري بنسون

نظرة مطولة لمدينة لندن[1]

تود ماتشيكيز

استيقظت صباح أحد الأيام باكراً لمقابلة«مايبل نونيني» في محطة«كوتيتج» السويسرية في تمام الساعة الحادية عشرة حيث سنذهب لمعاينة شقة.

«هاي، من الجيد لقاؤكم أيها الناس، وكيف الحال في دياركم» ؟ إذ لم نكن قد رأيناها منذ زمن بعيد وقد كنا نسمع في الماضي عن مهنتها الناجحة في التمريض في إنكلترا في معالجة المتشوهات وحتى القبالة - التوليد - وباقي الأشياء الجيدة.

إنها تريد أن تعرف كيف كان ديفيد نكوكودو ذاك الولد الذي عاد مؤخراً إلى«جوهانسبورغ» بعد أن قضى عدة سنين في إنكلترا لقد تركناه في زاوية طريق منهكاً بدفتر لأخذ إحصاءات

(١) مشروع دراسة مقارنة بين دول الحقوق المدنية، وعدوة هذه الحقوق، التي تسبب احتقار مواطنيها عند الآخرين أيضاً.

من الفتيات المارات بالطريق، ليقول لهن إنه من أجل ستوديو لندن يريد خمسين جميلة أفريقيا لبرنامج خاص، فالتلفاز عبارة مذهلة، تحتوي على بهاء ما اخترعته الممنوعات، فتقف البنات ليعرضن أنفسهن له، أي للندن في زاوية الشارع مع أن لباسه على حافة الاهتراء ومع ما كنا نلقبه بالحشرة في أيام ما قبل لندن لأنه مقنع وملح من صنف اذهب وأحضرها، والبنات يطلقن عليه لقب«الطويل ذا العينين الضاحكتين».

قالت«مايبل» هذا الصباح: انظروا يا جماعة!؟! نظرنا رجلاً أبيض يحفر في أرض الشارع ويدفع الطين ويعبئ شاحنة منه، رجلاً أبيض بثوب بالٍ يركع على قدميه، رجلاً أبيض يخرج «رفشةً» و«مِسحاة»، ورجلاً أبيض أسود من غبار الفحم، نحن لم نر شيئاً، رأينا فقط رجلاً يجرف التراب وهو راكع على ركبتيه.

ثم رأينا رجلاً أبيض يحمل الآجر ويخلط الطين بالماء ليبني بيته ثم يجلس عند نافذة منزله لينظر منها ويدخن غليونه، بعد أن كان قد غسل سيارته صباح يوم الأحد، ثم رأينا رجلاً أبيض يحفر، ورجلاً أسود يحفر رأساً برأس والكل يحفر دون وجود مراقب عليهم يدخن، بينما هم يعملون.

الشيء الوحيد الذي لم يكونوا يعملونه هو الغناء أثناء العمل، فالغناء أثناء العمل هو للحفر بشكل أعمق. قالت

«مايبل» إن الحفر والغناء شيئان مختلفان في هذه البلاد. لقد ترك «ديفيد» أفريقيا ليأتي ويغني في لندن، فهل قام بأي شيء آخر يا «مايبل» ؟ إنني منذ أن جئت هنا لم أره يرفع أي شيء، هناك «زبال» في مستديرة «أوتيل غراي» بجانب المستشفى المجانية الملكية، له وجه مألوف يدفعني إلى التسليم الصباحي عليه، ودوماً يذهب بنظره بعيداً وينفض الغبار عن كتفيه مع لكنة إنكليزية من غرب الهند، بوجهه شيء خاص لم أستطع تفسيره. وفي يوم كنت فيه قرب قسم الطوارئ أقوم بتماريني جاءت سيارة إسعاف تحمل حالة مستعجلة بها رجل مصرٌّ على أن يغطي وجهه، ولما رفعت الغلالة عن وجهه كان الزبال مستلقياً بلا حول ولا قوة يرتدي بذلته وعليها اسمه «ديفيد نكوكودو».

أما «مايبل» فقد كانت تؤشر إلى كل حرف باسم الرجل، عندها أدركت سبب اندماجي الشديد مع منظف الطرقات هنا، لماذا يخجل من عمله؟! أمر لا يمكنني فهمه فالعمل الجسدي هنا أفضل أجراً؟!

لم تعجبنا الشقق الأرضية التي عرضت علينا ولا فكرة العيش تحت أو أسفل. لنذهب ونرَ المعروض في شبابيك الدعايات.

مثل: الكوخ السويسري وما تقدمه الشقق بسكة القطار التحتية حيث طلاب من كل فروع الدراسات والسيّاح

القادمون من كل جهات العالم يتبادلون عبارة:«لو تسمح» لطلب مكان إقامة، وعلى حديد الشبابيك، إعلانات مثل ستة بنسات بالأسبوع.

- للأوروبيين فقط.
- الآسيويون مرحَّب بهم.
- أصحاب الأعمال المتزوجون.
- العائلات المتقاعدة.
- غرف مشتركة للنوم.
- إمكانات المطبخ متوفرة.
- لا أولاد.

قالت«مابيل»، يا للهول لا يوجد أقل من جنيه في لندن، ثم وجدنا عبارة: المفضل هو الملون!؟

ففي السياق الكبير للبحث عن السكك مع تحذيرات غير عدائية بأن هناك خمسة عشر مليون نسمة في لندن وحدها، عدا الملايين خارج الميترو الذين يريدون القدوم.

لقد كنا نحيا في حفر نرى فيها ألم لندن في كل مكان، فالإنكليز مازالوا يبنون ويعيدون تصميم ما دمرته القنابل وأشعلته ناراً جهنمية، والرافعات الضخمة مازالت تحفر عبر طريق كاتدرائية القديس بولس.

قال دليلنا: لقد نجا القديس بولس على كل حال، وكما تعرفون سخر بتواضع من الصليب الفكتوري في غلافه قبل أن تزين - فكتوريا - بفخر الجندي المجهول به في احتفال. ثم أضاف، من المضحك أن الحرب لاتزال قائمة في عقلي كغمامة، وكما تعلم حين يتحرك الخوف فيه فجأة تستحوذ عليه كلما تذكرت أن أخي الصغير وزميله كانا يلعبان بجانب قنبلة بعد مدة طويلة من نهاية الحرب، في إحدى تلك المساحات - الأماكن - المتكتم عليها بعد الحرب لرفع أبنية وشقق عليها. قفز صديقه على حائط وحين نزل على الأرض نزل على قنبلة تفجَّرت فنزعت كامل ذكوريته من جسده. جاء أخي راكضاً نحو البيت يطلب النجدة وقد التقط قطعة لحم بيده في ورقة ملفوفة فأخذناها منه إلى المستشفى فخاطوها مع الجرح، واليوم حين يقابلني أو يقابل أخي لايزال يشكرنا، لأنه تزوج ورزق بأربعة أولاد أصحاء، وبعدها عاد وجهه طبيعياً ليقول: أربع قطع لحم - عندي..

لقد أصبح الخلاص من الحفر التي كنا نعيش فيها مصدر سعادة لنا، وخاصة بتجنبها صباحاً لنبحث عن أمكنة - إقامة - يفضلون تأجيرها للملونين، لذلك كنا نصعد ونهبط إلى أنفاق «المترو» تحت الأرض، نستعجل الوقت الذي يمرُّ، لنصل ونعبر الوادي الذي لم نرَ أجمل منه، وهو تحتنا يسمى: بتلة

الرعيان، ليواجه قصر «ألكسندرا» الذي كان مقرَّ التلفزيون البريطاني.

المنطقة جميلة بشكل لا يصدق.

وصلنا إلى الرقم - العقاري - خمسة وسبعين وتجرأنا في الضغط على جرس الباب، لتنظر إلينا الخادمة ذات الخدين الورديين بنوع من الدهشة المؤدبة من غرفة الاستقبال السنديانية الخشبية، لأنها لم تكن تعلم أن البيت للإيجار، لذلك ستكلم سيدها، ودون أن تسأل من أعلمنا أن هذا البيت للإيجار؟!

جاء صاحب الشأن إلى الهاتف ليقول بلطف شديد: آسف جداً لما حصل لكم من إزعاج، إذ توجد منظمة «فاشية» تضع رسم الصليب المعقوف وترسل الناس الملونين حول لندن بحلقة مفرغة، ثم يشرح لماذا يدين هو مثل هذه المنظمات وأنهم هم الذين يضعون مثل هذه المعلومات بن أيدي الناس لتضليلهم.

ذاك هو اليوم الذي تمنت فيه ابنتي أن تكون جماداً، حتى لا تهتم بشيء بعد ذلك، في اليوم التالي استيقظنا باكراً لقص شعرنا، ونصحنا الجيران بحلاقين لطفاء في «سولو» على الأغلب، فاخترنا من بينهم صاحب دكان صغير حتى لا يظهر أي إحراج، فآثرنا أن لا يكون ضخماً كما هي حال الدكاكين

الكبيرة، والمفروض بنا أن نعمل على الدخول الهادئ من مدخل غير مزعج، فدخلنا من مكان صغير يحمل اسماً: «يخص كل القارات» ومرحباً بنا فيه، لكنه يستخدم مقصات شعر قاتلة للشعر الزنجي ورأس صاحبه، فهو مصيبة أن وقع بيد مجرم شرير. وهكذا رفع الرجل نظره نحونا لفحص شعرنا الزنجي تاركاً الرأس الذي يحلقه لبرهة، وحين نظر إلى العشب الكثيف برأسي هزَّ رأسه من جهة لأخرى وقال: بصراحة ليس في هذا الصباح سيدي، جرِّب المحل في الزاوية، فهم أكثر دقة. حول الزاوية. ليس بمثل هذا الشعر، سيدي.

بيأس جمعت شجاعتي بيدي وذهبت إلى حلاق الرجال الذي دفعني إليه وقلت: هل بإمكانك حلاقة مثل شعري؟ وكان يستخدم ملاقطه، دلالة على إشارة مشجعة. قال: طبعاً، وما الفرق، سيدي؟

سارت الأمور كما يجب حتى وصل إلى الكثافة الزنجية بشعري والتي أشعلت ضوء الاحتجاج بحلقي فقال: ها أنت ذا، سيدي، وهو يريني رأسي بالمرآة من الخلف، ولما عدت إلى المنزل نظرت ثانية للمرآة فصرت أنوح على رقعة حقل «الفوتبول» المكتوبة حول رأسي.

هذه هي كما ترى كاتدرائية سانبول العظيمة، والله وحده يعلم كم نود الموت في جنوب أفريقيا لمعرفة كل شيء يرمز إلى

ذاك الصليب الذهبي على قبتها بضخامته المهنية وثبوته، فهل من تساؤل عن«سانبول» ؟ لقد أُخبِرنا عن الجدل الذي وقع بين الإنكليز بشكل ساخن حين اكتشفوا أن نصب«نيلسون» بارتفاع مئة وثمانين قدماً كان يواجه القاعة البيضاء للبحر التي تلائم البحار العظيم هذا، ولكن من يستطيع أن يغير هذا الآن.

وكل هذه الكاميرات التي تملأ الداخل والخارج«لسانبول» مثل النمل المتسلق على برج، ألا تدنِّس المكان؟ أليس من الأفضل والأكثر ملاءمة وامتلاء لو يسمح بالعبادة في الآحاد، وبشكل أكثر ملاءمة ننتظر الدور في الدخول.

لا تكن سخيفاً، اذهب وانظر إلى الإنجذاب العام بنفسك، هل يوجد مدخل جانبي للناس السود؟ أليس هذا هو الجانب الهزلي في «سانتمير» الكاتدرائية في«جوهانسبورغ» ؟ في أحد الأيام وأنا في طريقي إلى المنزل سمعت مجموعة من الأولاد البيض يتعاركون على المدخل، لوجود إشارة على لوح«سانتماري» تقول: حضور الشباب إلى مسرحية«اللعبة الشعبية» كل يوم حتى يوم الميلاد والدعوة عامة.

كان الأولاد البيض يرطنون بكلمات قاسية، يدخنون ويصرخون بأقوال مثل: ابتعد عن طريقي لجهنم وإلا سأحطم رأسك بما في يدي، ثم هدؤوا، فدخلت نحو مكان العرض

حيث يكتظ بالسود على الأغلب، وذات الشيء، كان السياق العالي في ممشى الكنيسة هناك مليئاً بالشبان الغاضبين أيضاً يتحركون جيئة وذهاباً في الوسط، وهم يحملون الصلبان والشموع وهم في طريقهم للمذبح.

وإني لأتعجب كيف كان خدام«سانبول» يقولون لبعضهم اذهبوا للجحيم؟! وعلى كل حال لم تكن هناك مداخل منفصلة، وآمل أن يكون«الأسقف» في الداخل، لأني كنت سأذهب وأخبره انظر.... إنكلترا هي رئيسة الكنيسة «الإنجيليكانية» أرجو أن تخبر الإنجيليكانية هنا بالتوقف عن بناء كنيستين، بيضاء وسوداء، لكن«الأسقف» لم يكن هناك، فلم أخبره، وأراهن أنه لا يعلم أنهم يقلدون«الكنائس الأفريقانية» التي لها كنائس مزدوجة هناك تزدوج فيها الملة، ومكانان مزدوجان للعظات.

ثم توقفت على الباب لأنظر حولي، فلا يمكن أن تضل طريقك في«سانبول» لأن هناك دوماً إشارات وإرشادات مثبتة فوق كل الأبواب، ثم كان هناك رجل بثوب كنسي، يجلس على طاولة مغطاة وكتب وقواميس، لوضع شلن أو اثنين للمسؤول عن المكتبة وبيع كراساتها في علبة التبرعات للكنيسة، كما توجد إرشادات في كل مكان للزوار أثناء الصلاة تحدّد متى يمكن

الدخول ومتى لا يمكن. قالت«إسمه» : لكن أليس هذا مثل الذين ضربهم المسيح وطردهم من«الهيكل» لأنهم جعلوه يبدو كسوق«بازار»؟

يجب أن نسأل الأب«تيموسي» عن هذا، وكذلك الأسقف «فيليب»، فقد وصلا منذ مدة قريبة من«جوهانسبوغ» إنهم يعرفون كل شؤون الحياة هناك. وما يسبب الصداع للأب «تيموس» في«جوهانسبورغ» هو إيقاظه ليلاً من قبل الشرطة في منتصف الليل ليتعرف على هوية أحد السكان الأصليين الذي يدَّعي معرفته، وقد تمكنا منه بثياب جديدة لا يستطيع بها تقديم«التناول».

ويأتي الأب تيموسي إلى مخفر الشرطة دوماً ليقول؛ هذا من رعيتي في«وسترن ناتيف باريك»، إنه رجل شريف يمكنكم إطلاق سراحه، والأسقف«فيليب» كان قد وقف عدة مرات على منصات أناس يدينون لأجلنا«الغيتو» وعشش المدن. وكان الأسقف«فيليب» يقول دوماً: اتركوا الناس تعمر لتعيش، السود مثل البيض، فإذا دفعتم الناس إلى بيوت رخيصة غير صحية، وعيشة رخيصة غير مسيحية، سوف تدفعونهم لجنون الغضب.

لذلك قررنا في ذات الصباح الذهاب لرؤية رجلي الله هذين، لنسألهما عما إذا كان من الجائز بيع الكراسات في كتدرائية

«سانبول»، وهكذا وصلنا إلى«سكن المسيح» في«بايسوارتور»، وطلب منا المشاركة بالغداء، لنسأل عن كيف وجدنا البيت الذي يتبنانا في إنكلترا، ولنجيب: حسن جداً، سيدي اللورد.

ثم أضاف، هل وجدتم سكناً وكم تدفعون إيجاره؟ عشرة جنيهات، يا سيدي، وكرجل أبيض بدأ يقول: يا الله؟ هذا مثل ما أدفع أنا، وهو عشرة أضعاف ما تدفعونه في جنوب أفريقيا أليس كذلك؟ يا الله هل تستطيعون ذلك؟ عندها قال القس الأب«فيليب» : إن أسعار المعيشة ترتفع بشدة هنا أليس كذلك؟

الأب«فيليب» صغير الحجم مع بطن بارز لا يهدأ فقد ظل يثير الأمر بصورة مستمرة إذ أراد جواب نعم متلفتاً يمنة ويسرة حول السؤال الأخير، فقلت: نعم أيها الأب«فيليب»، عندها أمسكني من ثنية معطفي ليمرر إصبعه على فروه الناعم برفق، وكأنه يفحص نوع«جوخه» كما لو كان بائع جوخ، تجاوز متوسط عمره يتفحص ويشاكس بعينين فيهما شك وريبة، ثم قال مثل سمسار المنازل الخلفية: إذا كانت الأشياء بمثل هذه الصعوبة، فمن أين حصلت على هذا المعطف الثمين؟

وكاد أن يقوم بسرعة فأمسكت به من الخلف وقلت: ألا تعرف أن فتاة إنكليزية دمثة أخذتنا بجولة سياحية في ذاك اليوم، كانت تعمل في الخدمات الاستعمارية في أفريقيا،

وأخبرتنا كم هم فقراء الأفارقة في المقاطعة التي كانت تعمل بها، ثم أردفت أنها حين ترى إنساناً أسود يقود سيارة كبيرة فخمة وغالية الثمن في لندن تدفعك للتساؤل كم هو خبير ثري، أليس كذلك؟

وهكذا، اختفى الأب«فيليب» مع الحشد المدعو لمقابلة القادمين من جنوب أفريقيا، وكانوا رجالاً ضخاماً مع رؤوس يلمع الصلع فيها وكأنها القبب اللامعة، من الناشرين، كما كانت هناك مجموعة من مدخني الغليون الذين يضيعون الكثير من الطاقة في تنظيف غلايينهم البالية، بدل تدخينها، كذلك شباب طوال أصحاب أناقة يتلهفون لكي يبدوا أكبر من سنهم متلبسون بالإباء بشكل جيد، وكلهم يقضون الوقت عابسين بوقار في غرفة الطعام المنتقاة الغالية الثمن، من تجمع لآخر.

صديقي العزيز جوزيف

أعزائي

كلهم يذكرونني بأستاذي باللغة الإنكليزية«د. دون سيتمكولو» الذي كان يقول إن الذي يتكلم الإنكليزية في «أكسفورد»، يتكلمها من عمق زرِّ رقبته الخلفي، وكلما تعمقت الثقافة - هذه - يصبح صاحبها رجلاً جيداً.

وبينما كنا في زاوية هامشية نراقب تنقل الأب«فيليب» بين المحتفلين جاء شاب ودود لمشاركتنا، اسمه«فرانك» وكان

طويلاً جداً وجسيماً مع نظارة سميكة لقصر النظر، وقال: تعالوا نعرِّف بأنفسنا، فهو من شباب المدارس ذات الثقافة العمومية اللطيفين. من الذين يتمنون لو لم ينتسبوا لتلك المدارس، فقال حول هذا الموضوع: أنا لا أعرف لماذا كانت تسمى مدارس عمومية مع أنها في الواقع كانت مدارس خاصة تختار طلابها بعناية وقسطها مكلف. هي مثل اسم بناء مبني على هضبة هو في مكان«إيتون» أو أي مكان منخفض كما تعلم.

ثم تعرفنا«بوليام نورثغيلو»، قال: ذهبنا أنا و«بيل» إلى المدرسة معاً لكنه الآن هو رجل ثري كما ترى، فكيف استطعت أن تبدو ثرياً يا«بيل» ؟ فأجابه: بتجنب صحبة الفقراء يا«فرانكولشا.... ب» رافعاً جسده فوق فرانك ثم سار بعيداً، فبدا على«فرانك» الإحراج المرّ، فقال: ألا ترى؟ هذا ما تخزنه المدارس العمومية، وهذا النوع من الشرسين هم سبب إضافي مستمر لتداعي الإمبراطورية وسقوطها.

ثم خاب أملي حين قدموني لنبيل اسمه:«اللورد ستوكفورد» النظيف الحليق وهو ذو بنية معتدلة ويبدو طبيعياً في بذلة غامقة، يتكلم بنعومة وبأدب ورقة، فغير نظرتي للوردات، حيث كنت أتوقعه طويلاً محاطاً بسلسلة ذهبية وجواهر برقبته. كنت أريده صاحب صوت عميق رصين حاضر، وأصدقاؤه يكلمونه باسمه

الأول، وقد بدا مضحكاً عندما كانوا يخبروننا أن كثيراً من اللوردات أصحاب ألقاب الشرف وغيرها يرفضون ألقابهم ويريدون أن يدعوا بلقب «ستوكفورد»، فكل الصحف البريطانية أرجعت الأوراق التي تصنع اللوردات إلى البرلمان، ويقولون: نحن نريد أن ندعى بعبارة عامية، مجرد شخص «Bolke»، واللورد الذي لم يستقل هو الذي يدعو أناساً عاديين مثلنا لبيته على الغذاء، فكل من ينزل على الدرج من الطابق الأعلى، ليتحدث ويسير على مستوى الأرض، لا يخبر الإذاعة ولا المعلق فيها متى قال: هنا معي في الاستديو «ريتشارد ماربل»، ليقاطعه اللورد مذكراً إياه بعبارة: سيدي، ليدفن المعلق نفسه تحت سرد الأعذار.

أبداً أيها السيد لم تكن أنت من حاكني نبيلاً! وشبيه بهذا كان اللورد «ستوكفورد» بسيطاً تماماً، حين قدَّمنا لزوجته مستعملاً اسمها الأول. وقد كانت فاتنة ناعمة طبيعية لا تتأثر حين قالت: ما هو عدد السكان اليوم في بلدكم، فأجبناها: اثنا عشر مليون أسود، لتقاطعني قبل أن أكمل.... أوه!؟ لماذا تسمي نفسك بالأسود في حين أن لديك هذه - البشرة - السمراء الجميلة، فكلما لفظت عبارة الناس السود تسبب في ظهري رعشة.... الناس سود؟!

الطفولة

رونالد سيغال

في أي عمر يعي الطفل طبقته؟ فالأولاد كما يبدو يعرفون المال على أنه شيء تجب حيازته بسرعة واخفاؤه تحت المخدة، ولكن التأكد من صلته بالحاجات، والحصول على أكبر قدر من الحاجات، أهو الذي يميز فرداً من آخر؟ متى تفتح عيون الطفل واسعة على هذا الخبر؟ لقد كانت أولى ذكرياتي عن حالنا حين كنا أغنياء، وأنَّ هناك عدم ضمانة لهذا، كما لو أن المال يظل طالما أستطيع أن أطبق عليه بجيبي، كأمر أكثر إقناعاً من الحصول على منزل واسع وحديقة بشجرتين من«الليلك» تتدليان وسط مرج مخضر حيث الخدم، ثلاثة ملونين وأفريقي، وفوق ذلك ممرضة بيضاء. في الريف حيث الطبقات تتبع وتتبع حدود اللون البشري، فحيازة خادمة بيضاء مهما كانت صغيرة ولا يعتمد عليها ترفع صاحبها إلى عضوية أرستقراطية ضيقة وصغيرة، وبالفعل مثل هذا الموضع الذي أصبح ممكناً هو من نتاج مشاكل فقر

البيض التي راحت تتضخم حتى اشتعلت الحرب العالمية الأولى وما تبعها من توسع صناعي لاحق.

لا أذكر أن أياً من«المربيات» المسؤولات عني كان لديها أية علامة حضارية مميزة، ما عدا ربما إمكان إخلاء سبيلهن، فقد طردت اثنتان منهن لأنهن كن يستعرضن ملابس والدتي في وقت متأخر وصلت فيه قبلهن، وواحدة توارت عن القانون مع غطاء حريري للملابس، وإني لأذكر«غريته» صبية ألمانية، لأني ضربتها على ذقنها وشعرت بالحزن الشديد من فعلتي بعد ذلك، كما سأذكر«نيلي» الأفريقانية التي كانت فوق العشرين طوال حياتي.

لقد كانت«نيلي» آخر الذين ولدوا وعلقوا خارج مشكلات فقر البيض، ففي الوقت الذي تركتنا مع بداية الحرب، وصل فقر البيض إلى المؤسسات بشكل غير قابل لطرده، ومع ذلك ظل فقر البيض يلفت الأنظار، مثل الطين المتشبث بقطعة البطاطا.

وبالنسبة«للأفريقان»، اليوم كان هذا الإرث المهين قد عانوا منه ويخشون تحمله ثانية أما بالنسبة«لنيلي» فقد كان تحملها للون قاسياً جداً، ما لم يأتِ منعطف يلغي التمييز بين الخدم ويعيد لهم التساوي بين البيض والسود بالمنافسة الاقتصادية، أما في أيام حضور والدي فكانت تحظى بين أربعة خدم غير

بيض على امتيازات القيادة، التي كانت تنفجر باعتزاز حاد أو شكاوى مرتفعة فور غياب والدِيّ أو عدم سماعهما لما يحصل.

أما بالنسبة لأختي موريس الأكبر مني بسبع سنوات، فقد كانت خرساء وطرشاء لكل ما كان يحصل، متجاهلة كل شيء سوى ما تراه من متطلباتها، عندها تهاجم بكل رياح العنف وتمسك بكل السلطة، وكانت في الحادية عشرة أو الثانية عشرة حينها. أتذكَّر مرة عندما حاولت صفعي، فقوتها كانت لنا مصدر إزعاج مستمر، وقد اكتشفت بذلك أهمية القوة أثناء الاختلافات، بدلاً من المبادئ، فتبنيت مبدأ المقاومة السلبية التي تجعلها أحياناً تنسحب بتشوش وعدم رضا، لكن سلوكها كان دوماً حامياً وغير متوقع، وأكثر من مرة كانت تفرض عليَّ الاستسلام، فكنت أمقتها، وأشفق على الشخص الذي تبذل جهدها للاتصال به كل ليلة بعد وضعي في السرير، وعندما عبَّرت عن هذا مرة بصوت مرتفع، تلقيت صفعة بشكل جعلني أحجز في المستقبل مشاعري لنفسي.

ولأنني أصغر الأبناء كنت مدللاً بصورة عالية من عائلتي، لكن دون أن أقدر على جعل والديَّ يصدقان أن«نيلي» كانت تقود حلقة من الإرهاب بغيابهما، فلابد كما أفترض أنني أعطيت صورة غير دقيقة لما كانت تنفذه من عقوبات، لعدم قدرتي على تسجيلها، فإصراري على الدفاع عن مطالبي ربما

أقنع أمي أن أي تأديب أناله من ورائها من الذي لا نستطيع إيقافه، ربما أستأهله وبالتالي يعطي نتائج مثمرة. فبدأت أعتقد أن «نيلي» ستظل تنجو بفعلاتها. وعندما عاد والداي يوماً إلى البيت دون توقع وجداها ملفوفة بفراء وعطور أمي، وهي ترفه بالتمثيل لإحدى صديقاتها التي غادرت بسرعة، وابتهجت لكوني أصبحت أكبر من أن أحتاج إلى من يراقبني بعدها.

وأفترض أن بإمكاني لفت الأنظار كما ظللت أفعل بعدها إلى أن أحاط بالحماية وبالمتعة من المجتمع، فقد كانت رفيقات أمي يقضين بعد الظهيرة في بيوت بعضهن ليلعبن لعبة «البريدج»، ونبش حياة من يعرفنهن، اللواتي لسن معهن وقتها، وفي المساء يلحق بهن أزواجهن على حفلات العشاء، أو على مزيد من الأحاديث حول لعبة الورق، ولتجنب الملل كانت هناك رحلات بحرية، وأحياناً نزه بالسيارة إلى شبه الجزيرة للتسلية وزيارة المشاهير، وقد وصفت إحدى صديقات العائلة ذلك بمرارة لا شعورية يمكن وصفها بالشجاعة. أزعج تورط أمي بهذا نوعاً ما، وقد كنا في بداية أيام الحرب، والذين لم يكونوا يشغلون أنفسهم بجمع المال للنازحين، كانوا يخدمون بالخدمات العامة، فتأوهت على السرير حيث كانت تخضع للمساج، أواه لقد فكرت بالأمر باستمرار، لكنها ورطة يقع بها

الإنسان. فأيام الاثنين والجمعة وقت «مساجي» والأربعاء يتوقع جون مني الاهتمام بأصدقائه، والأحد يكون جون في البيت ولا يمكنني الذهاب بعيداً، فمتى أجد الوقت؟

المسألة ليست ذاتية كما تبدو فالمتع تتحكم بالإنسان كالحمى لكي تتحملها الأخلاق الأمر ليس أمر استلقاء وإغلاق عينين فقط على أمور مزاجية ترتسم بالذهن بعد المتع، فورق اللعب وحفلات العشاء والشاي في المدينة والتسوق تتداخل بدروج صعبة الإغلاق، والدوافع التي تجعل الجسد في حركة دائمة لا يمكنها أبداً أن تضيء العقل، حيث الزائر مثل المزار بحال اشمئزاز لكنهما أسيران لإحساسات واحدة بعضها ضروري لأنها أشياء يجب أن تحصل بعد حصولها، فلا أتصور إمكان وجود أي نظام اجتماعي مثلها وبحماقاتها وبعقمها، والحرب تهزها أولاً. فالدمار في المدن «بوشنول» و«أوسوميتش»، وانهيار الملونين منذ النصر الذي حققه القوميون في ١٩٤٨م سرَّع في عجزها، لكن البيت لايزال قائماً بحدائقه المعتنى بها، كما نجت حفلات العشاء، مع لعبة «البريدج» في أحيان ما بعد الظهيرة، وحضور الخدم بالمطبخ أصبح ظاهراً الآن، ونظرات حادة لظهر شخص منحن فوق الطعام. فيما الهواء اللطيف في السماء يغلب على الرياح، لم يعد هناك شيء مفضل للمتع الآن، فقط سكون يطحن الأعصاب، يختفي ويظهر باختلاجات، لقد

أصبحوا يأخذون حبوباً ليناموا اليوم، وحبوباً للاستيقاظ، أما الأكبر سناً من أصدقاء أمي فقد أصبحوا يسافرون دوماً إلى أوروبا لإقامة طويلة، أو يقضون نهاية الأسبوع في بيت هادئ على الشاطئ البعيد تسعين ميلاً، بينما الأكثر تشبثاً يرسلون أموالهم للخارج حتى لا يجد أولادهم أنفسهم قد تحولوا مثل الآن لما كانوا عليه بالسابق، وكل هذا كما يبدو بلا هدف ومستهزأ وضائع بشكل مخزن، فالنهاية قريبة مثل البداية، مع تدمير النجاحات التي حصلت بينهما فقط.

وحين أحدق بأحرف الآلة الكاتبة أرى إلغاء الألوان، وأمواج نبتة«الجهنمية» المتسلقة على جوانب المنزل نحو شباك غرفة نومي مع«المانغوليه» البيضاء وراء الشرفة الحمراء الواسعة مع الخضار بالأمام مع تدافع الأشجار نحو المنزل من أسفله لتختلط مع زرقة البحر بالأسفل، وفي المطبخ«الباقي من أرضه البوش - الغابة» مع ألوان لباس الخدم والطباخين: «فيليب» السائق الملون بمعطفه الأبيض يقف أمام سيارة الانتظار في المدخل، و«نيلي» البيضاء بلا حدود تجلس فوق جريدة على الدرج، أهلي بيض وكل أصدقائهم بيض وأنا أبيض في متكأ الاستراحة بالأسفل.

يبدو أن الأطفال البيض في جنوب أفريقيا يقبلون تصنيفهم العرقي منذ أن يكبروا وصاروا كما يميزون الأشكال والروائح

والأصـوات، حتـى إنهـم بمجـرد أن يبـدؤوا الكـلام يـضبطون أصواتهم على الإدراك المشبع بـالألوان بـذهنهم مـع حـذف أي عدم تشابه - وهكـذا في بعـض البيـوت - تـمَّ زرع هـذا التـشبع بصورة مستمرة إلى درجة أن الهواء نفسه يتضمن رطوبتها، التي تترك بقعاً كبيرة على كل مـا تـستقر عليـه. حتـى «فيليـب» الـذي كان سائقنا حتى قبل أن أولد، والذي كان يلعب معي لساعات في الحديقة ويستمع حتى لأقوالي الغريبة كان بالنسبة لي شيئاً لا شخصاً، مثل منفاخ الدراجة التي علمنـي كيـف أركبهـا، مجـرد ظهر للتسلق عليه عندما أريد قطف التين مـن شـجرنا، ومعظـم الأحيـان مجـرد زوج مـن يـدين سـمراوين عـلى عجلـة قيـادة السيارة. وبين الحين والآخر كان أولاده يزورونه لألعب معهـم بحذر يطمس عن نفسي الحقيقة بشكل ينتج صدمة كلما حـصل لي، فأنا لم أفكر به كرجل عنده أولاد، لقد كان خادماً ملونـاً مـن دون عمر، وظيفته ووضعه يتعارضان مع إنجاب الأطفال.

أذكر الرعب الذي سببه «باني» الأفريقي، صبي البيت، حين تذمَّر مني لأنني أبلل مكان أرض المغسلة كل مساء. فهل يمكن لسيدي «رونالد» أن ينتبه أكثر؟ مهمته هي: تنظيف كل البيـت، وعـلى سـيده «رونالـد» أن يجعـل الأمـر أسـهل عليـه، فلـم تكـن ثورته هذه هي التي أساءت إليَّ، بل ما حضرني فجأة بخصوص اعتباري قلة إنسانيته؟ أما الإنسانية التي ظهـرت بـشكل واسـع

في مرحلة من حياتي فهي خاصة بي. بذلك كان كمن صفعني فجأة على وجهي، واليوم أرى نفسي طفلاً بعمر خمس سنوات واقفاً يحدق برجل زنجي طويل نحيل ذي عينين واسعتين كله خجل، نتج عنه تجنبه لعدة أيام حتى أقدر على مخاطبته ثانية عن كيفية تنظيف وكنس الماضي الذي كان يعمل على تعريفي به، فمهما كانت برودة رخام أرض تلك المغسلة التي تشعر بها قدمي ومهما كان الدفء في سريري، فقد رأيت فيهما ما يجب أن لا أنعت بالإهمال مرة ثانية، لن أسمح له أبداً بأي حال أن يتدخل في حياتي، كنت أردد هذا مراراً لنفسي، بما أنه تدخل مرة بهذه الطريقة، فهو هناك، إنسان تجاوز حدوده[1].

---

(١) تلك هي قصة الطفولة التي تكتشف الميتافيزياء الواحدة بين كل الأعراق.

القوة السوداء
أو أرواح الأدباء السود

لويس نكوسي

قال: دبل يو، إي، بي ديبوا؛ إن مشكلة القرن العشرين هي مشكلة - خط - اللون والعلاقة ما بين الداكن والأفتح بين الأعراق البشرية في آسيا وأفريقيا وفي أمريكا وجزر البحار.

إنه لمن الصدمة الكبرى للكاتب الأسود حين يدرك أنه رغم افتراضه بشكل متفائل أنه شريك بالاهتمامات مع الذين صقلتهم الليبرالية من شعوب الغرب من الذين يشكلون جزءاً من سكان أوروبا وأمريكا، يعلم أن نجاته الحقيقية في العالم هي بالاعتماد كلية على القبائل السوداء في أفريقيا وآسيا وجزر الهند الغربية وزنوج أمريكا، وهم الكيانات التي أهمل صقلها، ويزداد الوضع سوءاً، ولا يتحسن بالحقيقة المساهمة الأصولية في الفن كمعارض لخطر التنظيم السياسي يعتمد على الذين

يتابعونه من أرستقراطيي الإيمان غير المتعاطف، وعلى أحسن الأحوال والأقوال نصير واحد في أوروبا وأمريكا أفضل من عديم الإحساس القاسي من نظرائنا الأفارقة والآسيويين الريفيين.

ما يجلب الشقاء للملونين ولكل رجل أسود يحب الحوار الجيد والرفقة الذكية أن يجبر على التحمل بإزعاج مدمر أن هؤلاء أناس يشاركونه معاناته. لقد أصبح واضحاً حتى للأسود اليائس الضائع من الكتاب في كوكتيلات أوروبا بأنه: حين تحط السفن في«هارلم»، و«توتينغ هيل فايت» وقطيع من البيض الرجعيين في الطرقات وهم يبحثون عن أي زنجي دون أي ليبرالية من أصدقائهم البيض الذين يستثقلون منذ مدة قصيرة الشروط الإنسانية الحديثة على كأس من البراندي محاط بكدسات من تطمينات الأدب الرفيع الذي يصحبه معه إلى الشوارع، ولا يوجد أي أمل لنا نحن الشعب الأسود بأننا إذا تحملنا مدة أطول حقارة البيض سوف تتغير وسوف تتحسن، والدلائل التي لدينا حول الوقائع تدل على العكس، فسلوك معظم الإنكليز تجاه الزنوج في هذا الوقت والعصر كما هو متوقع مريع، ماذا؟ كاتب أسود جاء من بلاد«الكومنولث» ليساعد ليبرالياً إنكليزياً أبيض مناصراً للحرية من دماغ محدود ومتعصب عرقي؟ يبدو كل مُثُل الفضيلة التي يستمتع بها

بغياب الزنوج هي الآن للأسف يحاولونها بحضور الزنوج شديدي السواد الغرباء، وبهذه الدرجة يمكن تذكير السيد «ديزي» بزهده«بيوليسسه» : الذي قال: أريد فقط أن أقول إن «أيرلنده» كما يدعون كان لها شرف كونها لم تضطهد اليهود.... وهل تعرف السبب؟.... لأنها لم تسمح لهم بدخولها!

حقاً يجب الموافقة بعد كل هذه الإثباتات«لسمثيويك» أنها خارج تحمل السيد«ديزي» فمهما حصل لهؤلاء المهمشين في «سمثيويك» و«سالسبوري» فإنه يلغينا كلنا نحن الذين لهم الإيمان في القدرة المطلقة للناس من كل الأعراق على العيش بسلام مع بعضهم، وإلغاء الكاتب الأسود أكثر قابلية للإزالة لأنه يحمل بوجهه وجوه هؤلاء، وهذا الإدراك بحد ذاته بعدم قدرته على إخفاء هويته، مهما كانت لديه من قدرات بطريقة تسمح له بإخفاء هويته ضمن حشد من السود والنتيجة التي وصل إليها، مع ما لا يمكن تصوره من ألم الندم، فرضت عليه نتيجتها الأحداث مقدماً.

إن الضغط الذي يعرف نزوله عليه كفرد، وعلى عمله ككاتب نتيجة هذه العلاقة يؤدي إلى كل سوء، وينتج دائماً صراعاً بين الحقيقة التي عمل جهده كفرد لاكتشافها وسطحية الحقيقة المضخمة والعامة قبل أي افتراض، لتملي عليه

الإجبارات السياسية، التي تعد حقيقة مهما كانت محدودة وسطحية والتي تعتمد عليها حياته اللامستقرة.

من النتائج التي يصل إليها الكاتب الأسود مباشرة أو على أسس ملتوية هي:

البراهين الذاتية، لكن لمعارضتها للمحاولات الليبرالية المتحضرة في المجتمعات البيضاء لجلب النخب السوداء عبر وعود اقتصادية واجتماعية مجدية أو بفرض الشعور بالذنب عليهم، تلك الواقعة يمكن تقريرها على النحو التالي:

إنه ضد الحقيقة العدوانية عند القوى البيضاء التي تدين حالياً السكان السود حول العالم لا يوجد أي مضاد لها، ولا رؤية عند عمال العالم المتدين أو ديمقراطية تحقق وعودها، ليبقى العلاج الوحيد في نزع السلطة من البيض من قبل كل العالم غير الأبيض، بوحشية العنف الذي مارسه العالم الأبيض في الماضي، والسبب الذي يُهدَّد فيه السود من الشرطة البيضاء ومن سكان نيويورك وسيمثويك هو لأن السود ببساطة ليس لديهم قوة تهدد سلامة الذين يهددونهم ليتوقفوا ويخضعوا ويروا كيف يمكن «للجنتلمان» الأسود أن يكون لو هُدّد، هذه هي الطرق التي تتصرف بها القوى العالمية.

هناك رجال بيض ماتوا حقيقة في الدفاع عن السود، لكن الذين يناضلون من البيض في المسيسيبي يظهرون شعوراً

لا يسمحون به للزنوج، لذلك يبدو لي أنه عندما يصبح العالم الأسود قوياً بدرجة كافية لتحييد قوى الإجبار والشر من الأمم البيضاء الغربية، يصبح من الممكن للسود والبيض بتفاهم إنساني ورؤية واحدة بالاهتمامات التي تجتاز خطوط الألوان، وهذا غير ممكن بين الحُرّ والعبد. مثل هذه العلاقات يميزها الشعور بالذنب وعدم المساواة وإشكالات أساسية بالتواصل في عالم منقسم بعمق بين ألوانه، فإلى أن يحصل العالم الأسود على تلك المنجزات والسلطة ضد العدوان، ترى أية صداقة بين الأسود والأبيض، وأية تسوية أو تعاون تظل مبنية على قوة أحدهما؟

هذا هو ما هو كائن: لأن القوة البيضاء موجودة في العالم اليوم كباب خلفي يلتف به على فاعلية التاريخ المعاصر، فالعالم ليس منقسماً جداً بين شيوعية ولا شيوعية، بقدر ما هو منقسم بين الأمم التي ليس لديها والتي ليس لديها، وربما على سبيل الصدف. صارت الأمم التي لديها بيضاء والتي ليس لديها سمراء، لكن الوقائع تظهر لنا أن معظم البيض لا يتواضعون أكثر من السود في موضوعات الصدف التاريخية، الذين هم ضحايا قوة البيض فيها، فنحن السود قد وصلنا إلى ضرورة فهم الصلة بيننا وبين خلفيات التاريخ الذي استعبدنا فيه البيض، وفقدنا لعدوانية الطبقة التكنولوجية التي حَرَّفَت

إنسانيتنا الثقافية، ليبدو الآن أن الله خذلنا في المنطقة المهمة الوحيدة التي تسمح ببقائنا كشعب، ولكن هذا ليس وقت ندب الماضي، أكثر من فرص بناء المستقبل.

فقبل أن يستطيع الأفارقة الإسهام بالحضارة يبدو من البديهي أن يحصلوا على الثقة بالنفس واحترام الذات، وهما نتاج الثقة بتحصيل القوتين الاقتصادية والسياسية، فأمة من الصعاليك لا يمكنها أن تسهم بأي شيء ذي قيمة في العالم، ولا بأمانها بين الأمم القوية في العالم كأمر مشكوك فيه كثيراً، وبالعودة إلى التعصب العرقي ضد السود، نجد أن البيض أساس السيطرة على مناطق العالم، نتيجة لصدفة القوى التكنولوجية المعاصرة المتتابعة، وقد ارتبطت بالبيض تاريخياً، وبالعرق الأوروبي الذي مارسها ولايزال، وهذا التأثير في سلوك البيض ضد السود لا يرجع في معظمه إلى إسهامات وإنجازات كل فرد من هؤلاء الناس، لذلك من الصعب بالنسبة لخشاب في«ألبامه» أو متسكع في ساحة«الطرف الأغر» أن يفترض بصورة آلية تفوقه على الرجل الأسود، وكذلك يفعل معظم الليبراليين لكن باحتيال أكثر، وحتى لا شعورياً حين يعترفون بأنهم قد قابلوا رجلاً أسود موهوباً لدرجة أنه أفهم منهم وأكثر موهبة، وكالعادة المسكوت عنه هنا هو المهم .

على كل حال، خَبَرَ السود بصورة رئيسية القوة البيضاء كأداة لطغيانهم واستعبادهم، وكذلك كفائض عن فقرهم وحاجتهم التي هي من الأعراض الدالة على طبيعتهم، والتي تمارس إلى اليوم بشرورها وحسناتها من قبل هذه القوة تحت مسمى الشعب الأبيض.

بالنسبة للأفارقة أو السود عامة، ليس من المناسب أن يكون سلوكهم ضد هذه القوة دون الناس الذين سعَّروها، وللتعميم أكثر، إن كل من لديه وعي من السود الذين اختبروا في يوم ما التكنولوجيا الأوروبية بقوتها وبحملاتها الصليبية في مهمات التمدين وُلِدَ لديهم شعور عميق بالدونية والمرارة لينكر واقع أن الثورة الصناعية لم تبدأ من«داهومي» ولا«دكار»، فلا يمكن أن تحصل على شيء من هذه الواقعة بإلغائها. والعدوانية التي تجعل الأفارقة يتجهون لتأكيد عدم جدوى ثقافتهم الإنسانية مقارنة بأوروبا، هؤلاء يهدفون إلى إخفاء شعورهم العميق بالرفض بأن ثقافتهم تحتاج إلى تكنولوجيا عدوانية لطعنة قوة، وأنا من قلبي أردت تأخير أي أن سلوك مشابه عند البيض كلهم وطبعاً بدرجات مختلفة من الشدة، يعانون به من شعور التفوق على الزنوج، أو احتقارهم علناً لأنهم يمتلكون ثقافة لم تسلحهم بالتكنولوجيا وصناعتها.

المسألة ليست مسألة ما إذا كان للزنوج رائحة مختلفة أم أن ثقافتهم مختلفة، لذلك يضربون بصورة مستمرة على رؤوسهم من قبل عصابات بيضاء، دون أن يحصلوا على أي تأكيد من علماء الاجتماع والباحثين الاجتماعيين بعكس ذلك، بل فقط لأن الناس الذين ليس بأيدهم القوة يستأهلون أن يضربوا على رؤوسهم لأنهم يسهلون هذا الأمر للضارب. فمعظمنا «نيغرو» من مدة طويلة، لكي نفهم لماذا يكرهوننا لهذه الدرجة لأننا مختلفون عنهم، لكننا مختلفون لأننا ندعوهم للقيام بهذا العمل الشاذ كمأثرة لضبط النفس وإنكار الذات. صحيح أن المختلفين عنا يجعلوننا غير مرتاحين ولكن حدود هذا النوع من السلوك ليست نهائية، ومع ذلك لا نذهب لنواجههم ونهاجمهم، إلا إذا عرفنا أنه لن يقبض علينا، فقد تعلمنا كيف نتلاءم بصورة جيدة مع اختلافهم عنا عندما نضطر لذلك، لقد رأيت الكثير من المستوطنين البيض في أفريقيا الذين كانوا يقسمون أنهم لن يجلسوا أبداً إلى طاولة عليها أسود ذو رائحة كريهة، لكن بعد الاستقلال لم يجد هؤلاء أي حرج في مشاطرة طاولاتهم مع رجال قبائل أنصاف عراة، وبكل سرور.

في هذا السياق من القوة التي تغير السلوك يتحول الاشمئزاز الى ولع، فالذي لم يقدر البيض على تعوده ليس ما يسمونه «غريبة» في طرق عيش الأفارقة أو طرق عيش جنوب

الهند وسلوكهم، بل ضعفهم، وعدم إقرار الليبراليين ورفاقنا اليساريين بهذه الوقائع، هو السبب بأن مشكلة الجنوب ظلت بهذه الحدة وغير قابلة للمتابعة. فبدلاً من عون جنوب أفريقيا على تحرير العبيد، الذي يعني إطلاق القوى الصناعية والثروة، من أجل تمكين باقي القارة من الحصول على قواعد اقتصاد حقيقية منطلقة، يريد الليبراليون تشكيل ضمان اجتماعي لمساعدة البيض وجنوب الهند على محبة بعضهم في «بيرمنغهام»، لكن كل هذه الجهود محكومة بالفشل، بسبب اغراء القوة بين القوي والضعيف الذي يغري بتحقيره، وبصراحة يبدو لي أن هناك مكراً من السود إغراء الأقوياء بضعفهم الذي طال أمده؟ والجواب الواضح هو بإلباس هذا العري لعدم التوازن في القوة، وبالنسبة للبيض الذين يهتمون حقاً بالسود وأوضاعهم في «جورجيا وليفربول» يمكنهم أن يروا الحل الحقيقي في مساعدة أفريقيا بسرعة لاستعادة اقتصادها وسلطتها السياسية من أجل تغيير صورة ووضع الملونين في العالم، وإذ أعلم أن الكثير سوف يعتبر هذه الصيغة مجرد زيادة في تبسيط لصيغ الإشكالات الفظة التي طال أمد اعتباراتها بأنها مجرد «صراع طبقات»، أو مشاكل تواصل عانى منها الجميع أيضاً مثل سواهم بسبب عدم الشك بالإقطاعيين ملاك رؤوس الأموال بشكل أو بآخر، ليدَّعوا بأنهم يعانون مثل سواهم من العرقيين،

وإذا أراد أحد أصحاب هذا البرهان أن يناضل فسيدَّعي أن هناك زمناً كانوا فيه على استعداد للموت من أجل السود، تلك كانت صفات الذين لديهم المؤهلات في الماضي ليحرفوا الناس السود عن بذل الجهود ضد العرقية التي سوف تحررهم حقاً من العبودية.

مع ذلك أسارع للقول قبل أن أتهم بعرقلة الجهد لتحسين العلاقة بين الأعراق: بأنني أبحث هنا عن حلٍ طويل الأمد للمشكلة العرقية لأنني أعتقد أن أفريقيا تتقدم في العالم كقوة اقتصادية وسياسية، وكقاعدة للقوة السوداء، كمطلب أساسي حقيقي لتحصيل الأمان والاحترام الذي يتوثب ويسعى إليه «النيغرو» في العالم الجديد والذي هو دوماً، زهيد وغير ثابت.

ففي أفريقيا صنف جديد من الأفارقة الميسورين الذين يفهمون لكونهم مثقفين كفاية جوهر القوة التي يمكن تمييزها من المجازات الأدبية، بكونها الشرط الضروري لأن يستعيدوا للقارة طاقاتها المستنزفة وتثبيتها للتحليق الحقيقي للأمام، وقد ظهرت هذه السلالة من الأفارقة الشباب والتي يعد«نيكرومه» أحد أمثلتها الرائعة، ولربما له بعض الأخطاء لكن«نيكرومه» يعرف ما هو مهيأ لبعض الأوروبيين إدراكه مع عوامهم من الأفارقة، بأن الوحدة الأفريقيا والقوة الاقتصادية مطلبان أساسيان للبدء بحوار حقيقي بين العرقين الأسود والأبيض في البشرية.

فبعد الكابوس المعتم للحكم الاستعماري الذي طرح فيه التساؤل عن إنسانيتهم بجدّية وأجيب عنه بشكل سلبي، أصبح الأفارقة بصدد إعادة اكتشاف ذواتهم وكرامتهم وإنسانيتهم، وطبعاً هذا يحتاج إلى أكثر من ادعاء الحكم الذاتي بطول وعرض أفريقيا. إنه يستدعي إعادة تعريف لكل الثقافة والسياسة للأفارقة من الأفارقة، ومهما كانت الصيغ تستدعي امتحانات تجريبية للأهداف الاجتماعية، التي سيواجه الأفارقة صعوباتها وتوتراتها بينما يبحثون عن أجوبة ربما لا جواب لها. فمثلاً، لا يوجد مَن هو أكثر ضجيجاً وسبباً للخصومات الخطرة من الذي يبحث عن جذوره، والأمر مفهوم حين اكتشف الأفارقة أن ماضي أحدهم ذو قيمة فعلية في الزمن، والأمر البائس جداً هو أن المستعمرين كانوا أقل حساسية من مجموعات بشرية ترى أن هذا الأمر يجب أن يظل محجوباً بالغموض والجهل، وبهما لا يمس، لأنه إذا خرج العالم بأن الأفارقة يحبون خوض الحروب بشجاعة وهم مدهونون كالتماثيل يغنون الأغاني ويزرعون الشعر، فسوف يؤدي هذا إلى ترسيخ إنسانيتهم وحقهم بأن يعاملوا بالعدل، في زمن لم يحصل فيه أي إيقاف لقوة الجشع الاستعمارية، فعكس هذه الخلفية التي تستدعي جهلنا عن أنفسنا وتاريخنا وتبيع ذواتنا، يردُّ الأفارقة بسلوك العنف، في الوقت الذي يقوم فيه الأكاديميون

ببحوث تظهر اكتشافات مذهلة عن ثقافات أفريقيا والطبيعة المعقدة للبنى الاجتماعية لمجتمعاتهم، وفلاسفة الجمال عندهم، وعن الأخلاق والنظم القانونية.

في عدم كشف هذه الوقائع... توضع الافتراضات التافهة حول أفريقيا والأفارقة، ويبرر السلوك الاستعماري الموجود للغلبة وصناعة الرقيق في أفريقيا وأمريكا، فاليوم فقط يدرس الأكاديميون الغربيون بجد المجتمعات الأفريقيا، بدلاً من العمل فقط على فرض مجتمعاتهم وقيمهم الثقافية على الناس في أفريقيا.

هذا هو بالضبط ما وصل إليه الأفارقة المحدثون بتحركهم السهل بين العالمين القديم والحديث، فهم وحدهم القادرون على عبور الجسر بين الثقافة القديمة والحضارة التقنية، وهم مجمعون على أن هناك الكثير مما يجب الاحتفاظ به من القديم، فهم يسعون للطباق بين الماضي والحاضر، وقد أصبح الآن واضحاً أن الدول الأفريقيا لن تكون جديرة بالاختيار، بل بالبقاء الاقتصادي الذي يطالب به العالم بخياراته.

ومهما كثر الشباب الأفريقي في الجامعات، سواء بالداخل أم بالخارج الآن، من أجل الحصول على التقدم الذي يحتاجونه لتكون لهم نظرة صائبة لأنفسهم كشعب، يجب أن تكون لديهم

معرفة بالاتجاه الذي يتجهون إليه، فلكي يعرفوا إلى أين يذهبون يجب أن يعرفوا من أين جاؤوا، هنا الحاجة الملحة لإعادة تعريف أنفسهم، ولكي يركزوا على صورة أفريقيا المثمرة. ذلك أن أفريقيا الجديدة تجاهد لتأكيد حقها في الكلام عن أفريقيا، ولتقريب صورة أفريقيا قال«توم موبويه» : نحن لا نرغب فيمن يتحدث عنا ونعينه لذلك، بل تريد أفريقيا الحديث عن ذاتها.

وأول ما يجب تعلمه والذي يبدو سهلاً لكن ثبتت صعوبته للغربي، هو أن أفريقيا الجديدة تظهر للخارج، وأن العالم قد بدأ يسأل عنها، فإذا فشلنا في ملاحظة السائل سيجلبنا جميعاً إلى زمن خطر، وهذا ليس كلاماً مثالياً، فالدكتور«فيروارد» يؤكد أنه تحت ستار منطق«كبح» ثروة معدنية كبرى، نحتاج بسرعة لوضع أفريقيا بطريق التحصيل الاقتصادي ذاتي الاعتماد، فإذا كان سيحصل انفجار في جنوب أفريقيا فلن تصبح باقي أفريقيا كما هي مرة ثانية.

إن أفريقيا الجديدة التي أتكلم عنها هي التي انبثقت بوضوح بعد الحرب العالمية الثانية، وهذا لا يعني أنها لم تكن هناك قبل ذلك وحتى قبل الثلاثينيات وقبلها. في عام ١٩٠٦م أظهر «السيد كا - إيساكه» الشاب من«الزولو» بجنوب أفريقيا، وهو

يدرس في أمريكا درجة من الوعي، نميل اليوم لتحديدها فقط بأفريقيا الحديثة، نظير واحد من قادة أفريقيا بعباءة القومية الأفريقية في جنوب أفريقيا وهو يلقي محاضرة في جامعة كولومبيا التي نال فيها جائزته الأولى في«لورتيس ميدال أوريشنز» أي ما عنوانه«الجيل الجديد في أفريقيا» كانت لا تنسى لا بسبب إحساسه التاريخي الذي صاغها به، بل بسبب العواطف التي تضمنتها، والتي أصبحت اليوم شعاراً للقادة القوميين في أفريقيا. يتكلّم اليوم«نكوامي نكوامي» حول الشخصية الأفريقيا والحاجة للوحدة بهذه القارة؛ موجزاً كل ما تضمنه الوضع في مطلع القرن - العشرين - حين قال:

أنا أفريقي، أضع فخري بعرقي ضد كل عداء المجموع وآرائهم الجمعية، فالشعب الأفريقي رغم أنه ليس من عرق متجانس، يحتوي على مشاعر أساسية مشتركة تتجلى بكل مكان، وتتبلور في فكرة مشتركة عامة منضبطة... بإعادة النشء الأفريقي ليعني أن حضارة فريدة بأفكارها سوف تضاف قريباً للعالم... والمنطلق الأساسي لهذه الحضارة الجديدة هو أنها ستكون روحية حقاً وإنسانية.

من الصحيح أن الأفريقي الحديث قد أثبت وجوده بشكل وراثي أمكن الشعور به بعد الحرب العالمية الثانية، لأن الأحداث

المرعبة للحرب وظهور ضمير جديد بسببها في السياسة ساعدا في التركيز على الأفريقي، لأن الكثير منهم ممن كانوا يحفرون الخنادق في مجال القتال بشمال أفريقيا وأوروبا عادوا إلى بلادهم يتحدثون عن الديموقراطية بشكل مكثف فأظهر ذلك بوضوح - ربما للقوى الاستعمارية - أنَّ الحرب التي تُثار من أجل الديموقراطية، تجعل الأفريقي يحمل سلاحاً قوياً يمكنه استخدامه للتسوية مع القبضة الاستعمارية على أفريقيا.

وأكثر من ذلك، لن يكون سهلاً بالنسبة لشناعة الحرب لأي شخص (عدا الدكتور«مالان» في جنوب أفريقيا) أن يقف ويعلن تفوقه على سواه على أساس بيولوجي فقط، وحتى الدكتور«فيروردس» الذي غير بالتدريج تشديد كلماته من التفوق العرقي إلى مفهوم:«الحريات المنفصلة»، ففي ذلك الوقت على كل حال كان إحراج القوى الاستعمارية هو أن الأفارقة وقفوا ليعلنوا حكم أنفسهم بأنفسهم في أفريقيا، فبعد الحرب مباشرة يمكنك تذكر«الدكتور نكرومه» الذي كان يقود الشاطئ الذهبي الذي اسمه الآن«غانه» نحو الاستقلال والحكم الذاتي، فأيقظ الشباب المتلهفين في كل القارة للانتفاض متحدين السلاح والسجون ليقولوا للقوى الاستعمارية: اذهبوا إلى الجحيم. وهكذا ظهر مزاج جديد، ظهرت به أفريقيا حقيقة على مسرح الأحداث.

كيفية التعامل مع هذا الرجل الجديد أصبح أكبر مشكلة تواجه الغرب ففي جريدة«الديلي أكسبرس» ومحرروها في لندن، كان هناك من يتمنّى أن تكون أفريقيا الجديدة أقل مشاغبة، وأكثر دبلوماسية عموماً، وأقل قسوة في أحكامها وخطبها، فعندما أخبر«لوممبا» ملك«بلجيكا»، الأكثر طرشاً من سواه في العالم، أن الشعب«الكونغولي» لن ينسى المحن التي سببتها له«بلجيكا»، عضَّ الكثيرون على أسنانهم وتمنوا لو أن الرجل كان أقل صراحة. ذلك أنه لفهم ملك السهول هذا وهو يتكلم يجب أن نفهم بصورة ضرورية الغضب الذي يطوق قلوب الأفارقة، عندما يتذكرون عنجهية الحكام الاستعماريين، لدرجة أن الأكثر لباقة في أفريقيا الجديدة لن يقدر على تذكير الغرب سوى بالدمار الذي حل بالأفارقة.

ثم هناك من يريد الحديث باحترام، بدءاً من الذين«يسمون الأفارقة المعتدلين» مروراً بالذين يرتبطون بمجلة«التايمز» وأخواتها في النشر، ليظهر كيف أن على سلوك المستعمر أن يتغير دون أن يترك فكرة إمكان تعيين قادة أفارقة ثم فرضهم على الشعوب الأفريقية، فلا توجد طريقة لجعل رئيس دولة فاسداً أكثر من جعله بوقاً لإحدى القوى العالمية، لكي يكون الأفريقي الجديد مؤثراً يجب أن لا يتحالف مع أي من الكتلتين الكبريين، يجب تحصيله هويته الشخصية واحترامها، وهذا غير

ممكن لأولئك الأفارقة الذين ظلوا مرتبطين بالقوى الاستعمارية، وربما في الوقت الحاضر نستطيع جعل هذا غير ممكن من خلال الضرورات الاقتصادية، وهذا هو الذي يسعى إليه النضال الأفريقي من أجل الاستقلال، وعدم الانحياز أحد طرقه، كرسالة بها تنبيه لكل أمم العالم بأن أفريقيا لا تريد أن تكون بجيب أحد، وتسعى للحصول على هويتها الخاصة واحترام العالم.

بقي سؤال مهم حول الدور الاجتماعي تحت مسيرة الثورة وتغيراتها ودورها؟ ثم فترات إعادة البناء من الكُتاب، كما طرحها«سارتر» بشدة في مقابلة قريبة مع جريدة«لوموند» بالإجابة عن السؤال حول ما هو موقف الأدب من عالم جائع؟ فأجاب: إن الأدب كالأخلاق بحاجة لأن يكون عالمياً، لكي يضع الكاتب نفسه إلى جانب الأغلبية من مئتي مليون جائع، إذا كان يريد أن يحدث الجميع ويقرأ من الجميع، أما حين يشعر أنه بخدمة إمتيازات طبقية وشبيهها يصبح مبتزاً، أما لكي يجد الأدب الجمهور العريض فلديه طريقتان: الوحدة الآن للأدب لتثقيف الناس الذين قبلوا الكاتب السوفييتي، في بلاد تفتقر للقادة في أفريقيا. مثلاً كيف لكاتب نال ثقافته في أوروبا أن يرفض أن يكون أستاذاً حتى ولو على حساب مهنته إن فضل كتابة القصص في أوروبا، فسيبدو سلوكه عندي غادراً أو خيانياً.

أما بالنسبة للكاتب الأفريقي فمشكلته في كونه متداخلاً بثقافتين بصورة دائمة، فمعظمهم نال تدريبه على التقاليد الأدبية الأوروبية، وعاش وشارك ببعض المدركات الفلسفية المطروحة في أوروبا الحديثة، لدرجة أنهم أثناء أحاديثهم دون شعور منهم يتداخلهم شعور بالعزلة والاغتراب ونوع من اليأس الميتافيزيائي، وكلها لا تؤثر مباشرة على ملايين الجياع في أفريقيا، لكن يصبح الكاتب الأفريقي وكأنه لا يكتب عن أفريقيا الحالية، فيكتبون بشكل عام لمستمعين عموميين ونخب قليلة من الأفارقة المثقفين في بلدهم.

مع هذا يبدو «سارتر» مخطئاً إن جادل بهذا الأمر بأن اختيارهم لو كان موجهاً بقصصه للداخل ليسهم بأشياء عملية تتعلق بتطور المجتمع، فسيكون خائناً إلا إذا كانت لديه الموهبة في معرفة أفضل الأساليب لتطوير مجتمعه بأن يكتب ببساطة كل ما يعرفه. وحسب علمي عن «سارتر» فإنه كان يحتقر ذاته لأنه لم يكن رجل أفعال، وقد أوضح هو هذا بالمجلد الأول لسيرته الذاتية. مع ذلك إذا استطعنا تحليل الواقع في أفريقيا بشكل موضوعي يحتاج كثيراً من النقد، إن كل الشعراء والفنانين الذين يظلون بمعزل عن الإيمان والإحسان في لحظة تقديم نقد جيد للمجتمع الذي هم من أعضائه، تصبح كل قصصهم التي يكتبونها ليست من أجل الاتصال بأحد بل مجرد

طرق فنية لمعالجة جنونهم، كشيء لا يريد إبعاد أي نظام سياسي، وعلى كل حال إذا افترضنا أن أي فنان متمكن ممن تدرَّب على الموضوعية بأقل درجة، فإنه سيستخدم موضوعاته بشكل يجب أن يعكس مجتمعه، عندها سيصبح الكتاب أكثر أهمية في مجتمع يمر بتغير ثوري، حيث يزداد الإغراء ضد كل قمع للحقائق المرغوبة.

إن شخصية الفنان الذي يقف منعزلاً ليستجوب مجتمعه شخصية تعترف بأنها غريبة عن أفريقيا، فقبل أن نتكلم عن دور الشاعر اليوم في المجتمع الأفريقي، يجب إجراء مقارنة بين ما يمكن قبوله كدور للفنان في المجتمع الغربي وذاك المتوقع للفنان في المجتمع الأفريقي التقليدي، فلا يوجد ما يمكن ملاحظته الآن حول أي صراع بين الشاعر ومجتمعه في المجتمع الأفريقي التقليدي. وقيم الشاعر وأهدافه الاجتماعية لا يمكن رؤيتها بالضرورة منفصلة عن الصراع الذي يعيشه المجتمع كله، فوظيفة الشاعر كمهووس وحتى كفرد مجنون، أو كثائر للفضائل يهدد الواقع المشخص - كلها - غريبة أساساً عن التقاليد الأفريقيا في مفهوم دوره كشاعر.

في هذا المجتمع، الشاعر أو الفنان بصورة عامة هو للاحتفال بمجتمعه أو بنفسه بالشعور بالوجود (والمختلف عن الاحتفال برغد الحياة)، فهو لا يهدف إلى تغيير القيم الاجتماعية أو النظم

الأخلاقية، إن الفنان الأفريقي ليس مغترباً عن جماعته ولا عن عالم الطبيعة الذي يدعمه، كذلك التمييز بين العمل والتسلية عنده محدود، فالحدَّاد في قصة«كمارالايي» يستعمل جهده للإنتاج بقدر الشعور بالرضا، لأن للعمل طقوساً كثيرة لاتزال تعطي سعادة جمالية، فقد يكون كما يدعي البعض أن هذا بسبب كون المجتمعات الأفريقيا التقليدية لاتزال بدائية وأن كل: (الضمانات بأن المجتمع مع نخبه السياسية يعمل بصورة براغماتية سوف يخدم الخير العام الحاضر بداخل مجتمع فيه الأقلية من المرشدين الاجتماعيين - العلماء - الذين يظلون نسبياً أدنى من الناحية الثقافية من الشعراء والفنانين الذين رفضوا الاستغناء عن محور«الرومانطيقية» البدائية والأزمات الاجتماعية الدائمة سواء كانت دينية أم فكرية، ممن يقيسون كل سلوك بمعيار المطلق، فصار هذا معيار الإبداع الحقيقي للتعددية الاجتماعية، على العكس من الذي ينشأ من الاختلافات الطائفية) - كما ذكر -«كليردراكي» في مقاربة للتطور الاجتماعي الأفريقي، كما يراه«نيغرو» أمريكي، في أفريقيا الحاضرة. إن المجتمع في هذه الفترة قبل الصناعية من مراحل تطوره يبين السياق ذاته بين العمل والمكافآت الجمالية، وقد تم تبني هذا الرأي كثيراً لاستناده إلى الرأي القائل بتطور المجتمع من نظم اجتماعية متماثلة، ليتحرك بصورة دورية مع

مقدمة أوروبية بدلاً من تحرك المجتمع كشيء متوازٍ مع التطور، ومثل هذا الرأي هو الذي دفع«بهيغل» إلى التنكر للقارة الأفريقية، لأنه كان يفترض أن أفريقيا لم تدخل في تاريخ البشرية، مفترضاً إياها كجزء من الأحياء الحيوانية النباتية، والسؤال المسموح به هنا: عما إذا كان«هيغل» لديه نظام منهجي معد بشكل جيد لمعالجة المجتمعات الأفريقية.

أنا أعرف أن الأفارقة سينكرون بشدة عنيفة وجود قاعدة مشتركة للمقارنة بين أوروبا والمجتمعات الأفريقيا، وسيدعون بثقة مع دعوى السيد«سينغور» أنهم يمثلون أشكالاً اجتماعية مختلفة باختلاف وجهات نظر العالم، فالدور الذي يناط بالفنان الأفريقي في مجتمعه ينبثق من حقيقة افتراض اختلاف ميتافيزيائي بين هذا المجتمع بكل آرائه عن الإنسان والطبيعة وطبيعة الفن والهدف من الحياة، أما الذين يجادلون دوماً بأن المجتمع الأفريقي التقليدي متدين، لكن لتدينه معنى خاص، فأفترضه وحدة في تناقضات في كون متجانس، فقد شهد البروفسور«دبل يو إي ابراهام» بأنه لا يوجد تمييز صارخ بين الزمني واللازمني في الكون، ولا بين الروحي والمادي، فنوع التمييز الذي شكَّل أوروبا بشكل ميتافيزيائي لعدة قرون وسبَّب احتقاراً للحواس فتح الشهية بشكل متدنٍ يحتاج إلى تنقية، ففي مجتمعاتنا التي تصنع أهمية للفنان يبدو فيها ذلك واضحاً، خاصة حين نتذكر المركز المتراجع الذي تراجع

الفن إليه في أوروبا بسبب ربطه بعواطف جياشة، فلكي يستعيد الفنانون بعض كرامتهم في أوروبا لعبوا دور الفلاسفة لجلب الروح للعالم بصيغها الروحية وبضدها.

وبكل اعتبار حين نرى دور الشاعر في أفريقيا اليوم في المجتمعات الأفريقية التي تخضع لتغيرات هائلة - كما عند هربرت ماركوس في«الجنس والحضارة، نيويورك»، علينا أن نسأل أنفسنا إلى متى ستتحمل هذه القيم الذاتية الأفريقيا الطعنات الأوروبية التي تؤكد أن الكتاب والفنانين الآفارقة بحاجة للتعلم، وعلى سبيل المثال: طروحات«سارتر» التي ذكرتها ليست فقط غير ملائمة بل حمقاء ولا تستأهل الرد، مع إقرارنا بأن هناك عمليات تدمير للتراث في مناطق كثيرة في أفريقيا من قبل الإمبريالية الأوروبية وأتباعها من الأفارقة المتمسكنين، الذين ينسفون دور الشاعر والفنان الأفريقي في المجتمع.

إن تغيير النظام الاجتماعي أولاً أنتج تضخيماً في دور الفرد بدل المجموع، ولهذا استبدلت الاحتفالية الجمعية بإبداعات فنية فردية من خلال رؤى فردية، فصار الفنان الأفريقي يواجه جماعته لأول مرة كفرد، وحتى كفرد مغترب رؤاه لا تتلاءم مع حالة الناس ولا مع السياسة ولا القيادات الدينية، وبهذا صارت العلاقة بين الفنان ومجتمعه علاقة مواجهة، وحتى علاقة غربة فردية، وهكذا

صارت العلاقة بينهما إشكالية (ورواية مونغوبيتي خير برهان) فلم يعد الفنان يبدع بين السياسي والاقتصادي ككائن منفصل عنهما، لذلك نرى اليوم رقابة تقع على المجتمعات الأفريقية، وخير عبارة لها:«خارجية» تعارض الرقابة الذاتية التي كانت دائماً موجودة في أفريقيا، فبدأ الانشقاق -الشق -بين المُشرِّع والشاعر.

بينما كانا في كل مكان في شخص فرد واحد هو الرجل نفسه مثل:«سنغور» رئيس جمهورية السنغال، كواحد من أفضل شعراء اللغة الفرنسية، وهكذا أظهر السيد«سنغور» انفصالاً في الشخصية عندما أصدر قانوناً، كفنان، يمنع التعبير الحر المتحيز للشخصية الأفريقية، بينما يسعى بكل طاقته كمسؤول لتضمين الأخلاق«البيوريتانية» وزرعها في شعبه لكي يجلب عصر الآلة لأفريقيا، ولكي يبرر نفسه من الآن فصاعداً قرر أن على المواطن الأفريقي مثل نظيره الأوروبي والأمريكي، أن يعتبر أولاً وقبل كل شيء مجرد وحدة صناعية تنتج بضائع تجارية في كل ساعة، ولن يمضي وقت قبل أن يخبره أن عليه العمل من أجل العمل بحد ذاته.

فبدلاً من جعل هذا عبثاً، يصبح الوضع في الدول النامية بالنسبة لمهمة الكاتب أكثر إثارة وبصورة ما أكثر تعقيداً، فالأدب الجيد كان دوماً وسيلة تعليم وتثقيف للناس في العالم الخارجي،

وإلى دفعهم للتلاؤم مع الوحدة الموجودة في كل حياة نعيشها: بلحظات الحب والموت، ومواجهة الإنسان لكل إنكار لوجود الله.

في أوروبا يحاولون وضع الحياة بخدمة بعض الأفكار الكبرى، فهم مثل «بيكت» يكتشفون نتيجة ذلك المدركات اليائسة، ولهذا تسخر كل تنوعات الحياة الإنسانية لإثبات صلاحية فكرة واحدة، وقد ذهب هذا الخيار إلى حد الخوف، لذلك على القوى الاجتماعية في البلاد النامية إجبار الكاتب على فرض التوازن بين الحياة كما يجب أن تعاش، والحياة الميتافيزيائية والثقافية اللتين تشكلان صيغ التعابير الفنية، لكي يستجيب الكاتب ويضغط على مشاكل النظم الاجتماعية بشكل فعال.

أما بالنسبة لي فيجب على البنية الأدبية تزويد الجو العام بالحياة، بمعنى كل تلك العواطف التي تلحمنا ببعضنا في تعاطف إنساني عظيم، فهدف العمل الأدبي بكل سموه أخلاقي في إصراره على القيم الجمالية حين اختيار أصولها بالعالم عبر الحواس، وسيفشل الشعر إذا تنكَّر لآليته الرئيسية التي تجعلنا ندرك حواسنا ونختبرها أكثر. على الشعر أن يضخم حواسنا وإمكاناتنا في التعاطف مع أهداف حسية، فلا يوجد أي تبرير لترك شعار مثل: «الشخصية الأفريقية» إذا كان أساس أدائه ليس زيادة الحرية لنا وللذين يتصلون بنا وتلقائيتهم معنا الفعلية.

لقد طرحت الشق بين السود والبيض لأمتين بسبب التاريخ الاستعماري العرضي، واقترحت أنه من مدة طويلة أنكر البيض إنسانية السود، وسبب هذا بوضوح؛ هو: إنكار الغربيين لإنسانيتهم بأنفسهم، فلا يقدر الرجل الأسود بهذا إلا أن يهدد شعور الأوروبي بالأمن من تحت غطاء القول:

كل الناس يرقصون على آثار بعضهم

والسبب بربرية إنذارات طوائفهم

أحبابنا كثر من الذين يضعوننا بالكتب وبأفلام السينما كرموز هناك لضياعهم الشخصي، ويبدو لي أن الكتاب«النيغرو» الذين يعيشون في المجتمعات الغربية، ويكتبون من جمهور مختلط عرقياً، يساعدون البيض على اختبار السود بعمق أكثر ومباشر بإظهار أنفسهم لقرائهم كبشر، وظيفتهم إظهار جغرافيتنا الداخلية للعالم ولأنفسنا، وهذا ما يمكن أن نسأل كتابنا فعله.

وعلى العموم أميل إلى القول: إنَّ على الأفارقة أن لا يقبلوا الحلول والنصائح التي تقدمها الشيوعية في الاتحاد السوفييتي، والتي يبدو أن السيد«سارتر» يوافق عليها، لأن من الخطر دائماً على الشخص الإنساني تسخيره لخدمة أهداف سياسية[1]، أما

---

(١) فيتحول الإنسان من غاية بحد ذاته إلى وسيلة لتحقيق غايات أفكار أناس آخرين، وهذا ما يجمع الفلاسفة على تسميته بالغربة عن الذات والتشيء الإيديولوجي.

بالنسبة لأولئك الكتاب الذين يشعرون أنهم بحاجة إلى موقف سياسي، فيمكنهم أن يفعلوا ما فعله«سارتر» باقتراحه عليهم التنكر للأدب مؤقتاً، وإني لأميل إلى نقل هذه النصيحة للعديد من سود جنوب أفريقيا، فوضعهم سيكون أفضل باختيار صيغ أكثر أمانة«للبروباغندا» - الدعائية - المكتوبة على قصاصات، فإذا كانوا موهوبين بصورة رئيسية مثل«جيمس بلودوين» الذي أثبت ذاته بأدب جيد يحتاج إلى ممارسة وتمرين، أجرؤ على القول: إن عواطف (نعمة النار بالمرة القادمة) من الصعب جعلها الآن سهلة على الدعاية - البروباغندا - على الكاتب الأسود، وعلى كل حال لا يوجد أفضل من الرد على«سارتر» مما قاله«بيتر فيريسك» ولأنقل عنه:

- لا توجد إشارة فنية مهما كانت قريبة من الذات دون أن تكون تحقيقاً لفعل سياسي وأخلاقي، وقد لاحظ السوفييت هذا الأمر عكسياً، فأدانوا الشعر الغنائي«لأخماتوفا» و«باستيرناك» لجريمتهما بالتعبير عن مشاعر ذاتية بالحب والوحدة، فمثل هذه المشاعر يجب رفضها ورميها بجانب الذين يجمعون«المثاليات اليوتيوبية»، فأيّ عمل فني يعبر عن الأخلاق والجمال والحب من خلال الفردية الإنسانية الأصيلة،

هو لأجل هذا ضربة ضد الطغيان،«سواء كان شيوعياً فاشياً أو محلياً بالرقابة الأمريكية». لأنه يلهم بما وراء الدعاية - البروباغندا - فيلائم الآنية لمظاهر الأشياء الحقيقية الدائمة.

ويبدو لي بهذا الفوران الحار لأجواء التغير وقوة تحصيله التي قد تجبر الجماهير على فعل أشياء محددة، يصبح الواجب المقدس للأدب إعلان أولوية قيمة الحياة فوق كل الأفكار[1].

(١) هذا بحث فلسفي راق بكل ما في الكلمة من معنى.

الباب الثالث

دراما

- المقطع السابع من: رباط القرابة   آثول فوغارد

المقطع السابع من: رباط القرابة[1]

آثـول فوغـارد

إن شخصيتي هذه المسرحية الروائية،«موريس - وزكريـا»، وهما ابنان لأم ملونة («. ... تلك المرأة العجوز التـي تراقبنـا»). كـان مـوريس فـاتح البـشرة، فقـد اسـتطاع أن«يمـر» إلى عـالم البيض، وكان متعلماً بعيد النظر محباً لأنجيله وساعة منبهه، بينما زكريا داكن البشرة عفوي مـنغمس بالـشهوات الحسية ملحـاح في حياته الآنية. ومكان هذا المشهد هو كوخهما الذي يطـل عـلى

(١) سوسيودراما تثبت تساوي الأعراق.

انظـر شرح سـيكودراما في موسـوعة علـم الـنفس، وزارة الثقافـة، بدمشق. وهو أسلوب متبع في علم النفس الاجتماعي بتبادل الأدوار بـين مختلفـين بـأسرة واحـدة، حيـث يقلـد كـل شـخص دور خـصمه فيظهر لـه قبـل سـواه نقـاط ضـعفه قبـل إدانتـه أمـام المحلـل النفـسي، وشاعت«السوسيودراما» بالمسرحيات الدرامية والهزلية أيضاً.

بحيرة تحتوي على مياه مبتذلة من مصنع. لقد كان موريس يعتني بالبيت، ويدّخر للمستقبل، يقدس الحوار والأعمال الروتينية والحب الأخوي بينما زكريا يحضر قوتهما وطعامهما.

نظام حياتهما هذا كان قبل سنة من إعلان زكريا حاجته لامرأة فأقنعه موريس أن يوطد صداقة بالمراسلة عن طريق الصحيفة. ولكن إيثيل لانج التي وقع عليها الاختيار وكان عمرها ثمانية عشر عاماً سرعان ما أثارت مشكلة، إذ أرسلت صورة فوتوغرافية ليتبين أنها بيضاء، كما أنها أعلنت عزمها على زيارة مراسلها. واتفق الأخوان على أن يتنكر موريس بأنه هو الذي يراسلها ويلتقي بها، فبذرا مدخراتهما التي جمعاها «للمستقبل» على الثياب، على أن تكون هذه الثياب تليق برجل أبيض. وعندما قام بالتدرب على هذا الدور وجد أنه بالإضافة إلى الثياب عليه أيضاً يؤدي توجهات الرجل الأبيض، فطلب من زكريا إجابته عن موقف الرجل الأسود تجاه الرجل الأبيض.

المشهد التالي هو السابع والأخير من هذه المسرحية الروائية.

المشهد IIV:

هذه هي المرة الأولى التي لا تكون فيها الغرفة مرتبة. فالأسِرَّة غير موضبة والطاولة تملؤها الفوضى، وأرض المنزل

تتبعثر عليها خيوط وأسلاك وأغلفة من علب ليلة أمس. وموريس وحيد يجلس دون حراك خلف الطاولة ورأسه يتدلى على صدره ويداه تترنحان على جانبيه. وهناك رزمة على الطاولة، ثم يدخل زكريا، ويتصرف كالمعتاد، فيذهب إلى سريره مباشرة ويخلع حذاءه. عندها أدرك وجود خطأ ما. فمغطس الرجلين لم يكن مجهزاً.

زكريا: ما هذا؟ [مفتشاً عن طست الماء] ألا يوجد أملاح للرجلين؟ الجحيم يا رجل! ألا يمكنك أن تدرك هذا؟ ماذا عليَّ أن أفعل الآن؟ فقدماي تقتلاني من الألم. كنت أقف عليهما طوال النهار، أنت تعلم ذلك. [ثم لمس أصابعه] آخ! آخ! انسَ أمر الأملاح، أعطني فقط بعض الماء الساخن. سيتحسن بالنقع. [موريس لا يتحرك] بعض الماء الساخن، موريس! من فضلك! [ولا يحدث شيء] من أمرك؟ لا تقل لي أن الموقد لا يعمل! [يذهب لناحية الموقد ويلمس غلاية الماء] كلا يا رجل! بحق الجحيم ماذا يحدث؟ رجل يعمل طوال النهار وقدماه مجهدتان ثم يأتي إلى المنزل ويجد هذا [مشيراً إلى الموقد]... وهذا [مشيراً إلى الغرفة]. أرض المنزل غير مكنوسة! الأسرّة غير موضبة! [ثم بدأ يدرك] يحصل شيء غير صحيح هنا. أنت لا تقول شيئاً [وبجهد كبير حاول موريس إيجاد كلمة لكنه فشل فألقى بكتفيه إشارة الاستسلام والهزيمة.] أنت تقصد... [غير

مـصدق].... أنـت تقـصد أنـه لـيس لـديك مـا تـتكلم عنـه؟ [ضـحكة قـصيرة خفتـت بـسرعة] كـلا! هـذا لـيس مـضحكاً، حاول أن تقول شيئاً، موريس، مـن فـضلك [بيـأس] حـاول أن تخبرني ماذا حدث، ماذا حدث؟

موريس: لقد استسلمت.

زكريا: ماذا؟

موريس: أعني، لا أستطيع الاستمرار.

زكريا: أوه، إذاً أنت توقفت.

موريس: نعم.

زكريا: ولكن لا يمكن أن يحدث هذا! بالتأكيد لا! فالإنسان لا يمكنـه التوقـف هكـذا، كـما فعلـت. هـذا لـيس جيـداً عـلى الإطـلاق، لأنـه... عليـك معرفـة الـسبب، فالإنـسان يجـب أن يستمر، إلى أبعد حد. وإلا من سيكنس الأرض؟ نعم. ألم تفكـر بهـذا؟ إذا استـسلم كـل واحـد منـا وجلـس ولم يـستطع المـضي بالقيام بأي شيء... أنا على البوابة... أنت هنا... لماذا، عندها لا شيء يحدث. أليس هذا صحيحاً؟ سنسقط الواحـد تلـو الآخـر ولـن يحدث شيء. ولكننا جميعاً نعلم أن شيئاً ما يجب أن يحـدث. هـذا هـو البرهـان، ألـيس كـذلك؟ علينـا أن نـستمر. هـل أنـت موافق؟ أتشعر بتحسن؟ [ينظر ويرى الرزمة على الطاولة لأول مرة] ما هذه الرزمة، موري؟

موريس: أمتعتي.

زكريا: ماذا بداخلها؟

موريس: إنجليلي، وقميصي الآخر والمنبه.

زكريا: وماذا تعمل أمتعتك هنا؟

موريس: كنت راحلاً، زاك.

زاك: راحلاً؟

موريس: ذاهب.

زكريا: إلى أين؟

موريس: إلى الطريق، أينما تأخذني.

زكريا: أوه [صمت قصير] وماذا عني؟

موريس: أعلم، أعلم.

زكريا: ولكنك لا تهتم؟

موريس: إنني حقاً أهتم، زاك!

زكريا: [متجاهلاً نكرانه]: إنها لفتة جميلة من أخ محب. أنا متفاجئ بك. بالواقع أنا مصدوم.

موريس: توقف زاك! أنا لا أزال هنا، وأنا أدرك أنه لا يمكنني الذهاب. ولكن في الصباح عندما كنتَ في عملك أمعنت التفكير ووجدت أن لا فائدة من ذلك، ليس بعد الآن،

ليس لدينا مستقبل هنا. ولهذا حزمت إنجيلي ومنبهي داخل قميصي وكتبت لك ورقة وداع. أربع صفحات شرحت فيها كل شيء. لقد كنتُ على وشك الرحيل.... عندما تذكرت أنك لا تقرأ. يا إلهي لقد آلمني هذا! لقد جرحني في العمق! زاك لا يمكنه القراءة. وأنا لست هنا! [صمت قصير.] ولهذا كما ترى، فإنني أعلم بأنه لا يمكنني الذهاب... لكنني استسلمت.

زكريا: هيا، ابتهج. الأمر ليس بهذا السوء.

موريس: لا أستطيع، زاك. بصدق لا أستطيع أكثر من هذا.

زكريا: لكن عندي لك مفاجأة.

موريس: عليها أن تكون حقاً جيدة حتى تصنع الفرق.

زكريا: أليست مفاجأة جيدة إن كانت رسالة من إيثيل؟

موريس: اللعنة، كلا ليست جيدة! لقد فاتك ما أنا عليه. ألا ترى يا رجل! كل اللوم يقع عليها. [يُخرج زكريا الرسالة] لا أريدها خذها بعيداً.

زكريا [واضعاً الرسالة على الطاولة حيث يمكن لموريس رؤيتها]: إنها ليست لي لقد أعطيتها لك.

موريس: كان كل شيء على ما يرام. لحين قدومها.

زكريا: لم تأت بعد.

موريس: ماذا تعني؟

زكريا: هيا، لقد فاتتك المسألة. فمجيء إيثيل هو المسألة. صحيح أنها لم تأتِ بعد، ولكن يمكن أن تكون في طريقها. أقصد... يمكن أن تأتي في حزيران. ألا يمكن هذا؟ في أي شهر نحن؟ لقد قالت في حزيران. هذا ما أقوله. من المحتمل أن تكون في القطار الآن بطريقها إلى هنا وسيكون يوماً جميلاً، أتعرف ماذا؟ احزر.

موريس: ماذا؟

زكريا: هناك من جديد قرع على الباب، ولكن لن يكون أنا، وكما ترى لو كنت مكانك، ومن أجل الاطمئنان طبعاً، سأختلس نظرة سريعة إلى الرسالة.

[يذهب زكريا إلى سريره، ويقف موريس لثانية متردداً ثم يتناول الرسالة، يفتحها ويبدأ يقرأ بصمت. وعندما ينتهي من قراءتها يضعها جانباً وينظر إلى زكريا نظرة خالية من أي تعبير.]

زكريا [غير قادر على كبح نفسه]: إنها آتية! دعني أحزر. إنها بالقطار، وفي طريقها إلى هنا، إنه شهر حزيران. أين ستلتقون يا رجل؟ ماذا قالت؟ أخبرني، موريس.

موريس: كلا. إنها ليست قادمة، ولن تأتي أبداً. واستعد لسماع الأخبار الجيّدة. لقد رحلت إيثيل، فهي مخطوبة وستتزوج من الرجل المحظوظ ستوفل.

زكريا: كلا.

موريس: نعم.

زكريا: كلا.

موريس: هذه هي الحقيقة.

زكريا: كلا!

موريس: إذاً فاسمع [يقرأ]: «عزيزي صديق المراسلة، ما سأخبرك به سيكون حزيناً لك وجيداً لي. فقد قررت الزواج وقد وافقت أمي، أما الرجل المحظوظ فهو ستوفل، الذي يلعب الظهير بفريق أخي. إنها قصة طويلة. فلقد اعتقدت لوسي أنه أصبح لها ولكنها لم تستطع، ولهذا السبب لم نعد نتكلم مع بعض. ستوفل يعمل في كاراج بآوتب، وهو لا يحب المنافسة فطلب مني التوقف عن مراسلتك إذا كنا سنتزوج. إنه يجلس بجانبي الآن ويقول لي أن أكتب هذا! اترك امرأتي لوحدها إن كنت تعلم ما هو جيد لك. هذا ما قاله ستوفل. إنه شخص لا بأس به. حسناً يا صديقي هذا كل شيء حتى الآن. الوداع. إيثيل» [صمت قصير.] وتقول في أسفل الصفحة: «يمكنك الاحتفاظ بصورتي الفوتوغرافية للذكرى».

[ينظر موريس إلى زكريا من دون أي تعبير، بينما تتصلب نظرة زكريا مع خيبة أمل مريرة.]

زكريا: إذاً؟

موريس: إذاً، أعتقد أنه يمكننا البدء من جديد.

زكريا: ماذا؟

موريس: هذا سؤال جيد. [صمت قصير.] دعنا نرسم خطة. أين نحن الآن؟ هنا. إنها بداية جيدة. وما هذه؟ غرفتنا. أنا وأنت، موريس وزاك.... نعيش هنا.... بسلام. نعم. زاك أشعر بأنني ممتلئ من جديد بالأفكار وأشياء أخرى. نحن نعيش هنا بسلام لأن المشكلة انتهت.... وهي مخطوبة وستتزوج...... وأنا موريس.... كنت سأرحل، لكنني الآن سأبقى! [وعاد إليه شيء من موريس القديم، ويبدأ العمل. يفتح صرته ويخرج أمتعته.] يا زاك! [حاملاً الساعة إلى الأعلى] لقد توقفت. مثل. ما الوقت الذي سنحدده لها؟ العشاء؟

زكريا: أنا لست جائعاً.

موريس: وقت النوم؟

زكريا: لا أريد النوم.

موريس: إذاً لما بعد العشاء، ولنقل أننا أكلنا.

زكريا: يمكنك قول أي شيء تحب.

موريس: ما بك زاك؟ لا أحب أن أراك هكذا.... بهذا الشكل، هيا أخبرني ما بك. لقد ساعدتك من قبل، أليس كذلك؟

زكريا [قائلاً ببطء]: هل سترتدي البدلة من جديد؟

موريس: فهمت الآن. زاك انظر إلي. بقدسية هذا الإنجيل، أعدك أنني لن أفعل ذلك.

زكريا: هذه هي.

موريس: ماذا؟

زكريا [بخبث]: لقد بدوت أنيقاً إلى أقصى حد في تلك البذلة، موري، جعلتني بحالة جيدة.

موريس: أحقاً تعني ذلك!

زكريا: أقسم على ذلك.

موريس: أتقصد أنك تريدني أن أرتديها؟

زكريا: نعم أريد ذلك.

موريس: كن صادقاً الآن، زاك. إن ما تقوله هو أنك تحب أن أرتديها؟

زكريا [مؤكِّداً]: الآن.

موريس: الآن! إنها مفاجأة، زاك. ولكن إن كنتَ حقاً تقول أن ذلك سيشعرك بالتحسن... حسناً... هذا ما يجعل القيام بها من واجبي، أليس كذلك؟ [ثم يتحرك باتجاه البذلة] لقد كانت حقاً صفقة جيدة مع إيثيل أو من دون إيثيل. في الواقع سأجربها.

زكريا: إذاً، ضعها عليك.

موريس: عليك أن تساعدني. إن ارتداءها ليس سهلاً الآن... وبعد ما جرى ليلة أمس. قل شيئاً لتساعدني.

زكريا: بالنسبة لقياسها لم يحصل أي تغير، مازلنا نحن إخوة. لقد رحلت هي من غير رجعة.. ونحن الآن نقوم بدور مختلف في اللعبة.

موريس: فقط تلهو بالسوسيودراما(١)! طبعاً! هذا ما سأقوم به [وارتدى موريس بدلته وهو يضحك. وعندما انتهى مشى في الغرفة بأسلوب مبالغ فيه، وكان زكريا يشجعه على ذلك].

زكريا: فقد أُلقي نظرة، إنك ترقيت هذه الليلة إلى الأعلى!

[يتوقف موريس، ويستدير فجأة]

موريس: أيها الشاب الأسمر! [ثم لحظة صمت، ومن ثم يضحك زكريا ضحكة رنانة] لم تقع أية إساءة الآن، يا زاك؟

زكريا: لا، لا إزعاج.

موريس: هذه هي الطريقة لفهم نكتة. [من جديد] أيها الشاب الأسمر!

زكريا [يلعب بالكلمات بموازاة ما قاله أخوه]: أنت أيها السيد؟

---

(١) هي تبادل الأدوار بين شخصين لكشف الحقيقة.

موريس: من أنت؟

زكريا: أنا خادمك زاك أيها السيد.

موريس: ومن أنا؟

زكريا: سيدي موري، سيدي.

موريس: السيد موري وخادمه زاك! يا إلهي إنك مضحك، بحق الجحيم من أين أتيت بهذه الدعابة، زاك؟

زكريا: من عند البوابة.

موريس: إذاً، هذا ما هو عليه.

زكريا: الجميع هناك يرتدون بأناقة، مثلك تماماً، ويتجولون. أبداً جربها.

موريس: ماذا؟

زكريا: امشِ.

موريس: أتريد القيام بالدور؟

زكريا: ولمَ لا؟

موريس: لم أرَ البوابة من قبل، زاك. من الصعب القيام بلعب شيء لم تره من قبل.

زكريا: سأريك. إنها هنا [وقام بإشارة غير واضحة] هذه هي البوابة هنا.

موريس: ماذا يوجد من الجهة الأخرى؟

زكريا: أيهمك هذا؟

موريس: بالطبع إذا أردنا أن نقوم بلعب هذا بطريقة صحيحة.

زكريا [ينظر إلى الخلف]: أشجار.

موريس: آه. أشجار عالية وخلالها متنزهات.

زكريا: عشب.

موريس: أخضر، هيا! وكأنه الربيع.

زكريا: أزهار عليها فراشات.

موريس: إنها لمسة جميلة.

زكريا: ومقاعد.

موريس: هذه فكرة اهتمّ بها! إنني بحاجة للراحة.

زكريا: وأنا سأجلس القرفصاء هنا.

موريس: حسناً. وستفتح لي البوابة عند وصولي.

زكريا: كلا. إنها مفتوحة. أنا أراقب جزمتك فقط عندما تسير.

موريس: إذاً، ما هي مهمتك عند البوابة؟

زكريا [يصمت قليلاً]: لقد وضعوني هناك كي أطارد الأولاد السود بعيداً.

[موريس يتردد].

موريس: هل أنت متأكد أنه علينا القيام بهذا الدور السوسيودرامي؟

زكريا: إنها مجرد لعبة. تقدم إلى الأمام.

[يلوح موريس «وهي حركة مسرحية للتباهي» بمظلته ويمشي ببطء باتجاه زكريا].

موريس: يا للعار! جون، إلى ذلك الصبي المسكين؟ ماذا تفعل...؟

زكريا [يقاطعه]: كلا، موري.

موريس: بماذا أخطأت؟

زكريا: السادة البيض لا يكلمونني على الإطلاق. ابدأ من جديد. [فيحاول من جديد، ولم يتكلم هذه المرة بل تظاهر أنه أخرج عملة معدنية من جيبه وقدمها إلى زكريا] ما مقدارها؟

موريس: نصف كراون.

زكريا: ماذا؟

موريس: شيلينغ.

زكريا: هذا كثير أيضاً.

موريس: ست بنات. [لايزال زكريا متردداً] حسناً إذاً بَنس واحد.

زكريا: هذا أفضل بقليل، ولكن...

موريس: ولكن ماذا؟

زكريا: أتعتقد أنك من الصنف الأبيض اللطيف، أعطني البَنس هكذا.

موريس: وما الخطأ أن أكون من النوع اللطيف؟ يمكنك الالتقاء بهم.

زكريا: أعلم ذلك. ولكن ليس أنت. ليس وهم يرتدون الجزمة، أبداً لن يكونوا كذلك مع الجزمة. هذا النوع لا يراني أبداً. لذا لا تتوقف. فقط تجاوزني.

[أعيد تمثيل الدور بصمت بطريقة الحركات الجسدية. فيخطو هذه المرة موريس متجاوزاً زكريا].

موريس: والآن ماذا؟

زكريا: لديَّ فكرة. أنا أجلس هنا القرفصاء، أراقبك وأفكر.

موريس: حسناً!

زكريا: حقير.

موريس: من؟

زكريا: لا تفسد اللعبة أيها الرجل! أنت لن تسمعني، إنني أفكر.

[ويضرب جبينه ضرباً خفيفاً].

موريس [ينظر إلى البعيد عابساً]: أكمل.

زكريا: هذا كل شيء.

موريس: فقط...؟

زكريا: فقط حقير.

موريس: ماذا سيحدث الآن؟

زكريا: أنا أراقبك، ولكنك تنظر عالياً إلى الشجر، تذكّر؟

موريس: نعم، طبعاً. إنها شجرة عالية. إني أتساءل إن كنت قد رأيت شجرة بهذا الطول من قبل. يوجد أيضاً على أغصانها كمية كبيرة من العصافير... وبالواقع أجد صعوبة في إبقاء تفكيري عالياً على الشجرة بينما أنت خلفي. إنني أشعر بوجودك. ولهذا أعتقد أنني سأستمر بالمشي. وكما ترى لقد أزعجتني وأنا أمر. هي لحظات قليلة لأمير المكان، كما تعلم، من النظرة الأولى وهذا كل شيء. لهذا سأسير في هذا الطريق. أعني... عليَّ أن أُعجب بالجمال، أليس كذلك؟ نعم. إنه طريق جيّد. إنه مكان لأنطلق منه، فمن أمامي أستطيع رؤية السماء.

إنني أراها من بين الأشجار. أعني... إن عليَّ تسلق التلة من هذه الطريق، فبيننا أميال، وأخيراً تمتد الآن أمامي السماء كبيرة زرقاء، فأُسرعُ صاعداً إلى القمة، فأستدير هنا وأنظر إليك... وستكون الآن بعيداً عني ومن ورائي، بعيداً خارج البوابة. أيمكنك أن تراني؟

زكريا: قليلاً.

موريس: كيف يمكنك رؤيتي من هذه المسافة، ومن خلف الأشجار، وفوق التلة، وباتجاه السماء؟

زكريا: ألا يمكن أن يكون رجلاً...؟

موريس: رجل أبيض! ألا ترى طريقة وقوفي؟ ألا ترى كيف استدرت ونظرت إليك. هل مضى كل هذا ونسيتُها؟ بماذا تفكر الآن؟

زكريا: إنه حقير.

موريس [غير مهتم ولا مبالٍ في عليائه]: حسناً، لست مهتماً. إنني الآن بعيد جداً لأرى عينيك. في الحقيقة، أنا حر تقريباً... لأن النزول عن التلة يكون دائماً أسهل! الآن أستطيع الركض، فأدير ظهري وأذهب وأنا أضحك فوق عشب الربيع الأخضر بين الأزهار والفراشات. ماذا سأقول؟ ماذا سأصرخ؟ لقد تغيرت! انظر إليّ أرجوك! أنا أيضاً سأطير من الظلام إلى الضوء دون أن

أحرق جناحيّ. [صمت قصير] والآن تعبت. فبعد هذه السنين أصبح الجمال عبثاً. إنني بحاجة إلى الراحة. [يجلس] آه يا عزيزي، أنت حقاً عزيزي. [يأتي زكريا بمحاذاته، وينحني إلى الأسفل ويحاكي مقلّداً في يدٍ كيس يتدلى، أما في اليد الأخرى فيشك الأوراق بعصاه. موريس يراقبه باهتمام]. ما هذا الذي تقوم به؟

زكريا: ألتقط النفايات. فلدي عصا وفي نهايتها مسمار. عند الساعة الرابعة بعد ظهر كل يوم أجول بين الأشجار وحول المقاعد وألتقط الأوراق والقشور.

موريس: ظننت أنني تركتك خلفي.

زكريا: أعلم.

موريس: رؤيتك أثّرت بي، أيها الرجل الأسمر.

زكريا [مستمراً في المحاكاة]: أشعر أنها أثّرت بك.

موريس: إنه شيء مثير للاهتمام لمشاعري مجرد النظر إليك حول. لست بحاجة لحواسي الأخرى. فقط النظر، ولا حتى الشم. فقط النظر إليك تزحف هناك مثل... مثل شيء... يجعلني أتقيأ.

زكريا: أهكذا؟

موريس [واقفاً]: في الحقيقة أحب أن... [يتوقف عن الكلام متعمداً].

زكريا: تابع.

موريس [وهو يمشي]: لا أستطيع.

زكريا: حاول.

موريس: إني أقول لك لا أستطيع.

زكريا: لماذا؟

موريس: تلك المرأة العجوز تراقبنا. [يقف زكريا وينظر بتساؤل إلى موريس] هناك [مشيراً].

زكريا: عجوز بشكل رهيب.

زكريا: وحدها؟

موريس: وحدها مع نفسها.

زكريا: أهي تراقبنا؟

موريس: كل الوقت. [يفقد صبره] ألا تستطيع أن ترى! إنها ترتدي كل نهار أحد ثوباً رمادياً.

زكريا [يبدأ يدرك]: رغوة الصابون...

موريس: ... على أيد بنية.

زكريا: ورجلان متقرّحتان! والأصابع ملتوية.

موريس: وبحزن، كانت تتبعني كل النهار، وكل الطريق، طريق طويلة لا تنتهي... تتسول!

زكريا: نادِ الشرطة.

موريس: لا، لا، ليس هذا.

زكريا: إذاً ماذا سنفعل؟

موريس: دعنا نستنبط شيئاً غير هذا. لا نستطيع المضي بهذا وهي تراقبنا... خلف تلك الشجيرة... مثل جاسوسة مسنة.

زكريا: إذاً، عليها أن ترحل.

موريس: أنا أعتقد هذا أيضاً. [يخطو باتجاه المرأة العجوز] ارحلي.

زكريا: هل تحركت؟

موريس: كلا. [يحاول مرة أخرى] اذهبي بعيداً أيتها العجوز! ارحلي! اذهبي إلى بيتك! [يتنهد] لا فائدة من ذلك.

زكريا [محاولاً أن يفزعها] : هووو!

موريس: قفزة أخرى. [ينزل زكريا على يديه وينحني] ماذا تفعل؟

زكريا: حجارة.

موريس: هووو! لقد سمعتكَ. وهرولت لمسافة قصيرة. ولكن لن تستعملها أليس كذلك؟

زكريا: إنها الطريقة الوحيدة. [يرمي].

موريس: تقريباً [يرمي زكريا من جديد] لقد قفزت!

زكريا: متشردة.

موريس: نعم. أيتها المتشردة ارحلي بعيداً! لا نريدك!

زكريا: بعيداً أيتها المتشردة!

موريس: أنت عاهرة عجوز! تجعلين الحياة لا تطاق!

زكريا [يبدأ من جديد وبعنف رمي الحجارة]: ها مبا!

موريس: إنها تركض الآن.

زكريا: اذهبي بعيداً!

موريس: امرأة من الكافيرز.

زكريا: سوداء.

موريس: لقد أصبتها... انظر!

زكريا: انظر إلى تلك السيقان الهرمة المروّعة.

موريس [تصل سخريتهما إلى الذروة، فيهزّ موريس مظلته باتجاهها، أما زكريا فيوجّه قبضة كفّه نحوها] أعتقد أنها رحلت. أقسم أنها هربت! [صمت قصير ليلتقطا أنفاسهما]. أين نحن الآن.

زكريا: إنها الساعة الرابعة. وأنا أجمع النفايات. أما أنت فتريد القيام... بشيء ما.

موريس: نعم تذكرت الآن. أريد فقط... فقط أردت... أن أضربك بالمظلة. ها ها ها! [ثم هاجم زكريا بتوحش]. أردت فقط ضربك قليلاً. هذا كل شيء. ها ها! برأيك ما وظيفة المظلات عندما لا تمطر؟ هيا؟ [يحاول زكريا الهرب ولكن موريس يمسك به بعقفة المظلة] انتظر، انتظر! ليس بهذه السرعة يا جون. أريد النظر إليك مليّاً. يا إلهي! ما هذا الخطأ! رجل أسود، كل ما فيك أسود يا خادمي؟

زكريا: نعم، سيدي.

موريس: كلّك أَسوَد؟

زكريا: نعم، سيدي.

موريس: لا شيء فيك أبيض؟

زكريا: سامحني من فضلك يا سيد.

موريس: أنت تبدو كريهاً.

زكريا: عفواً، سيدي.

موريس: أنت نتن.

زكريا: من فضلك يا سيدي...

موريس: إنك لا تستعمل الورق أليس كذلك؟

زكريا: ... أوه سيدي، سيدي، سيدي الصغير والجيد.

موريس: أتعلم أنني أكرهك. ما القصد من زحفك حولي هكذا؟ إنك تفسد عليَّ المنظر وتفسد فرصي! ما هو قصدك من اللعب هكذا؟ أتحاول أن تكون عائقاً لي؟ أهذا ما تفعله؟ إنك عائق على ساقين؟ أهذا ما أنت عليه؟ حسناً، أنا أكرهك أتسمعني! أكرهك!... أكرهك!... [ثم يهاجم زكريا بمظلته بوحشية. وعندما ينفد غضبه يستدير ويجلس] قد كان يوماً جيداً. الشمس مشرقة، والسماء زرقاء، وأنا سعيد. [يبتسم، لقد نفّس عن كل توتره] لن يكون من الأيام التي تُنسى بسرعة. بالرغم من قشعريرة غمرت الجو. [يرتعش. بينما زكريا يئن بضعف] شيء ما يتنهد بين الأشجار... إنها الريح.

نعم! لقد كان هناك أشجار كما هي الآن الأشجار الباسقة. يوجد الكثير لنتذكره! لايزال.... [يرتعش].... الجو قارس.... ولم أحضر معي... معطفاً.

زكريا: رن.... رن.... دينغ - دونغ.... دونغ.....

موريس: ما هذا الصوت الذي أسمعه؟

زكريا: الأجراس، إنهم يغلقون. دينغ - وونغ.... أونغ....

موريس: من الأفضل أن أسرع إلى المنزل. [يقف] نعم، لقد كان يوماً جيداً.... وهو لم ينتهِ بعد.

زكريا: دينغ - دونغ....

موريس: آه، هذه هي البوابة

زكريا: مابك؟

موريس: ما بي؟

زكريا: ألا ترى أن البوابة مقفلة؟

موريس: أهي مقفلة؟ [يحاول فتح البوابة] نعم إنها مقفلة.

زكريا: لقد أقفلتها قبل قرع الجرس.

موريس: يا للسماوات التي فوقنا! إذاً من الأفضل أن أتسلق فوقها.

زكريا: فوق تلك القطع الزجاجية الحادة المثبتة في الأعلى؟

موريس: إذاً، أتسلق السور.

زكريا: به أسلاك شائكة.... وعالية جداً...

موريس: إذاً، ما عليَّ فعله؟

زكريا: ربما عليك المناداة.

موريس: هللو! هللو! هل هناك أحد!!

زكريا: لا أحد يسمعك!

موريس: ماذا الآن؟

زكريا: الآن، عليك أن تجرب فتح البوابة من الجهة الأخرى.

موريس [مذعوراً]: أأذهب كل المسافة إلى الخلف؟

زكريا: نعم [يمشي بهدوء نحو المصباح الموجود على الطاولة].

موريس: ومن خلال الأشجار؟

زكريا: هذا ما هو عليه.

موريس: ولكنها بدأت تظلم! [زكريا يخفف ضوء المصباح].

زكريا: هذا ما يحصل يومياً.

موريس: وفي البرد.... لم أحب يوماً الظلمة.... [صمت قصير].... أين أنت؟

زكريا: خلف شجرة.

موريس: لكن.... لكن كنت أظن أنك خادم من النوع الجيّد؟

زكريا: أنا؟

موريس: نموذج للخادم جون البسيط والجدير بالثقة. ألست أنت كذلك؟

زكريا: لقد تغيرت.

موريس: من أعطاك الحق في ذلك؟

زكريا: أنا أخذته.

موريس: هذا شيء غير قانوني، ولا يحق لك! هذه سرقة. «عليك أن لا تسرق!» إنني أعتقلك باسم الرب، هذا ما يجب أن يكون عليه. [ينظر حوله بتهور] يا رب، صلواتي... من فضلكم! أمنيتي الأخيرة.... أن أقول صلواتي، من فضلك. وكما ترى... وكما ترى... يمكن أن تسمعهم يقولون هذا؛ [ينزل موريس على ركبتيه، ويبدأ زكريا بالتوجه نحوه.] أبانا، أبانا الذي في السماوات، ولأننا لا نعرف أحداً غيره، سامحنا هذا اليوم لأننا اعتدينا على ممتلكات غيرنا، لم أستطع أن أمنع نفسي، فالبوابة كانت مفتوحة، أبانا، لقد كانت شمسك تسطع بشدة فأعمت نظري، لهذا لم أرَ الإنذار بعدم الدخول! والإنذار، انتبه من الكلب، لقد كان بلغة البانتو(١)، فكيف لي أن أعلم يا سيدي! إن أخطائي ليست بهذا السواد. بالإضافة إلى أنه كان فقط خبز كل يوم من أجل الفقير. فدع ملكوتك يأتي سريعاً. أنت المجد والقوة، ولكن نحن الخوف والحساب للعيون التي من خلفنا لأجل خطايا ولادتنا وخطايا الرجل الذي في الظلام خلف الشجرة بينما أنا أنتظر.... [يقف زكريا وراء موريس

---

(١) مجموعة من اللغات الأفريقية ينطق بها سكان جنوب أفريقيا الإستوائية.

وهو على وشك أن يصبح عنيفاً، يرن جرس المنبه، فيزحف موريس باهتياج.] وقت النوم! [يقفز موريس ويسرع إلى الطاولة ويضيء المصباح. أما زكريا فيذهب إلى سريره ويجلس. ويعلو صمت طويل متحاشيين النظر بعينَي بعضهما. ثم يخلع موريس جاكيت البذلة ويذهب إلى النافذة] الرياح تهب من جديد.

زكريا: نعم. أشعر بها وهي تهب نحو المنزل.

موريس: لم يبق هناك أي عصفور.... ليكسر صمت الحقد في وجه الرياح.

زكريا [يحركه دوماً الخوف من هذه الكلمات]: الجحيم!

موريس: نعم، أعلم ماذا تعني... وماذا تشعر. فالمياه ترتعش أيضاً. هي دائماً بحالة ارتعاش عندما تهب الرياح. ألاحظت هذا؟

زكريا: كلا.

موريس: نعم. إنه الغموض الذي في حياتي ينحل. أعني أنها رائحة الموت، أليس كذلك؟ إذا كان من وقت تموت فيه نقطة ماء أو تتلف فهذا هو الآن ما أراه. ومع هذا من يعلم؟ من يعلم حقاً ماذا يوجد في القعر؟

زكريا: أنا أعرفه.

موريس: من؟

زكريا: الذي يوجد في الأسفل.

موريس [ينظر إلى الخارج باهتمام شديد]: نعم!

زكريا: ذهب للسباحة وغرق.

موريس: ألم يخرجوه؟

زكريا: لم يجدوه أبداً.

موريس: إنها طريقة موت تشبه الجحيم! ولن يجدوه أبداً! وهذا هو البرهان، أليس كذلك؟ [يترك النافذة] سننام جيداً هذه الليلة، سترى ذلك.

زكريا: موريس؟

موريس: نعم؟

زكريا: ماذا حصل؟

موريس: تعني....؟

زكريا: نعم.

موريس: لقد انجرفنا كثيراً بهذه الدراما كما يقولون.... وبالحقيقة بعيداً جداً. ومع هذا ليس علينا أن نقلق.. ومع هذا... لا أعتقد، أعني أنها فقط كانت لعبة... طالما أننا نقوم بالدور بروح جيدة.... سنكون في وضع جيد. ولا تقلق سأظل

أربط المنبه. وهناك شيء أنا متأكد من أنه حقيقي وهو أن ما قمنا به في هذه اللعبة كان شيئاً جيداً. به ينقضي الوقت، الذي لدينا منه الكثير كما تعلم! [ضحكة قصيرة] الحياة تقريباً كلها تمتد أمامنا.... هنا.... صمت قصير.] نعم. [صمت.] وكما قلت فأنا لست قلقاً على الإطلاق. على الإطلاق.... قلقاً. أعني هناك رجال يمرّون دون مستقبل. وفي الحقيقة أظن أن كثيراً من الناس يمرّون في هذه الأيام دون مستقبل.

[صمت. يقوم موريس بآخر استعداداته للنوم.]

زكريا: موريس؟

موريس: نعم؟

زكريا: ما هذا يا موري؟ نحن الاثنان.... كما تعلم... هنا؟

موريس: بيتنا.

زكريا: ألا توجد طريقة أخرى؟

موريس: كلا، فكما ترى يا زاك إننا مرتبطان ببعضنا. وهذا ما يسمونه برباط الدم.... أي ما يربط الإخوة ببعضهم.

[وبينما موريس يمشي إلى سريره....]

تنسدل الستارة

الباب الرابع

الشـعر

- براءة السماء الزرقاء	بيرسيس آدامز
- المسافـة	نثوني ديليوس
- راحة الزمن لم تعد لي	دايفيد فريلاند
- عامل المنجم الناجي يتكلم	جيوفري هيرسنيب
- نظر السياح العميق في الأشياء	غـاي باتلر
- غرباء في بيت	روث ميللر
- على الشاطئ	دنيس بروتوس
- خدعة الألم	سي. جي. دريفر

- باالهــواء آن ويلش

- بعد سنين لورنس ليرنير

- فاندريكن دوغلاس ليفينغستون

- في هذا المكان المتوحش تقف الشمس

مارغريت اللنبي

- الوصول والمغادرة تشارلز إغلينغتون

- تحت البوابة سيدني كلاوتس

- حَثُّ السير على رؤوس الأرش العالية الممتدة بالبحر

فينسنت سوارت

- أسطورة زماننا وولف ميللر

- اعتذار للموتى ديفيد رايت

- ترنيمة القاذفة الفاشية يويس كريج

- مذاق الفاكهة ويليام بلومر

براءة السماء الزرقاء

بيرسيس آدامز

أنظرُ لكل جهات السماء
الخير بوجود السماء
الزرقاء البريئة
باهر طيران الطيور علواً وهبوطاً
كنافورة ماء تتدفق
مع خيط الفجر الأول
حتى نزول الشمس الساحرة
لكن هذا ليس دائماً: عندما يخون
الرجال بعضهم بعضا
أو حين إخفاء جمودهم
خلف بسمات الإحسان الزائفة

عندها من الأفضل أن لا تكون السماء معروفة
عندما تكون كل عيون روحها متجهة
للأسفل من دون مساومة وتحديث
لتنزع دماغ الطبيعة من أعصابه
مثل هذا الاستثناء يتبع من أجل الملوك ليكون لك المدى
فلا تحكم على الزرقة عندما تحدق في الموت
بتلك النظرات المؤدبة القاسية فيك
التي تخرج من بين الفوضى الخانقة للزمن
دون رفة جفن هادئة أمام اللامعروف
لكي تقف وتعرف أن هناك خطراً،
إرهاباً.
يجب أن يؤخذ بالاعتبار فقط
قطعة قطعة
بعد محاولات صعبة ليصبح واضحاً
للموافقة، لتردد العيون، نعم كلها
عندها يحصل الحلف مع الحب بمثلِهِ العليا
تماماً كما كان الرخام عندما كان يضربه
مايكل أنجلو ليغني

المسافة

آنثوني ديليوس

إله أفريقيا يراني
من حافة مرجي في الضاحية
لديهم سيقان ضخمة طويلة
من جذوع الأشجار
ووجوه بيضاء صغيرة كالنجوم
وأنا لست مستلقياً عند أصابعهم المبرعمة
لكني أقف أمام باب منزلي الإقليدي
وآمل بأن مئات الأعشاب
تصبح رحبة جداً لا يمكن تخطيها
بصورة مهينة
فجأة ظهر عواء كلب هزَّ سكون

الصباح، شجرة خافت
فوقف شعرها الأخضر باتجاه الصوت
كذلك غيره من الكلاب في الشارع
نقلت إنذاراً، انتبه، انتبه
عبر الهواء المضلل
جاء عابر أو ساعي بريد إلى الأبواب
أبواب تريد أنت إغلاقها بكل عناية.
كل الكلاب لا تثق بالإنسان، لأنها تعرف خشونة سيّدها
من العرقية،
ومهمتها حصاد
الريح وخوف من عار جديد،
تصبح هلعة بلا فتات، احذروا، احذروا
كل الرياح المتألقة الساكنة،
تصرخ على لص أو جامع قمامة فيكسر هذا الهدوء
فتأتي أوزار مجهدة عليك مشاركتها
ليس هناك حدود لدفعها بعيداً
فتستريح هواجس الكلاب،

الناجي من تلك الحروب القديمة
يعلم أنه بالرغم من حظه السيئ يمكنه أن يشارك
في سلام الريف، الذي لا يزال ينتبه احذروا
من كمين في الهواء
فخطط الناس لا يمكن التنبؤ بها
بأن السفاح أو القاتل هو عند الباب
وحتى في الليل عندما ينام الجميع
والأحلام تكون في سكون وتحت القفل
تحرس الكلاب الأفق الباهت
لمراقبة مرور الساعات المختلسة
وعند خط الأفق تصرخ: احذروا الكلاب.
نجوم غريبة تظهر هناك،
متآمر أو عاشق يتسلل
فتشتعل الأضواء ليرتجف الهواء.

راحة الزمن لم تعد لي

دايفيد فريلاند

راحة الزمن لم تعد لي
يمرُّ الزمن ليغريني بالحياة
ليتآخى مع الدقائق الماضية المذهلة
فلا أجرؤ على الحركة لكن خوفاً من أن تطأ نعلي أفعى
في الصباح أشق طريق التسلق للجبال
لكن في المساء بسمة السخرية على القيم التي نراها بالمنحدرات
وعلى جمال الشمس من بعيد
فمن يسخر من مطارحاتي
أنا لا أسخر ولا فعلي ملح صيفي
لكن لمن يراقب من الشباك
وينظر في الليل خلفي، أضحك
مع ذلك لا أزال في تابوت حديقتي.

عامل المنجم الناجي يتكلم

جيوفري هيرسنيب

الظل ملتفّ في الغابة
والسنديانة تتلهف لقفصها الشهي
ولكوزها الصنوبري الرطب
بينما السناجب تقضم بذوره
وتصنع عشها من إبره التي يدفعها التيار
تاركة اللبَّ والقشر
كالصخرة تجثم على معدتي
فأنا هنا معزول بسبب الأرض وحزين
لأسأل الشجر غطاء من معطف وقبعة وبنطال
بالقفر داخل الأرض لحمايتي من الشمس المجنونة والقمر المقزز
وتهيئة النجوم لتلحق بدمائي

ما القدر الذي ينتج عن السر العضوي للأرض
ليأتي بنوره المتقطع في الليل ليلحق به الإخوة السبعة للأرض
بعيونهم البيضاء التي ترقب مجرتنا وكلهم متعطشون لقلبي
ويخيفني ظلُّ الناي والشجر الأخضر يخيط ثيابي
هنا سأبني عشي أخيراً مثل سنجاب رقيق يقضم بسلام

نظر السياح العميق في الأشياء

غـاي باتلـر

يزعجني حين أفكر باضطهاد الأغلبية الزنجية
التي يمكن أن تحولهم إلى كلاب صغيرة، فقط بإطعامهم قطع السكر
حتى من أفضل أنواعه وأكثرها نقاوة
فأنا على كل حال قد مللت
الكلاب الصغيرة لدرجة الغثيان
فعندما تبعد نفسك عن العواطف الإنكليزية حول الكلاب
وباقي الحيوانات، وعندما تترك نبضك
الدموي الأسود فعلى الطبل ستجد
عند أقرانك السود الكثير لتتعلمه
لأنك كما ترى أنت بصِلتك بهم، تجعل واحدنا

يتساءل لماذا أضاع د. هـ. لورنس كل هذا الوقت في المكسيك وسواها

الأفارقة مثل قارتهم ليسوا سوداً من أجل لا شيء.

سوادهم حي

يمكنك مقارنته بكل الطرق.

نحن وهم نقتل الحيوانات فلا «قسّ» اليوم في الغرب يقود العجول

«ليطوق عدوه بلباس حرير الزهور» لإنجاز

له في المسلخ

فكل شيء ينجز بالآلات وطبعاً هذا ليس لطيفاً أن تشهد

كيف يعاملنا جلادونا

ونحن لا نأخذ أية ملاحظة أخلاقية

فحياة العجل ليست مقدسة بالنسبة لنا

في كل أفريقيا، كل القطعان مقدسة

وقتل ثور يحتاج شعائر احتفالية

ففي العشيرة التي أعرفها جيداً

اثنا عشر من أفضل شراح المصطلحات

الشجعان الذين يختارون لهذا الأمر
بلا سلاح وعراة
يدخلون حظيرة أقوى ثور يخفض قرونه الطويلة لهم
فتمتد الأيدي السوداء بأكفّها الورديّة
لتقبض على الحيوان وتركعه
في هذا الوضع وكلما يكون أخفض يكون أفضل
لتذكر الأب ورئيس القبيلة وسلفها
صوت الثور الجرش
بعد أن نسوا هذه السخافات المعقدة
بعدها بالشجاعة والخداع يرفع الشاب
رجله لقرنه الأيسر واليمنى للداخل
فلا يقدر الثور على الحركة
وهو عاجز تحتهما وعيناه تجحظ
ويزداد تنفسه ويندفع
وتحت الدخان«غدّارة» حول الأجسام السوداء المعروفة
تلمع تحت الشمس فيأتي الأشجع
وبإشارة يجثو على إحدى رجليه ويطلق أغاني الشباب

معهم وخارج الحظيرة يوجد تصفيق جماعي من الصغار
والكبار وموجات من الغناء تتعمق
كلما هدر الثور
بصوت أعلى منهم وأعلى
تمتد الأيدي حيث القلب الهائل
لتنزع قلب الثور النابض باليد
وتبحث أعمق وأعمق لتجد
جذر الحياة في الشريان بذاته
ليضرب العقدة الثنائية وبعماء
داخل جسد الثور تضغط أصابع الرجال لتقطع وتمزق وتُخرج
عندها تحمل التلال صدى آخر نفحات الثور لأسلافنا
فيبدأ الغناء والضحك والتصفيق
بموجات تقدح وتطلق فقاقيع«الرغاء»
نحو أعصاب ودماء كل الأفارقة في جوانب القبور
وطبعاً لا يحبذ المستوطنون البيض هذا النوع من القتل
لأن المواشي ليست مقدسة عندهم وليس لديهم الخيال
الكافي لتحمل هذا النوع من القتل

لذلك يسمّونها بربرية

ولم ينجح أي أنثروبولوجي حتى الآن بجعلهم يفهمون[1]...

(١) يفهمون الأساطير المبررة لمثل هذا العنف مع الحيوان لمصلحة عقائد بائدة، تجعل عند كل الشعوب مبررات للقسوة، وهدفها أن تطبع بذاكرة الناس حدثاً لا يريدون نسيانه، تسميه الشعوب المدعية التحضر: «Memorial» بكل ما فيه من ألم يخدش الضمير، ليرسخ الحدث.

غربـاء في بيـت

روث ميللـر

تعمى البلد حين يتموج الحشيش
بينما هناك فخ في باقة قدم لا مرئية
نحن نحفر لنقع
والأيدي أمامنا في هواء غير لطيف
الذي لا يكتب كلمات سوى كلمات فارغة
الذي نعتبره هراء
لصدى يدوي من مربض نسر
وهو الذي يمسح الريف من خلال
رذاذ الماء ويراقبنا
بجبينه المتلوي ليرانا
توقفنا لنتعثر وحدنا

على العين العمياء لجانب التلة
لينقضّ للأسفل كالسيل الجارف بجناحه المفرود
أسفل أسفل دون أن تلمسنا أطراف جناحيه
يتراقص عالياً إلى مربضه الذي منه جاء بكل عنفه
لينتظم الذعر في أحوالنا لظننا التعرض لما لا نقدر عليه
لنجد أننا فقط قرب أنفاسه نفذنا
بالقرب من شحم خدودنا
أغضبتنا هذه النجاة من فمه بشكل مؤلم من موتنا الحتمي

على الشاطئ

دنيس بروتوس

السماء بزرقة البحر، والبحر الأزرق الفولاذي
موجة كبيرة في ذراع عاصفة
تتلاشى لتتشكل في ضوء باهت
وإيقاع نغم للرمل على النسيم
شوكيات على شجرة بالقعر
تعرفنا أين تقع قطع الصخر الضحلة
ورذاذ البحر الساكن يعطِّر
المزاج، بملح حلو ورغوة بيضاء
وحشائش بحرية بنية. كلها
بحزوز ضوء ما بعد الظهر
حيث الصخور والرمال والسماء ونسائم البحر تغنّي
ويكملها الشعر البني والبشرة الحية، هذه الكثرة الزائلة

خدعة الألم

سي. جي. دريفر

عندما ننعت المعرفة بالألم
يكذب الألم، لأن الكل يكذب
حين يأتي الألم فما تراه العين
هو عيون الشر التي لا تعاتب
على ما ترتكب يداها من جرائم
حين ننعت الألم بجبل فوقنا، حين نحترق أو نصبح معزولين
لكن: نكون بأمان
يجب على القلب حقاً أن يتعلم
أن المرارة نصف حياتنا
لكن حين ننعت الألم بالخيانة لنا لمن سيموت، ويتحرر من
هرطقات اللهيب، نفك قيود السماء
الألم هو الألم، والنار النار، واللعنة اللعنة.

بالهــواء

آن ويـلـش

الآن عيون كالحجارة تسقط
على القارة التي أحكم إغلاق ودیانها
وماتت لعبها المتعجرفة أو اختفت فجأة
هذا البرج العالي يمكن سقوطه، لكن العيون العليا تتجدد دموعها
طويلة وعمياء والحكم العالي
على هذه الساعة يجعل العيون
بلا غذاء ليبلغ أشياء كثيرة
بمرور الموج أو بابتلاع البحر بدل ذلك
بالشوق لتجريب الأجنحة القديمة للطيور في الهواء الأزرق
ما زال الأطفال يتأرجحون

بعد سنين

لورنس ليرنير

قيدوا أرجل أمي عندما ولدت
أسأل أختي: فهي تعلم ذلك كله
عليها أن تتذكر
ثماني عشرة سنة خلت
قيدوا أرجل أمي بشالها
شعرت بضحكاتهم تهتز في دمها
هكذا كان عالمي قبل إحساسي بالعالم
فضحكاتهم المعذِبة اندفعت كأمواج في دمي
ضحكوا، وقيدوا أرجلها: دائماً كانوا يفعلون
شعرت وهي ترتجف حين ضربت رأسي
بالعظام، فتراجعتُ، وضربته مرة أخرى

مرة تلو مرة: كانت جمجمتي الصغيرة
تحاول تلمس الفتحة التي تقودها إلى الهواء
وإلى أصوات الضحكات
متراصة كالأسنان
والشفاه كانت مشدودة، ومازلت أنا أضرب ثم أضرب
أحس صرخاتها كتساقط قطرات الماء في التيار
فأخذتني بنغماتها عالياً إلى أين
لقد بدأ عالمي والشفاه المشدودة أعادتني إلى الوراء.
لم يكن هناك عالم: فقط تلك القيادات الملتوية،
والدم الخانق، ورأسي الملتوي والممزق،
وتلاشي صوت الضحكات في العتمة.
خرجت أختي قبل خمس سنوات
في هذه الليلة يغلبها النعاس عند موقد المطبخ
زوجها خرج وأطفالها في السرير
(بسهولة حملت بهم، تسعة أرطال كل رأس)
والأحلام عن ألمانيا (نصفها تلاشى الآن)
عني وعن أمي (التي بالكاد تعرفها)

عن كل الأموات وستة ملايين آخرين
يتطاير اللهب لطيفاً في النيران التي تزأر
لأشهر وأخيراً لم تعد تفكّر فيه
بعد انتهاء الحرب قرأت كتباً عما وماذا
وجد«الحلفاء» - الموت، بل الأسوأ من الموت
قرأت في الأوراق حتى احمرّت عيناها:
قرأتهم كحليفة - أشفقت علينا،
حاولت تصور المأزق اللاإنساني،
وأخفقت، ثم حاولت تصور الشعور الإثم،
الألم، والضرب الذي لم تحسه أبداً،
الغدر، والأهوال التي رويت.
بدأت الحرب عندما أصبحت ثمانية أعوام
لقد كانت محظوظة، لقد رحلت
عاشت أكثر منا جميعاً؛ والذكريات التي تقبع
خلف حياتها، لا تزال مخبأة، ولم تستيقظ
الآن هي في الثلاثين متزوجة وتعيش في يورك.
أبناؤها ما زالوا صغاراً، ولم تروِ لهم حتى الآن شيئاً.

«سيعلمون، العالم شرير، دعهم ينتظرون».
إذاً لماذا في هذه الليلة تذكرتني
وأحست بروع أمها وارتجاف أوصالها،
صراخ أمنا تملكها بصمت
شيء ما يجرش في فمها، كأنه حبيبات رمل خشنة،
إصبع قذرة تطوف في فمها،
والعلكة الرخوة مضغوطة على لسانها،
كخرقة مزيتة متشابكة مع لعابها.
أحست بي كطعم الجرش والزيت في شفتيها
وشعرت برفساتي وأحست بتمزق أغشيتها،
فأطبقت أسنانها لتمنع الدماء المتدفقة
من الاندفاع خارجاً، وكذلك أطبقت شفتيها
تلك هي الشفاه العاجزة التي لزمن طويل
منعت ولادتي.

فاندريكـن

دوغلاس ليفينغستون

وحيد أحياناً في الليل
مضطجع على لوح الأمواج المتكسرة
أبعد من شبكة القرش
تنجرف على جوف الملح الرطب
لعشيقتك المحيط الأسود،
هادئاً تحت سماء ساكنة وبلا ضوء قمر
وتأمل أن رجليك المتدليتين
ليستا واضحتين من الأسفل
لا تتكاسل أنت في نوم عميق
وموجة تتلهف للشاطئ، للأمواج المتكسرة
لتبدأ سماع جَلْد

العظام، فيرتفع الزبد وتصحو؛
شظايا الأميال وأصوات نَسل الحبال
كالصرير والتأوه والصليل
على الكتل الحجرية - وترتجف
حين تستلقي مبللاً في ملح موتك،
تسمع لعنة مستمرة لا أمل فيها
على الهولنديين.

في هذا المكان المتوحش تقف الشمس

مارغريت اللنبـي

تقف الشمس بلا حراك بهذه الأرض المتوحشة
مثل شمس«يعقوب»، الوقت لا يدان
ولا يقر الوقت بكل ظلاله
في ضياء التدفق للكل عدا السؤال
الزمن يهدد ونتيجته الخوف
مع الزمن خوف حاذق بصوت
كالسراب يشعل عالماً شبه متحضر
مبادرة الكلام بذهن توقف
هنا ولسان حال الزمن يسأل من الخوف الشديد
ليظهر الأمل، أو الأمل يُظهر الخوف بمشكلة الحدود

بصوت كاللهيب، سيف ذو حدين
يفرض شذوذه على المواطنين
في ثفل وإرادة ميتة
الزمن يسأل.

الوصـول والمغــادرة

تشارلز إغلينغتون

لا صوت مزيفاً للخليج المتين.
ليقدم للمسافر الذاهب الوداع
هم يراقبون مثلما تراقب الأرض والبحر والسماء
ينبثق عدم اهتمام بكل الأشياء بالخيار
الذي يمزق مخططاتهم الثابتة من يوم لآخر
المرفأ الراقد في الخلف هو الذي في الأمام
موضوع الشمال والجنوب ليس إلا اتجاهاً واحداً
بالنسبة للغريب كلما يصل لمرفأ بعيد
هو المرفأ الذي هو موطنه في كل مرة يرسو
يعني الوداع لكل نجمة قبطان

ذاك الذي يحرك المركب نحو وجهته
يحرق باختصار القلب الذي يرسو ثانية
الصخور فوق الموج تشد سلاسل المرساة من جديد.

تحت البوابة

سيدني كلاوتس

الماء يخترق الحديد، يتدفق عبر مجراه الصخري
يمزق أشلاء السحاب وكل جزء
حصري صلب يخلط الحصى
مع ورق الشجر ضد أنابيب العظام
وحتى السنديانة المنتصبة في تلك النقطة يفسدها
عدو يخبِّئ رأسه هنا
يحتشدون ويتمترسون سمعت
اهتزازاً بروحي من الخوف المتجذر
تصدأ الأشياء بعقلي... فالتدفق
يعكس ويحرك رؤى الجمال
وبقصدية مثل الموت وضع هذا الباب

الذي يخفي الحقيقة ببنيته الخاصة
ومع ذلك ينظف الإرهاب جيداً كما يثقب
بمثقبه الجراحي الجماجم
فمن الصعب تحمل ضوء الشمس اللامع
حتى ولو على القلب القاسي في الليل.

حَثُّ السير على رؤوس
الأرش العالية الممتدة بالبحر

فينسنت سوارت

حَثُّ السير على رأس الأرض البحري العالي حيث بالمنعطف العاري
هنا ليس السقوط يفتح ذراعيه
مثل الوردة برأسها الجميل كالعصفور المتناغم
لكن بتسعمئة قدم نحو البحر يظهر حاداً
هل علينا أن نسير بقرب هذا الحد الفاصل
الموت يشير نحو الملح
من خلال دوران رؤوسنا نستسلم
فور استسلام الصرخة الشائن
بمنتصف الطريق يحدث الفم
بالموت لكل خلايا الرأس. يشكل فجوة بكل أجسادنا وأطرافنا
المأخوذة بالريح قبل أن يأخذها الشاطئ كدماء

اقرأ هذا حول موتك حيث الرياح مثل البلطة تقطع الأيدي
من الصيف وتحرمها من ثمار التوقع
وزيارة أسنان الملح الصغيرة في عمق الصخر
ومجاعة الأرض للماء، آه اقرأه هنا
لا شيء لك إلا الغرانيت الصلب
العظام الأساسية. تفلَّتت في الرياح
مع هذا الزرّ الباقي من صديق ورسالة من امرأة
لأن شيئاً لن ينجو سوى أشياء الشخص الخاصة
والقليل في العظام. على المنحنى المنعزل
تهزّه من أكتاف الأرض بذور الصيف ووحدها حقيقة بلا حزن.
احتوِ إذاً سيدك الخاص هذا بلا حزن
ذاك الرجل الذي ينظر لنفسه عارياً في الوجه
يكتشف مكائد الغموض، لينسى بؤسه
فينجو آه من مكائد السود من مكائد السود
الذين بلا جهد يتحولون إلى رياح
تعلمنا«الأمازي» كيفية الخلاص من الأرض
بذاك الأخذ المقتدر نحو الهواء حيث لا مديح هناك
لنصبح واحداً يشد نحو الأسفل، هناك
ويسحب بقوة الدفع مثلما يدفع البحر نحو الوجوه.

أسـطورة زماننـا

وولف ميللر

هذا فأر يركض على الحائط
يعيش حياته مذعوراً
والذعر سبب سقوطه
بخدش تذهب المرآة
والقطة التي تعيش في شجرة«ميلبوري» تعيش بذعر
ذكرياتها فقط تتحول حرة في البعيد
بخدش من المرآة
والكلب الذي يجلس داخل بقلة القريص
يعيش حياته بذعر
لأن البتلة قيّدت رجليه فلم يعد يتمكن من الهرش
لصدع يذهب بالمرآة

والرجل الذي يمتص غليونه ويبصق
يعيش حياته مذعوراً
يحمل فطنته في قبعته
لصدع في المرآة
الفأر والقطة والكلب والرجل
يعيشون حياتهم بالإرهاب
وأحد منهم لن يعرف كيف بدأ هذا الأمر
لذلك يغلقون عيونهم وتستمر وجوههم بالاصفرار
والصدع في... المرآة مستمر.

اعتذار للموتى

ديفيد رايت

كنت مقتنعاً في قلعة« لاندسفان»
أنزلق كالبجعة في محيط لا يأبه
مع تموّج بالكاد سيصير
ما يجب أن يكون عليه بيتي مع الحلف بأساطير ذاك البحر
بدلاً من أن أكون كما يجب على الجزيرة
محاطاً بالسكون ومسكن جدي
مثل الخريف الساقط حولنا دوماً
وكمثل نابليون غرق الملك«آربيل»،
بإذن الأمير، أشعر بالفرق
فأدير عظامي لأجعلها تدور إليَّ على شكلي
فمن أجدادي لن أكون
منهم، أمامهم بأي جوانب المحيط، حيث من قوتهم وفقاعاتهم
أصنع عروسي.

ترنيمة القاذفة الفاشية[1]

يويس كريـج

اندفعنا نحو الزرقة
نزمجر فوق الأرض
اسمع – أووه - اسمع
نحن صوت إسبانيا الحديثة
والصليبية الحديثة
بهذه السنة الفضيلة
١٩٣٧ نحن معبد روماني أبيض
العَلَم المرفوع بلون الخوخ
عندنا يتحرك مع كل نسمة هواء بزاوية السماء كالجدول

(١) هـذه القـصيدة مترجمـة مـن اللغـة الأفريقيـة للإنكليزيـة - ومنهـا نترجم -.

نتمايل بانتصار فوق حلبة الصراع الفضائية
وضد الأفق بمتراسه الأبيض
ومقابل صوت صرخاتنا
في صرخة واحدة مليئة بالنصر والفرح:
ليحيا يسوع الملك(١)
نحن أجمل من البطارقة
وأبيض من طيور البحر وأسرع
مما يظن الناس بفكرهم، حتى قبل أن ترانا
حين بالكاد تسمعوننا سيسقط على رؤوسكم ظلنا
لنمر كالبرق فوق مدنكم وقراكم
مندفعين مثل
تفقع كسر الرمان
وبعلو ميلين بالفضاء
نرسل بيضنا في علب ذهبية للإسبان
أجنحتنا أجنحة الملائكة
تحرك هنا الفضاء كآنية

(١) هي صرخة الفاشيين العسكرية خلال الحرب الأهلية الإسبانية.

اسمع ،اسمع
كيف نغني أغانينا العاطفية للحب
وكيف نتمتم مرحين
بكل تكريس لصلاتنا
فنحن سبحة القس الأكبر والأسقف
تنزلق بين أصابعهما المباركة
وبوقار يحركاننا ويحصياننا بكل تبجيل
وببطء واحداً تلو الآخر
عبر الحديد الأزرق اليومي
تلك السماء هي الجنة البعيدة غير المنالة،
من تلك الفضاءات تسقط أسرَّتنا
السوداء إلى الأرض على القرى والمدن
والمزارع
لأننا نحب أصحاب الديدونة
ومتراس القلاع المقدسة تلك
الآمنة، البيضاء العالية فوق رؤوس الجبال
فنحن صوت عبارة: رب

في تحولها إلى حديد قنبلة ورصاص ولحم ودماء
ليحيا يسوع الملك
هل سمعت أزيزنا هل سمعت
أجنحتنا تصفر بها، ومحركاتنا تقذفها
وعوادم محركاتنا تصرخ من خلالها
ثكناتنا العسكرية ترتلها وقنابلنا
تفجرها مثل البرق النازل
بشكل واسع فوق الأرض
إنها أغنية جديدة
لكنها ألحان قديمة جداً
هي أغنية العالم
ألحان بشرية
غنتها الكنيسة والقاهر
فوق الأرض والمنبوذون
بأوروبا في الأساطير الأجنبية
و«المور» من مراكش
إلى حيث طردناهم بعد سبعمئة سنة من الاضطهاد

والآن بصيغ الإدانة الإلهية نعود باسم المدين
هل سمعتها هل سمعتها كيف
يرتفع الصوت ليرتفع إلى الأعلى فالأعلى
مثل ألوف طيور القنابر التي تغطي نور الشمس
فكيف تنمو الأغاني وتنتفخ جوقات الغناء
بشكل أعلى فأعلى حتى تملأ في النهاية لا القبة الزرقاء
وحدها بل كل الكون بتموجات
كالطوفان الصوتي مثل غيمة من دوائر البخور
نحو العرش الأبيض العظيم
لإله أغاني التوراة الجبار
مع أحد المزامير وحده ينغم بنغم واحد
وبصيغة واحدة ليحيا يسوع الملك.
لأننا وباء كالجراد بالنسبة للإله
ومصدر الخبث غير الإلهي
انظر إلينا ،انظر إلينا
كم نحن الأكثر نعمة وكيف يبجلنا
لنقف على منحدر الألوهة فنصبح

فجأة أصحاب مجده، قد كرّسنا بنوره المقدس
الفضة على أجنحتنا تلمع بضياء الشمس فتأتينا
فوق أمواج الهواء فوق البراري الذهبية
وفوق سفوح السييرا من فوق المدن
من «بالما دي مايوركه» إلى «بورغوس»
ومن ألمانيا إلى إيطاليا
لنتجول في سرب كالدبابير السود الجميلة
ظلُّنا يرفرف فوق الأرض
أواه، ارفع عالياً رضاك بالعلو
عندما تأتي مساعداتك
انظر إلينا! أواه، انظر إلينا
بوجهك الشاحب المتحول حيث يجلس مغلّفاً بالأفق
وحين تتجول بشوارع مدينتنا وبساحات القرية صباح الآحاد
في الشمس، أو تحت شجر الحقل البارد
تتساءل عن القدرة
أو حيث يتحلق الجموع في مكان ضيق
تقف لتسمع صانع الفكر للموسيقا الضاجة من عبارة العمال

انظر إلينا، انظر إلينا
أنت الذي فتح سدود البرتغال الحمراء في حدائقه
أنت الذي ركب الحمار البني نحو السوق عبر الغبار الأبيض
مع طريق الجبل الصعب
أنت الذي تطول وقفات ذهابك
أمام حقول القمح الذهبية
عندها ستتوقف عندما تسمعنا أمام عناقيد الذرة الذهبية
لتجلد العرق الحلو من عينيك الغامقتين
انظر إلينا، انظر إلينا
لكي ترانا ونراك
وندمرك كحشرة الأرض
فنحن أصحاب المنجل الرمادي
الذي يقطع وينظف الذرة من التبن
نحن الأمل والنبوة
نحن الاقتلاع والإرهاب
واللعنة
نحن التوبة والغضب الإلهي

نحن بوق الله وصوته العالي
من البوابة الذهبية للشمس
ليحيا يسوع الملك
صلِّ لأجلنا، صلِّ لأجلنا
فنحن ننقضُّ على المدينة
مثل الصقر على الفريسة
لم تمدح شجاعتنا أبداً لأن سرعتنا لا تخوننا
ومحركاتنا لا تقطعنا أبداً
ومضادات الطائرات لا تصلنا أبداً
وصفارات المصانع لا تنذر الأطفال لأننا سنسبي النساء
قبل أن يصلن للملجأ
لأننا نتقارب فوق البحر قبل طائرات العدو التي تظهر
من المدن مثل كشاشة الذباب على جثة لنتراجع بالنظر
فنرى بزوغ النهار على المدن الذهبية
والمدن البيضاء الملتهبة باللهب المرعب والإجرامي
أكثر من شفق الفجر بضوئه الأول
كل عضوية من حشيش، لنفرح لنفرح، الدينونة آتية، الدينونة آتية

من مملكته في السماء إلى مملكتنا في الأرض
ليعيش يسوع الملك
حطام في الخراب ومشافيكم وغرف المدارس والمصحات خاضعة للهيب
المكتبات والمتاحف سوف نتركها لكم للخراب على الأرض
وبذلك ستنهض إسبانيا الجديدة من الرماد
وأنتم أيها الفقراء والمنحطون
أنتم يا من تأكلون الحشائش وتشحذون الخبز
لا تقرؤون ولا تكتبون وتحاربون الثلج والبرد في«تري ويل».
وعلى جليد«سوموسيرا».
وفي الخنادق الطينية خلف«مدريد» أو بحقول«إلسترا أمادورا».
من جهة بنك«غوادا ليكيفيري» الأحمر البني
في شمس قرطبة اللاهب يا من تقاتلون
من أجل رخام«إردوازي» مصور
لكي تكتبوا وتقرؤوا لزوال، أوه، زوال
لبؤسكم وحاجاتكم فلنبارك

لأنكم اليوم ورثتم مملكة السماء،
ليزُلْ من ليس له أرض وسنعطيكم حصتكم منها
بحفرة سوداء بطول ستة أقدام إذا كنتم محظوظين
بزوال العمال في زرائبهم والغجر في كهوفهم
ليزُل من ليس له أرض وسنعطيكم حصتكم منها
بحفرة سوداء بطول ستة أقدام بثلاثة إن كنتم محظوظين
بزوال الجمهورية الديمقراطية، وبزوال الأناركية الملحدة، والثوار الحمر
الزوال لكم أيها الكاثوليك الذين لا صوت لهم في الجوقة المقدسة
بزوال النساء والأطفال بالآلاف
وعشرات الآلاف وبزوال بذوركم في الرحم
ليحيا يسوع الملك
شاب معلق على صليب
يعتمر تاجاً من شوك بعينين حزينتين
أكثر حزناً من المطر لتنزف جراحه إلى الأبد
دائماً دون نهاية

سيظل دمه يقطر نقطة نقطة إلى العالم الملتفت له
سوف يفهم
سوف يسامح
زوال المستقبل، زوال الأمل، بزوال الحب
والتعاطف، زوال إسبانيا
ليحيا يسوع الملك.

مذاق الفاكهة

ويليام بلومر

(بذكرى المنتحرين في الولايات المتحدة «إنغريد وناكاس» بذات الشهر).

حيث المد الجارف يتغلغل
بين الصخور في غشاوة الغبار
ينقلب الزمن
لن تجده هناك
حيث برج من ماء أخضر يتحطم
ويُعاد تشكله على شكل قطرة رمل وحشية
لن تجده هناك
حيث الفخر بالتواضع والغبطة في الأناقة
تمجد خليط السكن الفقير لامرأة وحيدة

لن تجده هناك
حيث الرجل الأبوي ينتظر مع المطلق
بفهم بلا إلحاح
وبيد ملأى بالراحة
لن تجده هناك
حيث البيرة المرة والدخان الكثيف، والفسق والضجيج
وبضحكات نصف مموهة
يموت الأمل جريحاً
هو ليس هناك
هو الذي أحب المعرفة لتقشعر له الأبدان والحقيقة الممتلئة
نتيجة سنين من التمارين
لن تجده هناك
عندما كانت كالطفل تفكر وتحمل حديده بذور المعرفة
والحكمة تصبح الآن زهرة
وهي ليست هناك
الرجل بلا جواز سفر عاش في المنفى
هو بحد ذاته من الطبيعة التي هي تربة وجوده

لكن لا عودة
لأي منهما مع جواز سفر
دارت عينان عظيمتان نحو أوروبا
فعلى ماذا تعود؟
لقد وجدت منزلاً
هي ليست فيه هناك
يتكاسل الرجال حين يأكلون لحماً على منحى منحدر
أصوات عدم الموافقة للذين ينظرون
إنها ليست هناك
وحيث المثقفون يتكثفون مع بعضهم حتى الرقاب
بالزي الذي يُسمح لك به دون أي استثناء
هي ليست هناك
الآن أصبح حراً بدولة بلا حدود لكن
حيث يعمل الرجال لتحديد الحدود
هي ليست هناك
شعبي مضطرب فصرخت من أجل جذوري
ألفاظاً ذاهبة بكل اتجاه

شعَرتْ بأنها مرفوضة
الآن هي في لا مكان
حين يضيع الرجال بالسجن من أجل أن يكون لهم ثمرة
تكون الثمرة التي زرعوها تلك التي لن يذوقوها
دمه ومقاطعته تمزق ببطء العذاب
للأشجار البعيدة ليتحمل ما سيكون
أُخذت منحنية لوفرتها
دع الذين سينقذوننا بالتوبة والعرق دعهم يذوقوا
ويتذكروا هي وهو وكل الآخرين الذين ذابوا بالعصير.

مختصر سير المؤلفين

١ -**ليونيل آبراهامز**: نشر قصصاً ومقالات وأدباً نقدياً، وحرَّر لهيرمان بوسمان ثلاثة مجلدات بعد موته، كما حرَّر في «جوهانسبورغ» مجلة الآداب حول نبذ أرجوانية السلطة(*).

٢ - **بيرسيس آدامز**: شاعر وأول دواوينه: «الأرض أمام بابي ١٩٦٥م» نال الجائزة الأولى في منافسة الشعر الإنكليزي في جنوب أفريقيا بقسم التربية والفن والعلوم ١٩٦٥م، ويعيش في «كيب تاون» كمدرِّس.

٣ - **مارغريت اللنبي**: مدرّسة آداب في «جوهانسبورغ» ولها دواوين شعر منشورة في مجلدات ومجموعات أدبية.

٤ - **جيليان بيكر**: تعيش في لندن منذ عام ١٩٦١م، وأول قصة لها كانت «المحتفظ به» وهي جزء من رواية ثلاثية الفصول اسمها «مدينة هذا الزمن» كتبتها عام ١٩٥٤م.

٥ - **ماري بنسون**: نشرت سيرة الرئيس «لوثولي» و«تشيكيدي كامه» مع دراسة للمعارضة الأفريقيا ضد المختصين بالتمييز العنصري في جنوب أفريقيا بعنوان: النضال من أجل ولادة الحقوق، ففرضت عليها الإقامة الإجبارية في «جوهانسبورغ» عام ١٩٦٥م، ثم سافرت إلى لندن بعد عدة أشهر ولم يعد يُسمح لها بالنشر أو بالنقل عنها في جنوب أفريقيا.

(*) الأرجوان رمز السلطة عند الشعوب.

٦ - **داغمور بواتي**: أحد الموهوبين الذين أظهرهم «نات ناكاس» من الكلاسيكيات وبسبب حبكاته القوية شجعه «بارني سايمون» لكي يكتب سيرته الذاتية، وقد قطعت عندما تعرض «بواتي» نفسه لسرطان الرئة ومات في نوفمبر ١٩٦٦م بأول أربعينات عمره.

٧ - **هيرمان تشارلز بوسمان**: ولد عام ١٩٠٥م ومات ١٩٥١م، ونشر قصصاً وروايات وأشعاراً ومقالات وهو أفريقي من أصل أوروبي، كتب باللغة الإنكليزية وله قصص هزلية عن حياة براري «الأفريكانير» التي تمرح فيها الدواب، جمعت بكتابين: «الطريق المشوش» و«داخل الغبار».

٨ - **دنيس بروتوس**: عضو ورئيس «إرستوايل»، جمعية جنوب أفريقيا الأولمبية اللاعنصرية، وكان «إنجيلياً» لكنه اتبع الماركسية الشيوعية، فسجن لأنه خالف لائحة الحقوق المدنية ثم أُطلِق سراحه تحت الإقامة الإجبارية في «بورت إليزابيت». لكن مجموعة من أشعاره نشرت في «نيجيريا»، ومنع عنه نقل أي شيء أو أي إرجاع له في جنوب أفريقيا فترك البلاد بناء على قانون العزل العنصري ١٩٦٦م.

٩ - **غاي باتلر**: شاع صيته كشاعر خلال خدمته بالجيش أيام الحرب، ونشر مجموعتين؛ «غريب عن أوروبه» و«جنوب الزامبي»، وبعض أشعار درامية جمعتها مطابع جامعة أكسفورد تحت عنوان: «كتاب عن الشعر بأفريقيا الجنوبية»؛ حرَّر ربعية «أوراق الشعر» بعنوان «عملة جديدة»، وهو أستاذ بجامعة «رودز» في «غراهامستون».

١٠ - **سيدني كلاوتس**: نشر مجموعة أشعار عن الحياة في ١٩٦٦م، وعاش في «كايب تاون» حتى عام ١٩٦٢م وبعدها في لندن ليعمل وكيلاً معتمداً للآداب.

١١ - **جاك كوب**: مؤلف مجموعة قصص منها: «البيت الجميل والبينو»، وقد انتشرت قصصه القصيرة بشكل واسع وبمجموعات «الثور

المروَّض»، وهو يحرر في مجلة الآداب الأفريقيا الجنوبية ومجلة «تناقض الحياة» ويعيش في «كايب تاون».

١٢ - **أنثوني ديليوس:** نشر ديواني شعر وهما: «الحدود المجهولة» و«زاوية العالم» وهما هجاء سياسي شعري، أما «الانقسام الأخير» فكتاب فيه قصص سفر ومسرحيات، وظل خلال سنوات مُعلِقاً لمجلات مثل: مجلة «الكايب تايمز» للنقابات السياسية، وبسبب العمود الذي كان يكتب فيه، تم منعه من الكتابة من قبل مجلس النواب في «الكيب تاون» المدينة التي كان يعيش فيها.

١٣ - **س. جي. وريفر:** متخرّج من «سانت أندروز كوليدج» وجامعة «كايب تاون» وهو رئيس الاتحاد الدولي لطلاب جنوب أفريقيا بين عامي ١٩٦٣م - ١٩٦٤م وقد احتجز لمدة تسعين يوماً، وهو الآن في أكاديمية «ترينيتي كوليدج» بأكسفورد، ونشرت أشعاره في دوريات مختلفة في جنوب أفريقيا وإنكلترا.

١٤ - **تشارلز إغلينغتون:** ظهرت أشعاره في عدد من دواوين الشعر، وترجم أشعاراً من البرتغالية، كما ترجم عملاً جدلياً لقصص أفريقية، وكان مدير تحرير جريدة جنوب أفريقيا، وهو الآن مع مجلة «التفاؤل» التابعة لمركز المناجم، وهي مؤسسة أنكلو - أميركية.

١٥ - **روث فيرست:** محررة في عدد من المجلات المعادية للقومية في جنوب أفريقيا، وانتهت مهنتها بسلسلة من المنع الذي بلغ حده الأقصى بسجنها مدة تسعين يوماً - بحجز دون محاكمة قانونية، وبعد أشهر من إطلاق سراحها قبلت إذن خروج وذهبت لتعيش في لندن، وهناك كتبت «١١٧ يوماً» تصف فترة احتجازها ما جعل مساهمتها هنا بوصفها خبيرة، كما كتبت كتاباً عن جنوب غرب أفريقيا، مع أنها لم تنشر في جنوب أفريقيا ولم تعتبر مرجعاً هناك - حسب قانون المنع -.

١٦ - **دايفيد فريدلاند:** أعمى منذ ولادته، حائز على شهادة بالقانون من جامعة«ويتواتر براند»، عاد إلى«جوهانسبورغ» بعد سنة دراسية في إنكلترا وكتب فيها أشعاراً ومسرحيات ودرّس فيها.

١٧ - **آثول فوغارد:** له مجموعة من المسرحيات بكتاب صيغته:«مرحباً ووداعاً» وبكتاب آخر عنوانه«رباط القرابة» اللذين اشتهرا في أميركا، وكان أيضاً ممثلاً ومنتج أفلام، وقدم مساعدات رئيسية في تشكيل«مسرح مختلط الأعراق» إلى أن حدّ من نموه الإحباط بزيادة الممنوعات تحت سلطة الشرطة العنصرية. وهو كنصف أفريقي يكتب باللغة الإنكليزية ويعيش في«بورت أليزابيث» ولكن في الغالب يسكن في مجمعات كبيرة أو بالخارج ليمثل أو ينتج أفلاماً.

١٨ - **نادين غوردايمر:** ألّفت عدة روايات آخرها:«البرجوازي القديم»، ولها أربع مجموعات قصصية صغيرة، وقد حصلت على جائزة ١٩٦١م من«دبليو إيتش سميث»، وتعيش في «جوهانسبورغ».

١٩ - **جيوفري هيرسنيب:** محاضر باللغة الإنكليزية بجامعة: «ويتواتربراند» وكاتب قصص وأشعار ومقالات، وأكملها بالسيرة الذاتية«لبولين سميث».

٢٠ - **دان جاكوبسون:** مؤلف لست قصص آخرها:«المبتدأ» وهو كتاب أسفار حول الشاطئ الغربي لأميركا، وفيه أجزاء مقالات ومجموعة قصص قصيرة، كوفئت بجائزتي«سومرست موم» و«كيويلين ريس بموريال»، وإحدى قصصه أصبحت دراماتية، وأخرى قصيرة تبناها مسرح«برودواي» الشهير –بنيويورك - وهو يعيش الآن في«لندن».

٢١ - **يويس كريج:** نشر الكثير من دواوين شعره والدراما والقصص النقدية، والرحّالة في الأفريكان، كما ترجم من الإسبانية

والفرنسية، وشكسبير من الإنكليزية إلى اللغة الأفريقية، وحين بدأت الحرب ١٩٣٩ -١٩٤٥ اعتقله الألمان في شمال أفريقيا، وعكس فراره بعد ذلك من معسكر الاعتقال الإيطالي«ب. أو. دبليو» في قصته:«الطريق إلى الخارج» باللغة الإنكليزية، وهو يعيش الآن في«كيب تاون».

٢٢ - **أليكس لاغوما:** كان عضواً من الملوَّنين في هيئة بلدية«كايب تاون سيتي» وكتب قصصاً كثيرة ونشر قصتين طويلتين:«السير بالليل» حيث أسهم بها كمقتبس - و «حبل بثلاث ربطات»، ولم تذكر كلها في جنوب أفريقيا ولم تنشر هناك، وهو اليوم خارج البلاد.

٢٣ - **لورنس ليرنر:** ولد في«كايب تاون» وعمل محاضراً للغة الإنكليزية في جامعة«ساوثمبتون» ،وله عدة دواوين شعر منشورة، منها: «اتجاه الذكريات»، وهو أيضاً من كتاب القصص.

٢٤ - **دوغلاس ليفينغستون:** كان يعمل في«دوربان»، وانتشرت أشعاره بقوة في جنوب أفريقيا وخارجها، وكانت جائزته الأولى التي ربحها في احتفال«شيلتنهام» بالأدب الإنكليزي، وله مجموعتان باسمه:«الجمجمة في الطين - و - سجامبوك».

٢٥ - **تود ماتشكيزا:** كان يكتب عموداً بمجلة«درام» في«جوهانسبوغ» وهو مؤلف موسيقي للفرقة«كينغ كونغ» التي كان لها باع طويل في «ويست إيند» - و «ماهوبان»، ثم هاجر إلى لندن نحو عام ١٩٦٠م وكتب سيرة حياته بعنوان:«شوكولا لأجل زوجتي»، وكان بذلك من الذين يُعتبر عطاؤهم ضمن ٤٦ منفياً منذ أبريل ١٩٦٦، ممنوع أن يقتبس منه شيء أو ينشر له أي شيء في جنوب أفريقيا وهو الآن يعيش في زامبيا، وله برنامجه الخاص في إذاعتها الرسمية - وطبعاً كان هذا في ستينيات القرن الماضي -.

٢٦ - **روث ميللـر**: كانـت أولى مجموعاتهـا الـشعرية بعنـوان«الجزيـرة الطافية» التي ظهرت عام ١٩٦٤م، وبعدها نـشرت أعمالها بـشكل هائل في أفريقيا الجنوبية وخارجها، وحصلت عـلى جـائزة«أنغريـد جونكز» للشعر عام ١٩٦٦م وتعمل مدرِّسة في«جوهانسبورغ».

٢٧ - **وولــف ميللــر**: كــان يعمــل اقتــصادياً في«بيــت التعــدين في «جوهانسبورغ» ونشر قصة«الرجل في الخلف».

٢٨ - **كايسي موتسيسي**: صاحب عمود وصحافي لإعادة اللّحمة في مجلة «جوهانسبورغ»، وقد نشر قصصاً وقطعاً منفصلة عن ذلك.

٢٩ - **إزيكيال فاهليلي**: ألّف سيرته الذاتية:«حول فجر الـشارع الثـاني» ولـه الـصورة الأفريقيـة كمقـالات نقديـة، وكتابـات قـصص، وعـاش في «نيجيريا» بعد أن ترك جنوب أفريقيا ثم أدار مركز«شيميشمي» الثقافي في بـاريس، والآن يحـاضر في جامعـة«دنفـر» باللغـة الإنكليزيـة في الولايات المتحدة، وهو ممنوع من النشر أو أن يقتبس عنه أي إرجاع في جنوب أفريقيا.

٣٠ - **ناثانييل ناكسا**: صحافي سابق في مجلة«جوهانسبورغ»، نال مثل زميله «لويس تكوسي» درجة الزمالة«نيومان» في هارفارد، ورفضوا إعطاءه جواز سفر ليترك جنوب أفريقيا بإذن سفر. وفي الـسنة الـسابقة لـسفره كان أول أفريقي يـسمح لـه بكتابة عمـود أسـبوعي في جريـدة«الرانـد ديـلي ميـل» البيـضاء، وهـو مؤسـس:«الكلاسـيكية التـي كـان هـدفها تشجيع الكتّاب الأفارقة، وخاصة السود منهم، والتي صارت تتعـاون مع«النيويورك تايمز» والصحف الأميركيـة، وحـين بلـغ ٢٨سـنة مـن عمره انتحر في نيويورك ١٩٦٥.

٣١ - **لــويس نكــوسي**: الـصحافي الـسابق في«مجـلات جوهانـسبورغ» والحـائز عـلى جـائزة«نـيمن» مـن«هـارفرد» والزمالـة فيهـا، رُفِض

إعطاؤه جواز سفر، وترك جنوب أفريقيا بإذن سفر، وعاش في لندن، وعمل محرراً للآداب بالأفريقي الجديد التي تتعاون بالنقد الأدبي مع الجرائد الإنكليزية الرئيسية، كذلك ترجم مؤخراً مسرحية بعنوان«ريشْم العنف»، وكذلك نشر مجلداً بمقالات نقدية بعنوان«الوطن والمنفى» الذي منع الإرجاع إليه أو نشره في جنوب أفريقيا.

٣٢ - **آلان باتون:** مؤلّف قصص«الصرخة»، و«البلد الحبيب» ومجلد قصص قصيرة ورواية وسيرة ذاتية«هِي إيتش هوفمير»، وكتب مسرحيتين موسيقيتين هما:«مكهوبين - و - سبونونو». وهذه الأخيرة مقتبسة من قصة نشرناها هنا، كما مَثلت في مسرح «برودواي» نيويورك، وكصاحب مبادئ إصلاحية صار الرئيس القومي للحزب الليبرالي في جنوب أفريقيا، وفي عام ١٩٦٠م نال جائزة الحرية الأميركية التي نالها قبله«ونستون تشرشل - و - داغ همرشولد»، وقبل بضع سنوات تمّ سحب جواز سفره منه، وهو يعيش في«كلوف» قرب«دوربان».

٣٣ - **ويليام بلومر:** له ثماني مجموعات شعرية وقصائد هجائية وآخرها في الظهور كان عام ١٩٦٥م، وأربع قصص أخرى تلاها أربع مجموعات قصصية، وسيرة ذاتية ونص لأوبرا بعنوان«بنجامين بريتيني»، ومجلة صغيرة -لأجل أن لا تَلْدَغ بالهجاء بخلفيته العقلية التي تجيش لها الجيوش على المواطنين، - كما أطلق هذا الاسم الطويل على مجلته وهو يعيش في جنوب أفريقيا واليابان وإنكلترا.

٣٤ - **جان رابي:** مؤلف أفريقي للقصص، وللقصص القصيرة والجدليات، وعضو متقدم للمجموعة الستينية التي عملت على تجديد الأدب والفكر الأفريقي، وهو الآن يعيش في«كيب تاون».

٣٥ - **رونالد سيغال:** مؤسس ومحرر الفصلية - أي تصدر أربع مرات كل سنة - السياسية: «أفريقيا الجنوبية»، والتي أصدرت عدة طبعات بعد نفيه إلى إنكلترا، وهو الآن المحرر الرئيسي لـ«Penguin» الأفريقية في المكتبة الأفريقي العامة «لبنغوين»، وألف عَدة كتب حول موضوعات سياسية خارجية بما فيها دراسة عن الهند، كما كتب سيرته الذاتية بعنوان /«في المنفى» ومقامه في بريطانيا كخبير، ولا ينقل عنه أو ينشر له في جنوب أفريقيا.

٣٦ - **بارني سايمون:** ذهب إلى لندن عندما كان في الواحد والعشرين من عمره، ثم عاد بعد أربع سنوات ليلتحق / بالمسرح المختلط للأعراق الذي أسسه «آثول فوغارد» بجوهانسبورغ»، كما أسس فرقة «لاعبي العنقاء»، وأخرج عدة مسرحيات، وصار خلفاً «لناثنيال ناكاسه» لتحرير مجلة «الكلاسيك الأدبية»، كما عمل في الترويج الإعلامي ونشر قصصاً قصيرة.

٣٧ - **فينسنت سوارت:** توفي عام ١٩٦٤م وعمره بالخمسينات، وكان قد عاش بضع سنوات في لندن عضواً رئيساً في «الجمعية التروتسكية لديمقراطية القارة»، وجذبت أشعاره اهتماماً عاماً، ومثله «كاثي جوني» في «أوسكار وليم» بعنوان «الكنز الذهبي للشعر المعاصر»، لأنه كان تحت الإقامة الإجبارية في جنوب أفريقيا، وظل حتى وفاته ممنوعاً من الاقتباس عنه والنشر أيضاً.

٣٨ - **كان ثيمبا:** حاز على التميز باللغة الإنكليزية حين تخرجه بالبكالوريوس من جامعة «فورت هير كوليدج» فحرَّر في عدد من المجلات المشهورة في «جوهانسبورغ» لكن المتوقفة حالياً، ثم خدم في مجلة «الطبل» كمراسل ثم كمساعد محرر، فنشر عدداً من القصص القصيرة في عدة مجلات، وهو حالياً أستاذ التوجيهية في مدرسة «مباباني» في «سوازيلاند»، وهو ممنوع الآن من الاقتباس منه أو نشر كتبه في جنوب أفريقيا.

٣٩ - **لورنس فان دير بوست:** مؤلف لأربع قصص، وروائي رحال في أفريقيا كما في كتبه «مغامرات في الداخل وبين سكان الداخل «بوشمان» في «كالاهاري»، وبصورة خاصة قصة «عالم كالاهاري الضائع»، وله قصص عن اليابان وأفريقيا وكتاب حول روسيا السوفييتية، وكان له ملف عسكري لامع في الحرب العالمية الثانية، بلغ أوجه في سجنه ثلاث سنوات في اليابان، وهو يعيش في «سافولك» وأيضاً في لندن، لكنه يعود إلى أفريقيا بصورة متتابعة.

٤٠ - **آن ويلش:** ظهرت أشعارها بعدد من الدواوين، وكانت تعمل محاضِرة رسمية في جامعة «ويتواترسراند»، وهي الآن تكرّس وقتها لمعرفة إضافية عن الأفريقيين الذين لا يستطيعون لسبب أو لآخر حضوراً منظماً لمقررات الجامعة للدراسة.

٤١ - **دايفيد رايت:** شاعر قصص أخلاقية ومونولوجات عن رجل أطرش، وهو ناقد ومحرر بدأ حياته في جنوب أفريقيا وجعل من هذا السياق مرجع إسناد في الكثير من أعماله.

٤٢ - **أ.د. هاني يحيى نصري** (مرفق موجز سيرتنا الأكاديمية).

المحتوى

الصفحة

الباب الثاني

مقالات لشهادات أدباء

الباب الثالث
دراما

الباب الرابع
الشعر

الصفحة

الدكتور هاني نصري

- من مواليد دمشق ١٩٤٦م.
- ليسانس - بكالوريوس في الفلسفة وعلم الاجتماع، جامعة دمشق، ١٩٧٠.
- دكتوراه في فلسفة العلوم الإنسانية بدرجة امتياز من جامعة فوردهام –نيويورك، ١٩٧٩.
- أستاذ مشارك في جامعة فوردهام في نيويورك.
- عضو اتحاد الكتّاب العرب«لجنة الدراسات والبحوث» ١٩٩٧.
- كتب الكثير من المؤلفات: منها:
  - المنطق والأبيستيمولوجيا
  - الحب والفاجعة
  - دعوة للدخول إلى تاريخ الفلسفة.

وترجم العديد من الكتب منها:

- أخبار سقوط غرناطة
- الحمراء
- محمد

الطبعة الأولى /٢٠١٧م

كلمة الغلاف

يعكس الأدب من جوانب فنية غير مباشرة فلسفة الصلة بين الحضارات، وفي هذا العمل سيجد القارئ الصلة القوية في البنية الاجتماعية لجنوب أفريقية مع شمالها، كما أوضح« نادين غودايمر» أسرار العون الجزائري لحركات المقاومة الزنجية، من أجل المساواة العرقية حرباً ضد البيض منذ بداياتها في قصة بهذا الكتاب، تحت عنوان:«من المؤكد سيكون يوم الاثنين» ؟ وهي الشيفرة بين المقاومة وبدء الصراع المسلح هناك، المترافق مع فتح مراكز التدريب في الجزائر للثوار بمعاونة أثيوبية أيضاً.

وتاريخياً: سيجد القارئ في مقدمة هذا الكتاب ما أوضحه بشأن هذه الصلة، من خلال«الزوايه» الصوفية من شمال أفريقيا إلى جنوبها منذ الفتح العربي، والأدب حين يوضح هذه الصلة الحضارية بين الأفارقة، يؤكد تشابه البنى الاجتماعية في حضارتنا ككل، فينبه لتشابه المشكلات الاجتماعية أيضاً، تلك التي تبرز اليوم بعد التساوي بين الأعراق هناك، الأمر الذي سيجده القارئ بما نقدمه له من ذاك الأدب، بنفحة اجتماعية بيننا وبينهم واحدة بكل معاني الكلمة، تدعو إلى الفخار بقدر ما تدعو لنقد الذات، وضرورة تصحيح العيوب، حتى لا يستمر طمع الشعوب الأخرى«بنمطنه» الحضاري المختلف عنهم، تاركاً للقارئ اللبيب إدراك هذا النمط الذي أوضحته بين ثنايا تلك الأشعار والقصص والأخبار لإيضاحه لنفسه، وإلا فليعلم بأنني بهذه الترجمة لا أقدم قصصاً ترفيهية له.